فصول من تاريخ ليبيا الثقافي

د. عبد الحميد عبد الله الهرامة



أصالة
للنشر والتوزيع
بيروت

فصول من تاريخ ليبيا الثقافي

فصول من تاريخ ليبيا الثقافي

د. عبد الحميد عبد الله الهرامة



للنشر والتوزيع
بيروت

الإهـــــداء

إلى الذين أسدوا بأقلامهم خدمات جليلة

لتاريخنا الثقافي، وفي طليعتهم:

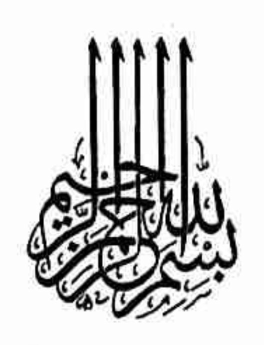
الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي

الأستاذ علي مصطفى المصراتي

الدكتور خليفة محمد التليسي

. . . أقدم هذا الجهد المتواضع . . .

المؤلف



تقـــديـم

تعرض التاريخ الثقافي في هذه الرقعة من الوطن العربي لكثير من التجاهل والإغفال لأسباب متعددة لعل أبرزها طول المعاناة التي ألمت بأهلها خلال فجر النهضة العربية وضحاها، وذلك نتيجة لصنيع الاستعمار الإيطالي المتميز في عدائه للبلاد وتراثها، بحيث لم يشبهها في مأساتها بين الأقطار العربية غير حال الصومال.

وثمة سبب آخر لا يمكن استبعاده وراء ذلك الإغفال، تمثل في إحجام الكتّاب والأدباء العرب الليبيين عن نشر نتاجهم الثقافي بحجة التواضع أو بسبب الصعوبات المختلفة التي حالت دون إسهامهم في التعريف بتراثهم وتاريخهم الثقافي.

غير أن ذلك لا يسمح بتجاهل تلك الإسهامات المهمة التي خلفها الرواد في مجال التاريخ الثقافي والتاريخ العام، مطبوعة كانت أو مخطوطة أو شفهية، وأولاهم بالذكر الشيخ الطاهر أحمد الزاوي، والأديب أحمد الفقيه حسن، والأستاذ علي مصطفى المصراتي، والدكتور خليفة التليسي، والأستاذ رجب الماجري، والأستاذ المهدي أبو حامد والشاعر عبد ربه الغناي.

وقد كانت هذه الإسهامات وغيرها من محاولات النشر القليلة قاعدة بنى عليها الباحثون الجامعيون أعمالهم فيما بعد وأضافوا عليها من نتائج أبحاثهم

ونواحي تخصصهم ما سدّ بعض الثغرات في تاريخنا الثقافي فكان من ذلك ما كتبه الدكتور عمر التومي الشيباني في تاريخ التعليم والدكتور محمد عبد الكريم الوافي في الترجمة والتاريخ العام، والأستاذ محمد مسعود جبران في تراجم الرجال، والأستاذ عمار جحيدر في التاريخ الثقافي، والدكتور الصيد أبو ديب والدكتور عبد المولى البغدادي في الأدب، والأستاذ السائح حسين والأستاذ المختار بن يونس والأستاذ الصديق نصر في دراسة بعض العلماء وآثارهم المخطوطة، وغير هؤلاء من الدارسين الذين يواصلون الجهود من أجل توضيح الصورة الصحيحة عن تاريخنا الثقافي.

إن البيئة التي أنبتت ابن الأجدابي اللغوي، وابن غلبون المؤرخ، وابن أبي الدنيا الصوفي العالم، والحطاب الفقيه، وأحمد بن عبد الدائم الأنصاري، والمهدي والأسطى والشارف وغيرهم من الشعراء لجديرة بدراسة تاريخها الثقافي، وواعدة بآثار مهمة قد تسمح الأيام باكتشافها في المستقبل القريب.

لقد دفعتُ هذا العمل قبل نشره إلى الأستاذ الكبير علي مصطفى المصراتي لكونه المتخصص الأبرز في التاريخ الثقافي الليبي فأمدني - حفظه الله - بملاحظات قيمة حجبها عن قارىء مقدمته ستراً لما عليه العبد العاجز من قصور، وأبدلني من ذلك صفات لا أستحقها، دفعه إليها حرصه الدائم على تشجيع الشباب وبعث الثقة في نفوسهم.

وما يجده القارىء في الدراسات التالية ليس سوى محاولات من جهد المقل مدفوعة برغبة المشاركة في تدوين ما يمكن تدوينه من تاريخنا الثقافي، وقد كانت في معظمها منشورة في مجلات مختلفة، أو مقدمة إلى ندوات علمية، ثم رأيت أن خيطاً يجمعها هو هذا الذي يحمله العنوان، عسى أن تُسهم في جمع شذراتٍ من صورة هذا التاريخ الغائبة في مجاهل الماضي، وتحقق بعض ما أرجو أن تتضافر الجهود لإنجازه وتحقيقه...

ولئن طال انتظاري لصدور هذا الكتاب الذي كان مجموعاً في معظمه قبل عام 1990 فإن ظروف تأخيره متعددة، يتعلق أهمها بإمكانات النشر وصعوباته المختلفة، وأنتهز هذه الفرصة لأشكر الأخوة الأفاضل الذين ذللوا بعض تلك الصعوبات، وليسمحوا لي أن أخصّ بالذكر من بينهم الأستاذ محمد زمياط والأستاذ محمد الرياني اللذين كان لهما الفضل المقدر في تحويل العمل إلى مراحله الأخيرة، جزاهما الله عن ذلك خير الجزاء.

طرابلس في 1998/8/1

مقـدمـة:

إنارة وإشارة

بقلم الأستاذ العالم: علي مصطفى المصراتي

عندما تطالع هذه الصفحات التي يبادر بتقديمها للمكتبة العربية كاتب وباحث جاد هو الأستاذ عبد الحميد عبدالله الهرامة يتأكد لديك موضوع وجانب له أهميته... هو ثراء التاريخ العلمي، والنشاط الثقافي لليبيا العربية في تاريخها الإسلامي.

هذا من ناحية، وأيضاً من جانب آخر يتأكد لديك أن هذه الصفحات وما حوت من مادة علمية وأسلوب متميز هو دلالة على أن في هذه البلاد أقلاماً ناضجة... واتجاهات علمية طيبة آتت ثمارها بعد معاناة ودربة... فضلاً عن الشوق العلمي... وهي رغبة آكدة لخدمة هذا المجال، والدراسة العلمية تتطلب الصبر... والدأب والتمكن... ومواصلة البحث والشغف وهي صفات وخلال يتصف بها كل باحث وهب نفسه للعلم والاكتشاف في ثنايا التاريخ... ومشاربه ودهاليزه...

ومن هؤلاء وفي طليعتهم في جيله الأستاذ عبد الحميد الهرامة... وحقيقة ـ ليس عاطفة ولا مجاملة ـ هو من الطلائع الطُلعة...

ومن ذلك النوع من عشاق المعرفة والاستزادة الذي لا تجده إلا سائلاً عن مسألة أو مشغولاً بتحقيق قضية علمية ولا يلقاك إلا هو متحدث عن مسألة

يستوضح غامضاً. ويشرح مبهماً... أو مكتشفاً لترجمة عالم لم يكتب عنه أحد... أو سقط سهواً أو جهلاً من بعض الدارسين فرحاً بهذا الكشف كأنما هو عثر على كنز أو فاز في سباق...

هذه النشوة أو المتعة العلمية لديه ولدى أمثاله من شباب الدارسين دلالة صحة وعافية في المسار الدراسي والثقافي... وإشارة إلى حيوية الإسهام والعطاء...

فهو جدير بكل تقدير لمهمته العلمية، يلاحق العلم... ويلاحقه، جنّد كل مواهبه وإمكانياته لهذه الرسالة الشائكة... المشوقة.

وقد قرأت له عدداً من المقالات في المجالات العلمية بليبيا، واستمعت إليه محاضراً في المواسم الثقافية في تلك المحاضرات التي تدل على جودة الاختيار ومنهجية البحث... وقبل هذا وبعده حب لتاريخ هذا الوطن العزيز.

ووجدت في الأستاذ الهرامة جانباً آخر نكاد أن نفتقده في الحياة العلمية... هو جانب المحاورة والنقاش والتعليق الموضوعي، هذا اللون الذي يتطلب سعة اطلاع... وشدة اهتمام... ودقة ملاحظة، وحُسن متابعة، مع تجرد وموضوعية، ويبرز الهرامة المناقش المعلق في ندوات ذات طابع علمي فإذا به من ذلك النمط الذي يحمل همَّ العلم. وتؤرقه همومُ البحث، ومن ذلك النوع الذي بدافع الشغف العلمي والوله الأدبي لا يكتفي بما وصل إليه من مرحلة وما حققه من نتاج. بل هو العالم الدؤوب يواصل السير في مراحله والتطلع نحو غاية أكبر وأكبر في مجالات الدراسات والبحوث.

ولقد استعد لهذا بالدراسة، والفحص... والاستقصاء والكشف.. ويوظف لذلك كل إمكانياته في رحلاته الداخلية بالواحات... ومناطق الجبل والفيافي وأطراف الصحراء... وفي السواحل والمدن... والمدارس القديمة والدواسر... مُستطلعاً... متسائلاً... مستنبطاً. بحثاً عن رسالة أو أضبورة... أو حفرية علمية يبعث فيها حيوية الحياة. ويقدمها في صفحات

يقبل عليها القارىء ويتلهف عليها الباحث يبذل هذا الجهد في رحلاته في الوطن الليبي كما هو دأبه في رحلاته واستطلاعاته في أنحاء مختلفة. . . لا يستروح. . . ولا يرتاح بل هو طائف على مكاتبها. . . باحثاً عن أهل المعرفة أو منافذ المعرفة ليضيف إلى تحقيقاته زاداً جديداً أو رحلاته في البلاد الإفريقية والعربية كما يتضح لك من خلال هذه الصفحات التي يقدمها. . فهي عصارة جهد وخلاصة دأب. . . وصورة كما أشرنا من الشوق العلمي. . . فهو لا يترك وقتاً إلاّ ويوظفه لهذه المهمة العلمية في مواصلة الدراسة والكتابة.

يريد أن يتحقق في تثبت أهل العلم عن اسم كتاب مخطوط. . . أو رسالة مطمورة، أو حلقة مفقودة أو ترجمة لعالم غمرته الأيام. . . وطوته صفحات النسيان أو سقط من الذاكرة. . . سهواً أو قصداً فهو كما يقال ـ شمر عن ساعد الجد ـ فلم يكتف بقطع أشواط الدراسة الاعتيادية الرسمية ذات الطابع التقليدي، ولم يجعل دراسته نهاية شوط كما صنع ويصنع كثرة من أهل الوظيف والرغيف والرصيد، إنما كما أشرنا ونشير جعلها بدءاً لمرحلة أخرى تتبعها وتلاحقها مراحل أُخر.

وهكذا دواليك في تطور عطائه. . . ومنهج كتاباته صورة من البذل من غير ادعاء. . . أو غرور وابتذال أو استعلاء من علو. . . أو مبالغة وغلو، وهي -بلا شك ـ صفات جديرة بأن تؤهله وتعده في صفوف العلماء الجادين. . . والباحثين الأفذاذ في هذا المسار الذي اختاره والخطة التي ارتضاها ـ مجال التراجم. والتحقيق وتسليط الأضواء. وإزاحة ما تكدس من الركام وتوضيح المراحل التاريخية من الجانب الثقافي والفكري، سواء من أهل الفقه والتشريع والرواة وأهل الأدب والشعر وما يتصل بهذه الشؤون والشجون.

والتاريخ الثقافي والحركة الفكرية هما نبض الأمة، والمؤشر الدال على مدى إسهامها الحضاري. الحركة الفكرية هي المقياس. . . والنبراس، وإهمال التاريخ الثقافي والفكري جناية على مقومات الأمة.

والإهمال إما بدافع الكسل أو الجهالة والضحالة أو لظروف طارئة...

واجتياجات جائحة، وهو بتلك الدوافع أو العوامل - الإهمال والتقصير - خسارة...

والأمم الواعية تهتم وتضع في بؤرة انتباهها الاهتمام بالجانب الثقافي والفكري، والفني من أجل ربط الأجيال، وتواصل الحلقات، ومد الجسور، بدل الجفوة أو الهوة التي يخلقها الإهمال والتغاضي، وليس معنى الاهتمام والاعتزاز بالتراث الثقافي العيش في الماضي السحيق والغور البعيد، إنما هو شحنة عطاء وإضاءة الدروب والمسالك.

يدرس (عبد الحميد الهرامة) في هذا الفصلات المختصرة من غير إقلال والموجزة من غير ابتسار:

(1) المخطوطات الليبية.

(2) الشخصيات العلمية.

(3) ويسلّط الضوء ويثير الانتباه بلفت النظر إلى بعض الظواهر والمظاهر بأسلوب فيه سهولة للقارىء... وإفادة للمطلع وإشارة إلى من يريد التمحص والتعمق والتخصص، والأستاذ عبد الحميد الهرامة من هذا الشباب المثقف الواعي الذي نعتز بجهده في الوطن العزيز ليبيا...

فليست ليبيا مجرد صحراء شاسعة... ولا هي مجرد آبار وبراميل للبترول وما يتبعه. لكن في ليبيا تاريخ ثقافي وتراث حضاري، وجوانب قمينة بالاهتمام وهي حلقة من حلقات الفكر العربي والتراث الإسلامي... بها في هذا المجال سهم غير يسير، وثروة وذخيرة غير ضئيلة بالقياس إلى تلك الظروف والملابسات في غوابر الأيام وتطاحن الأحداث... والرياح التي غطت على كثير مما يحتاج إلى كشف وإبانة وعرض وتوضيح... وبدافع الشعور العلمي والوطني أدرك الباحث الدارس أن هذه البلاد لها تاريخ علمي ثقافي بجانب التاريخ النضالي والبطولي والسياسي، وكتب... وحاضر... وناقش...

ودرّس في هذا الجانب في تواضع أهل العلم، وخلق أهل العقل... من نوع يزيدك تواضعه إكباراً.

ولم يغرق نفسه في دائرة ضيقة بل كان له من أسلوبه الأدبي براح ومراح، يجمع بين المحاضرة في حلقة الدراسات الجامعية وبين المحاضرات العامة والندوات الموسمية لإفادة المستمعين المتطلعين لمزيد من المعرفة، ولم يكن بخيلاً بعلمه أو ضنيناً بما لديه، بل بادر بطرح ما توصل إليه بالنشر والإسهام من أجل التثقيف العام وإفادة الناس وتعريفهم بتاريخهم الثقافي.

* * *

وترتبط هذه الفصلات بخيط يجمعها بين دفتي هذا الكتاب... يُكوّن لحمة لموضوع تعددت فروعه واتحدت جذوره... مقوم الشخصية العلمية لهذه الناحية من بلاد الإسلام والعرب... مخطوطات ـ ولقاء تعارف ـ وشخصيات عاشت هنا وارتوت من معين الفكر الإسلامي واللغة العربية وأصالة الحضارة الإسلامية، هو تاريخ مشترك ونبع ارتوى منه الناهلون في مغرب الإسلام ومشرقه.

فالأستاذ هنا بفصلاته وطرقاته مع الرعيل من الشباب الدارسين يقدمون صورة... ويصححون فكرة أُخذت خطأ عن ليبيا أنها جرداء قحلة ومجردة إلا من ثروات طارئة... على أن ليبيا ثقافة وتاريخاً وحضارة لها عمق الجذور وصفاء المنابع والتأثر والتأثير بفضل اللغة والدين والموقع: الصحراء والبحر... والامتداد والتأثر.

ويشير الباحث إلى المخطوطات في ليبيا والحديث عنها يطول... ويتشعب. ما من علم أو فن من علوم الإسلامية والعربية إلاّ وخطت فيه الأقلام الليبية سواء بالتأليف أو الشرح أو النقل... أو الاستنساخ. وما من كتاب ـ غالباً ـ من المراجع والمصادر المعتمدة إلا درس في مدارس ومعاهد وزوايا ليبيا في التاريخ العلمي.

فهي بحكم وضعها وموضعها ملتقى للشرق والغرب ولحضارات البحر

والصحراء... ولها إسهامها... وإن كان بالنسبة للعواصم العلمية الكبرى يسيراً، إلا أن هذا اليسير له دلالته وإشارته... وما وراء... حتى الواحات البعيدة النائية كانت في التاريخ العلمي أيضاً لها الدور في الأخذ.. والتعريف... والصيانة والحفظ في الأثر... والتأثير.

هذه الواحات لها الأثر لا من الناحية الاقتصادية والقوافل فحسب، بل وأيضاً الاحتكاك العلم والنبض الثقافي، والتعرف الفكري، ولا تخلو قوافل المسافرين من عالم وراو ومتأدب... فضلاً عن رحلات الحج وقوافل الحجيج.

* * *

مظلوم... مغمور... أكاد أقول مطمور... التاريخ الثقافي والفكري في بلادنا...

فجاءت أقلام لها فواح الأدب ووضوح الأسلوب وصدق المنهج مع الاعتماد على المصادر والمراجع والحقائق المدعمة تزيح هذا الظلم وتدفع تلك الفرية... وتبيّن الحقيقة التي كانت مجهولة لكثير من الناس الذين يقفزون في التاريخ الأدبي والفكري من الشمال والجنوب والشرق والغرب ويهملون هذه الرقعة الشاسعة الواسعة ذات التاريخ أيضاً الشاسع الواسع أو يتحدث بعض من المؤرخين عن أحداث هامة أو حقب هامة ويهملون الجانب العلمي والفكري.

وإذا تكشف الجانب العلمي والثقافي فَيُدْفع الحيف والزيف عن تاريخ جدير بالاهتمام والاعتزاز رغم بعض المثالب والمآخذ، وهل يخلو تاريخ من مثالب ومآخذ... إنه شأن التطور... والتبلور... أو الانحدار والانحسار... والمد والجزر وقد تلافى الأستاذ هنا، ومن كتب قبله في هذا المجال ذلك الإهمال.

تتصل هذه الفصلات التي كتبها عبد الحميد الهرامة بالتاريخ والمد الثقافي أو الاحتكاك الثقافي... وهو تاريخ غني رغم إهماله، ثري منوّع رغم التناقض والتجاوز، ولكنه مبعثر يحاول أن يلم شتاته ويجمع متناثره... ويلاحق غائبه.

ضم مبعثراته لتكملة الصورة وتجلية الملامح وملء الإطار... وتوضيح ما تشوه والدفاع عن ما جُهِل وظُلم...

فهو تاريخ تستطيع أن تقول: جُهِل فَظُلم أو ظُلم فجُهل... سيان عند الموازنة والحسبان. وطبعاً تختلف المراحل والظروف بين مد وجزر، وسلب وإيجاب... وثمار وضمور وعطاء وإشحاح، وانطفاء وإشعاع... ومواصلة وتعثر... مراحل كانت مرتبطة بالأوضاع السياسية والاقتصادية والهجرات... والاكتساحات.. وقراصنة البحر أو غزاة البر... على ما روى التاريخ الطويل لهذه الشواطىء والمنافذ...

فصول من تاريخنا الثقافي موضوع هذه الصفحات له صلات بالتاريخ العام وتاريخ المؤسسات التعليمية والآثار العلمية والمخطوطات والمراسلات وتراجم بعض من الأعلام.

الحياة العلمية في الجبل الغربي: جبل نفوسة وكان له في تاريخ الفكر الإسلامي دور له أهميته... وخصيب هذا الجبل بما قدم من تراث علمي على مدى حقب وآماد طوال، وهذا الموضوع أو الفصلة الصغيرة طرقة صغيرة لموضوع كبير يحتاج إلى دراسات أكثر عمقاً... وأخصب تفصيلاً... ومن نعم الله أن مصادر ومراجع هذا الجانب الفكري والثقافي كائنة متواجدة... وإن كانت موزعة في الشمال الإفريقي... وبعض من مكاتب أوربا... والأستاذ له اهتمام بدراسة المخطوطات التي شاهدها في بعض البيوتات أو المؤسسات العلمية في البلاد وخارج البلاد.

- وقدم لنا فصلة عن المختارات الأدبية في ليبيا خلال النصف الأول من القرن العشرين.

- وأهم مراكز المخطوطات العربية الليبية وفهارسها.

- غدامس إحدى حلقات الوصل في العلاقات الإسلامية الإفريقية.

- من آثار الشاعر الأديب أحمد بن عبد الدائم الأنصاري.

- بعض المصادر العربية لتاريخ الصوفية في ليبيا.
- من الرسائل الليبية بين مخطوطات تنبكتو.
- تراجم لبعض علماء ليبيا في القرنين السابع عشر والثامن عشر.
- رسالة حول الحياة الأدبية في العهد الإيطالي، وإن كان العنوان لا ينطبق على ما ساقه حول هذه الرسالة، أو الأسطر التي نشرها لا تتلاءم مع العنوان الذي اتخذه... وسيكشف القارىء هذه الملاحظة.
- منشوران أدبيان من تاريخنا الثقافي.
- من أجل نظرة أوسع للتراث.
- نماذج من مخطوطات الجبل الغربي - جبل نفوسة.

ومن الفصلات ذات الأهمية إشارته إلى مراكز التعليم ومنابع الدراسة وخاصة زاوية أبي ماضي، وقد استفاد من مراجع مكتوبة موثقة ومراجع مشافهة، ويشير إلى زاوية طبقة وغيرها، ويشير إلى العالم (ابن منيع) ودوره في مجال التدريس والتعليم... وأحمد بشير الرياني والعالم عبد الرحمن عيون الغزال - هذا العالم الجدير بالاهتمام.

وهناك فصلة لموضوع طريف لعله يقدم لأول مرة هنا بهذه الصورة ولم يطرقه الدارسون للثقافة والكتاب في ساحة التعريف بالكتب والمؤلفات هو «المختارات الأدبية في ليبيا» أو ما أطلق عليه - كشكول أو مجموع ومختارات أو منتخبات وقد كانت إشارته لمختارات الشيخ عبد الله بن منيع وأيضاً مختارات أو كشكول... أبي القاسم القلعاوي وإن كانت كلمة أو عبارة كناش أقرب في الإطلاق والتسمية.

والأستاذ عبد الحميد الهرامة من أصحاب التنوّع في الدراسات التاريخية والبحث العلمي ولعل إعطاء فكرة موجزة عن الشوط الذي قطعه في هذا المجال يؤكد ما أشرنا إليه - تخرج في كلية التربية تخصص آداب وتربية سنة 1976 - نال الماجستير عام 1982 - وهيأ أطروحة للدكتوراه في موضوع أندلسي - وقدم

رسالة عن: الأعمى التطيلي حياته وأدبه. وللأستاذ رسالة عن (البحث والكتابة) ثم يعود إلى الأدب والأدباء ويكتب عن (آثار الفازازي)... تحقيق ودراسة.

وبعد ـ ها هو الأستاذ عبد الحميد عبدالله الهرامة يقدم لنا متعة علمية في هذه الصفحات تعتبر صحافاً دسمة في سماحة وبذل. وتتفتح عند صحافة شهيتنا العلمية ويزيدنا ارتباطاً بالتراث والوطن والاعتزاز بالأجداد وإعطاء فكرة للأحفاد.

إنها صحاف يقدمها ممزوجة بنشوة علمية فلندعكم معاشر القراء على صحافه وصحفاته... للاستماع إليه والتمتع بما لديه من زاد علمي.

علي مصطفى المصراتي
1992/9/10
طرابلس

الحياة العلمية في الجبل الغربي
في النصف الأخير من القرن
التاسع عشر
وأوائل القرن العشرين

الحياة العلمية بالجبل الغربي[1]

في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

تقديم:

تشمل الحقبة الزمنية التي يتناولها هذا البحث جانباً من العهد العثماني الثاني بضعفه وتخلفه وعهد الاحتلال الإيطالي بقسوته وعسفه. ولا شك في أن لهذه الظروف الصعبة انعكاساتها السلبية على الحياة العلمية، باعتبارها جزءاً من الحياة العامة التي تأثرت بالمحن الاقتصادية والحروب المتتالية؛ الأمر الذي صرف الناس إلى حد ما عن مجالس العلم إلى معالجة الفاقة ومقاومة الدخلاء.

وهذا ـ في نظري ـ ما يفسر تحول الزوايا في الفترة الأخيرة من الحقبة التي نحن بصددها إلى ممارسة دور المسجد القروي في الاقتصار على تحفيظ القرآن الكريم بعد أن كانت مراكز متقدمة لدراسة علوم الدين واللغة؛ بل إن الباحث قد عثر في تراثها على كتب في المنطق وأصول الفقه لم تكن هذه الزوايا مظنة وجودها لبعدها عن المدن الكبرى والبيئات العلمية المشهورة.

وبالرغم من تلك الظروف الصعبة التي مرت بها الحياة العامة آنذاك في بلادنا فإننا لا نعدم من اهتم بالعلم وصرف جهده لتحمل مسؤوليته الوطنية

---

(1) المراد بالجبل الغربي هو جبل نفوسة الكائن بالجنوب الغربي لمدينة طرابلس، وقد نشر البحث في مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة العدد (1) يناير 1984 ص 103 وما بعدها.

والدينية في سبيل ألاّ يخلو ميدان المعرفة من فرسانه الذين لا يقل دورهم عن المقاتلين في إنارة العقول والتحريض على الجهاد المقدس.

والجدير بالملاحظة أن تاريخ التعليم في هذه الفترة قد تعرض لشيء من التشوية حيناً والتجاهل أحياناً كثيرة، ليس في منطقة الجبل الغربي وحسب، ولكنه كذلك في كل بلادنا العربية الليبية.

فهذا فرانشيسكو كورو يذكر أن «الكتاتيب هي المعاهد الوحيدة بالقرى والدواخل»[1] ويرى غيره أن التعليم الديني قد بدأ في ليبيا بتأسيس الزاوية البيضاء سنة 1257 هـ (1843 م) على حين أن الزوايا ذات القيمة العلمية قد أسست عبر العصور وقبل هذا التاريخ بزمن بعيد.

فزاوية أولاد سنان أنشئت في القرن الثاني عشر الميلادي، وزاوية أولاد سهيل في القرن الذي يليه، وكذلك زاوية أبي ماضي على أحد القولين في تاريخ إنشائها[2]. أما زاوية الشيخ عبد السلام الأسمر فقد أنشئت في القرن السادس عشر الميلادي، وأسست زاوية العالم في بداية القرن التاسع عشر. وكل هذه الزوايا سابقة تاريخياً لزمن تأسيس الزاوية البيضاء كما لا يخفى[3].

وقبل الشروع في الحديث عن المراكز التعليمية والترجمة لأعلامها نشير إلى المصادر التي استقت منها هذه الدراسة معلوماتها الخاصة بهذا الجزء فنقول: إنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام: يشتمل أولها على الروايات الشفهية ممن عاصر وشارك في الحياة العلمية إبان الفترة المراد درسها، أو من كانت له علاقة وطيدة بعلمائها ومراكزها التعليمية.

(1) فرانشيسكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، تعريب خليفة التليسي. طرابلس؛ دار الفرجاني 1971 ـ ص 118.

(2) مستجد القولين أثناء الحديث عن زاوية أبي ماضي في هذا البحث.

(3) من مراجع تاريخ تأسيس هذه الزوايا، الطاهر الزاوي، «معجم البلدان الليبية» تحت اسم زاوية.

ومن أولئك الرجال المرحوم أحمد النفار وكيل زاوية العالم (المتوفى 1982 م) والحاج علي أمحمد الهرامة (1898 ـ 1989) الذي عاصر كثيراً من العلماء ممن نُعنى بدراستهم في هذا البحث، وكانت له بهم علاقة تلمذة أو صداقة. كما تلقى شيئاً من تعليمه في زاوية العالم.

وممن أفاد البحث من روايتهم الشيخ الدكتور أحمد محمد الخليفي (1921 ـ 1991) الذي تحدث باستفاضة عن المراكز التعليمية وعرّف بأعلامها وكانت روايته مصدراً أساساً من مصادر هذه الدراسة[1].

كما كان للحاج محمد الكامل العكروت، والقاضي عبد السلام العكروت والمحامي علي القلعاوي فضلهم في التعريف بالشيخين محمد العكروت وأبي القاسم القلعاوي.

واستعان الباحث بروايات أخرى وذلك بقصد المقابلة بين الأخبار وتمحيصها، ويتمثل المصدر الثاني في المخطوطات التي تناولت هذه الفترة أو كُتبت خلالها، ومنها:

1) مجموع به مختارات أدبية للشيخ أبي القاسم القلعاوي.

2) عدد من القصائد الشعرية للشيخ النعاس أبي حميرة والشيخ عبد الرحمن بن منيع والمفتي أحمد بن بشر الرياني.

3) رسالة ماجستير مكتوبة على الآلة الكاتبة للأستاذ أحمد القماطي (1977 م) بعنوان: (تطور الإدارة التعليمية في الجمهورية العربية الليبية...).

4) جانب من قضايا المحاكم في الفترة المذكورة (من محتويات شعبة المخطوطات بمركز جهاد الليبيين بطرابلس).

5) بعض المخطوطات المتنوعة في مكتبتي بني منيع والحاج علي الهرامة.

---

(1) ومما أفاد البحث من روايته ما أملاه متصلاً بزاويتي العالم وأبي ماضي وعلمائها.

أما القسم الثالث من المصادر فيشتمل على المطبوعات العربية والغربية التي تأتي الإشارة إليها في مواضع الاستدلال بها أثناء البحث.

المراكز التعليمية

تضم المراكز التعليمية المقصودة هنا كلاً من المساجد والزوايا التي تنتمي إلى أزمنة مختلفة من تاريخنا الإسلامي، والمدارس النظامية التي كانت محدودة من حيث الكم والكيف، ولم يكن لها وجود معروف قبل العهد الإيطالي.

أما المسجد فقد ظلّ المكان المعد للتعليم في جلّ مراحل التاريخ الإسلامي، وهكذا كان دوره في منطقة الجبل الغربي في الفترة المشار إليها، حيث كان لكل مسجد مدرس للقرآن الكريم، يبدأ بتعليم الحروف الهجائية للناشئة ثم ينتقل بهم إلى قصار السور فطوالها. وثقافة هؤلاء المقرئين قليلة في الغالب، غير أن بعض المساجد القروية قد يحظى بمقرىء مثقف يتولى تعليم الأطفال وتثقيف الكبار وهو ما نجده في بعض مساجد الجبل.

ومن المقرئين من تولى الإمامة والتوثيق، وهو كتابة العقود العرفية بين المتعاملين، فتركوا بذلك ثروة مخطوطة يمكن أن تقوم حولها دراسات متعددة الجوانب تتناول الأمور الاقتصادية والأساليب البيانية[1] وطبيعة التعامل، وغير ذلك من النواحي التي يمكن أن نستشفها من خلال دراسة هذه الوثائق.

وأهم مراكز الإشعاع الثقافي والديني في منطقة الجبل الغربي هي الزوايا، حيث تخرج عدد كبير من العلماء الذين اقتصرت دراستهم على تلك الزوايا فلم يقلل اقتصارهم على دروسها من قدرهم أو مقدرتهم.

(1) تتميز أساليب بعض تلك الوثائق بالدقة القانونية والروعة البيانية التي أثارت إعجاب الباحث، ثم عملت تلك الصيغ ربما كانت متوارثة حفظها اللاحق عن السابق، ولكن المزيد من الدراسات ستلقي أضواء كاشفة عن طبيعة تلك الوثائق وقيمتها التاريخية والأدبية والقانونية.

وقد كان طلاب هذه الزوايا يدرسون القرآن الكريم، وتفسيره، والفقه، والحديث، والسيرة، واللغة، والتوحيد، والفرائض. كما وجدت بعض الآثار المخطوطة لمعارف أخرى كالتصوف والأدب والتنجيم والتاريخ، غير أننا لا نجزم بأنها كانت ضمن الدروس المقصودة في هذه الزوايا، وإن كانت ضمن المعارف التي تنتشر بين خاصة علمائها.

وعلى زوايا الجبل كانت تحبس الأحباس ذات العوائد الكبيرة نسبياً، كما أنها كانت تضم حجرات لإقامة الطلاب المهاجرين إليها من أماكن بعيدة، وكانت تتمتع بالإعفاء الكامل من الأداءات والضرائب العثمانية[1].

وقد اشتهرت في منطقة الجبل الغربي تسع زوايا هي: زاوية أبي ماضي، وزاوية العالم، وزاوية طبقة، وزاوية أبي زيان، وزاوية الباروني، وزاوية الفقهاء، وزاوية العميان، وزاوية نسمة، وزاوية السني.

وسنقتصر في بحثنا هذا على ذكر زاويتي أبي ماضي والعالم وأعلامها ونأمل أن نتمكن في المستقبل القريب من تكملة الحديث عن بقية المراكز التعليمية وأعلامها وتراثها العلمي.

فزاويتا أبي ماضي والعالم هما كبريا زوايا الجبل ومدارسه الدينية وأعمها فائدة. تقع الأولى بأرض أولاد المولى، إحدى قبائل ككلة، قرب جبل يدعى «أبو ماضي» وتنسب إليه لقربها منه. أسسها على الأرجح عبد النبي الجبالي الأصفر - دفين زاوية أبي ماضي - وهو ابن خليفة بن أحمد بن عبد الحليم بن عبد المولى الصنهاجي[2].

---

(1) انظر كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، ص 45. وهناك وثائق مخطوطة تعفي مشائخ زاويتي العالم وأبي زيان من الضرائب، انظر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 163.

(2) راجع النسب في أغسطيني - المصدر السابق - ج 1 ص 482 نقلاً عن البرموني. أما أصحاب الرواية الثالثة في تأسيس زاوية أبي ماضي منهم الأزهري في كُناشه (انظر علي=

وقد أورد عبد السلام بن عثمان الفيتوري في إشاراته أن عبد النبي الأصفر معاصر للشيخ الزروق، وأن له مكاتبات معه، وله محاورات عجيبة مع الشيخ محمد بن عبد الرحمن البشتي[1]. ولما كان الشيخ أحمد زروق قد توفي سنة 1493 م فيمكننا اعتبار السيد عبد النبي الأصفر من رجال القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، ويؤكد ذلك ما ورد في كتاب (سكان ليبيا) من أن عبد النبي الأصفر جد أولاد أبي سيف من رجال القرن الخامس عشر الميلادي[2].

ويتحدث بعض الذين عاصروا نشاط هذه الزاوية فيقول: إنها كانت «تدعى بالأزهر الصغير لكثرة روادها والمهاجرين إليها من طلبة القرآن الكريم والعلم من شتى قرى الجبل ونواحيه؛ بل كانت تستوعب الطلاب من جميع أنحاء البلاد، وكان فيها أساتذة مشهورون لهم مكانتهم العلمية، من أمثال الشيخ أبي يوسف، والشيخ الطاهر النعاس وغيره مما طال عليهم الأمد وأغفل الناس أسماءهم»[3].

ومن العلماء الذين تولوا أمر التعليم في هذه الزاوية الشيخ عيون الغزال الذي يقال إنه أولُ من جاء بعلم التفسير إلى زاوية أبي ماضي، وكان قد تلقاه على أساتذته من آل النعاس بتاجوراء[4]. ويقال: إن ممن درس على هذا العالم

= مصطفى المصراتي: مؤرخون من ليبيا: طرابلس الشركة العامة للنشر والتوزيع، 1977، ص 185) لكن الزاوي أوردها في معجم البلدان الليبية ص 160 بالتضعيف.

(1) انظر عبد السلام بن عثمان الفيتوري، الإشارات لبعض ما بطرابلس من المزارات. طرابلس: مكتبة النجاح، د. ت، ص 118.

(2) أغسطيني ـ المصدر السابق ـ ج 1، ص 261، وفيه أن عبد النبي الأصفر تتلمذ على سيدي جعفر الكندي أحد كبار علماء طرابلس في القرن الخامس عشر الميلادي.

(3) هذا النص من النبذة التي تقدمت الإشارة إليها وإلى ممليها الشيخ أحمد الخليفي، انظر أعلاه ص (25).

(4) المصدر نفسه، وتجدر الإشارة إلى أنه يرد في بعض الروايات ومنها رواية الشيخ الخليفي اسم علي عيون الغزال في حين تتحدث روايات أخرى عن عبد الرحمن عيون=

الجليل الشيخ محمد الضاوي الطرابلسي المتوفى سنة 1330 هـ[1].

ومن مشاهير أساتذة الزاوية الشيخ امحمد بن منيع وابنه عبد الرحمن وسنتحدث عنهما بعد استكمال الحديث عن زاويتي أبي ماضي والعالم؛ لأن الرجلين قد علّما أو تعلما في الزاويتين. ومن أولئك العلماء الذين تولوا التدريس بزاوية أبي ماضي الشيخ الطاهر النعاس الذي تقدمت الإشارة إليه، فقد انتدب للتدريس بها بعد عودته من الأزهر فتولى التعليم فيها ما بين سنتي 1930 م ـ 1932[2].

أما زاوية العالم فتقع في ظاهر بين الريانية والخلائفة قرب وادٍ يُدعى وادي «الباقول». وقد تنسب إلى هذا الوادي فيقال زاوية الباقول[3]. أشار بتأسيسها الصالح محمد العالم البوسيفي من مخضرمي رجال القرنين الثاني والثالث عشر الهجري (الثامن والتاسع عشر الميلادي) فقد توفي بعد تأسيس الزاوية الذي كان في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وهو من أولاد عبد النبي أبي سيف[4].

= الغزال. والمؤكد أن عبد الرحمن هو أستاذ العلماء الذين عاشوا في النصف الأول من القرن العشرين. وعلى ذلك يكون علي عيون الغزال أستاذ الشيخ امحمد منيع أول من جاء بعلم التفسير إلى زاوية أبي ماضي كما يؤكد الشيخ الخليفي.

(1) هو أحد علماء طرابلس المعروفين، ترجم له الشيخ الزاوي في (أعلام ليبيا) الطبعة الثانية، طرابلس 1970 (ص 396). وذكر من مؤلفاته تخميسة للبردة ولامية ابن الوردي، والهمزية. وله قصائد كثيرة في الوعظ والإرشاد لأنه كان مولعاً بهذا الباب. وقد حدثني الأخ محمد جبران المحاضر بكلية التربية بجامعة الفاتح أن من بين مؤلفات الشيخ الضاوي «شفاء الصادي المجرب لمن أراد التقرب» وأن له شعراً مخطوطاً. انظر أيضاً دليل المؤلفين العرب الليبيين، طرابلس: أمانة الإعلام والثقافة، 1977 م، ص 365.

(2) الزاوي (أعلام ليبيا) ص 182 ـ 184.

(3) الزاوي، معجم البلدان الليبية في مادة زاوية.

(4) حدثني الشيخ الخليفي أن محمداً هذا قد (تلقى تعليمه في تيجان بمطماطة بالقطر التونسي، وكان كبير السن آنئذ، يهوى قراءة الفقه ويضيق بالنحو). وقد توفي هذا المصلح سنة 1813 م، وخلفه على وكالة الزاوية ابنه علي العالم الذي=

شارك في تأسيس هذه الزاوية الأهالي في بلدتي الريانية والخلائفة بحملات تطوعية. وقد سمعت من غير واحد أن للزاوية أوقافاً كثيرة ووكلاء كانوا يعملون على تنمية حاصلاتها ويربون لها الماشية، وما تزال مكتبتا بني منيع وزاوية العالم، ومكتبة الشيخ النفار تحتفظ بوثائق أوقاف هذه الزاوية من أراض وأشجار، وكان أمر الإشراف عليها لأولاد عبد النبي الثالث بن عبد النبي أبي سيف الذي يرجع إليه نسب مؤسس الزاوية[1]، وأكثر أوقافها تعود إلى ملكية أهالي «ورجين» كما تنص على ذلك معظم وثائق الأوقاف الخاصة بممتلكات الزاوية.

وقد علّم بها أو تعلم في المدة المؤرخة رجال مشهورون، تولوا شؤون القضاء أو الفتيا أو التدريس، وخلف بعضهم آثاراً علمية أو أدبية ما زالت مخطوطة حتى كتابة هذه المقالة ولا يمكننا حتى الآن أن نؤكد أهميتها أو أن ننتقص من شأنها حتى تتداولها الأيادي بالدراسة والنقد.

ومن أشهر أولئك العلماء الذين اتصلوا بالزاوية الشيخ امحمد منيع وابناه عبد الرحمن ومحمد، والشيخ أحمد الخازمي الأورفلي، والشيخ محمد الأزهري شيخ زاوية طبقة، والشيخ أبو القاسم القلعاوي صاحب الفتاوى الممتازة، والقاضي محمد العكروت الوطني المعروف بين أبناء بلدته، والشيخ البصير الرياني المشهور بتضلعه في مذهب الإمام مالك وبكثرة حفظه لنصوصه، والشيخ محمد الإمام الزنتاني الذي عرف بسعة اطلاعه على المذاهب المختلفة والفتيا بالأقوال المرجوحة عند الضرورة كما اشتهر بمواقفه المشرفة في حركة الجهاد ضد الطليان.

= ذكره الأزهري في كناشه باعتباره صاحب الزاوية المذكورة، وقال أنه توفي سنة 1258هـ (1842 م) انظر المصراتي مؤرخون من ليبيا ص 183 على أن هناك وثيقة مخطوطة في مركز الجهاد بخط عبد الرحيم محمد الضبع تشير إلى أن وفاة علي العالم كانت سنة 1252 هـ (1836 م). والروايات المتواترة تؤكد أن المؤسس هو محمد العالم وليس ابنه

(1) الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 159.

وقد تحولت الزاوية في آخر عهدها إلى مكان لتعليم القرآن الكريم وحسب، ثم تقلصت جهودها فاندثر ذلك الورد الصافي الذي استقى من ينبوعه أغلبية علماء الجبل الغربي[1].

وسوف أبدأ فيما يلي عرض تراجم موجزة لأشهر أعلام الزاويتين ممن توفرت لي معلومات عن حياتهم ودراستهم وهم الشيخ امحمد محمد منيع والشيخ محمد بن امحمد منيع والشيخ عبد الرحمن بن امحمد منيع والشيخ أبو القاسم القلعاوي والمفتي أحمد بن بشر الرياني والفقيه المجاهد محمد الإمام الزنتاني والشيخ محمد البصير الرياني والقاضي محمد منصور العكروت.

الشيخ امحمد أحمد منيع (أستاذ الجماعة):

هو امحمد بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد القادر بن امحمد بن عبد القادر بن عبد الواحد بن إبراهيم بن منيع الرياني موطناً المالكي مذهباً.

ولد في أواخر شوال سنة 1203 هـ (1788 م) بالريانية ونشأ بها وتتلمذ على يد الشيخ عيون الغزال. ويبدو من الآثار المخطوطة التي تركها منسوخة بيده ومن محاولاته الشعرية أنه كان على صلة بمعارف كثيرة دينية وأدبية ولغوية وصوفية.

وقد كان له الفضل في تخريج عدد كبير من الفقهاء الأجلاء الذين كان لبعضهم دور مشهود في المجتمع، ومنهم الشيخ أحمد بن بشر مفتي لواء الجبل، والشيخ النعاس أبو حميرة، وخليل بن حسن بن يوسف بن سليمان الكرغلي، ومصطفى بن الحاج محمود المقرب المصراتي، ومحمد بن أحمد

(1) نأمل أن تتدارك مصلحة الآثار مثل هذه الزوايا وأن يتولى الإعلام تصوير معالمها الباقية في شريط وثائقي، فهي أثر لمنارات تاريخية مضيئة كان لها دورها في وقت كانت البلاد في أمس الحاجة إليه.

الزنتاني[1]. وقد ترك الشيخ امحمد منيع مكتبة زاخرة بالمخطوطات، عُني الشيخ نفسه بنسخ عدد كبير من محتوياتها[2].

توفي هذا العالم الجليل سنة (1280 هـ ـ 1864 م) وقد ترك ذكراً طيباً وتلاميذ نجباء ومكتبة خطية قيمة كانت الثروة الحقيقية التي تركها لأبنائه.

ويكفي أن نعلم أنها تضم جُلَّ ما كتب في الفقه المالكي من شروح وحواش ومجاميع ومسائل ومختصرات، من أمثال شرح الخرشي على خليل، وحاشية الدردير والتاودي، وشرح الدردير على العاصمية ومجموع فيه شرح ميارة على ابن عاشر، ومختصر البرزي لحلولو، ونبذة من الديباج، وشرح النفراوي على الرسالة، وكتاب ابن سلمون، وكفاية الطالب على الرسالة، وشرح الشنشوري على الرحبية وغير ذلك مما لا يزال قيد الفهرسة.

والمكتبة لا تقتصر على الفقه المالكي ـ كما قد يتبادر إلى الذهن ولكنها تضم كتباً في الحديث، والفرائض، والتفسير، والأدب، والمواعظ، والمنطق، والتصوف، واللغة، والسيرة وغيرها من العلوم والآداب.

ولقد كانت وفاة هذا العلم البارز حدثاً مؤلماً أثر في نفوس تلاميذه وعارفيه، فأبَّنَهُ بعضهم بمراث حارة تنبىءُ عن مكانة عظيمة كان يتمتع بها هذا الشيخ في نفوس طلابه ولا بد أن نشير قبل عرض أنموذج من تلك المراثي إلى ما في بعض أبياتها من قصور في تأدية المعنى أو مآخذ فنية ولغوية. ولكنها تكتسب أهميتها من تأريخ إنشائها وقيمتها التوثيقية، كما أنها ملأى بالعاطفة

---

(1) حول تلمذة محمد بن أحمد الزنتاني للشيخ امحمد منيع راجع المصراتي: في المصدر السابق ص 183 ووجدت ذلك أيضاً في نبذة كتبها الأخ عبد الرحمن الأزهري المحاضر بكلية التربية بجامعة الفاتح حول شخصية الأزهري وتعليمه. أما بقية الأسماء المشار إليها فقد أطلعني عليها الأخ إبراهيم الشريف سليل أسرة بني منيع.

(2) تقدر مكتبة الشيخ امحمد منيع بحوالي ثمانمائة مخطوطة، لم يبق منها سوى حوالي مائتي مخطوطة هي الآن في بيت ابن حفيده الأكبر عبد الرحمن بن محمد منيع، ويعمل الأخ إبراهيم الشريف على فهرستها والتعريف بها.

الصادقة، ولا تعدم أن تجد خلالها ومضات شعرية رائعة هنا أو هناك.

فمن تلك المراثي قصيدة للشيخ أحمد بن بشر مفتي لواء الجبل يقول فيها[1]:

أمست ظلاماً وأمسى الحزن ساكنها ... وأوصدت بجيوش الهَمِّ والكرب

وغـرد البـوم فـي أفنـائهـا أسفـاً ... عن ذات من حاز جيد العلم والأدب

وكيف لا وفروع الحلم قد طويت ... طيَّ البساط وأُلقت في هوى الترب

مـــا ذاك إلاّ لأن الله أنجـــزه ... وكلنـــا منجـــز بعـــداً ومقتـــرب

وهي مرثية طويلة نسخت في السنة التالية لوفاة الشيخ وعن هذه النسخة الأصلية نقلت الأبيات السابقة.

وهناك مرثية أخرى رثى بها النعاس أبو حميرة شيخه امحمد منيع ناعتاً له بأستاذ الجماعة، ومطلعها[2]:

خليليَّ لي قلب تصدع وانكوى ... وعاد هواءً بالياً بعدما استوى

ومنها:

ألا إن أستاذ الجماعة قد سرى ... وسار إلى دار البقاء وما ارعوى

هـو ابـن منيـع كنـز كـل ذخيـرة ... فيـا ليتـه يُفـدى فـأفـديـه بـالسـوى

لقـد فـارق الـدنيـا طبيـبُ زمـاننـا ... فللـه كـم داوى نفـوسـاً بمـا روى

وكم من فتى كالجذع جاء لدرسه ... فعـاد طـريـاً بعـد ذلـك والتـوى

وكم من مريد من تقارير درسه ... جنـى ثمـراً أزهـى وليـس بـه نـوى

---

(1) هذه القصيدة من محتويات مكتبة بني منيع.

(2) القصيدة من محتويات المكتبة المذكورة، وقد تفضل الأخ إبراهيم الشريف فأمدني بصورة منها.

الشيخ محمد بن محمد بن منيع:

هو ابن العلم الذي ترجمنا له فيما سبق، ولد بالريانية سنة 1233 هـ (1817 م) وتلقى تعليمه الأوَلي على يدي والده وحفظ القرآن الكريم، ثم تنقل بين حلقات الأساتذة في زاويتي العالم وأبي ماضي.

رحل إلى الأزهر في العاشر من ذي القعدة سنة 1264 هـ (1848 م)، وعاد إلى أرض الوطن في شوال سنة 1289 هـ (1872 م) بعد أن أجازه كبار علماء الأزهر من أمثال الشيخ محمد عليش، والشيخ حسن العدوي، والشيخ إبراهيم السقا، الذين أثنوا على تحصيله في إجازات خطية لا زالت في مكتبة أسرة بني منيع حتى الآن.

تولى الشيخ محمد منيع التدريس فور وصوله إلى بلده، فدَرَّس في زاوية العالم، ثم ذاع صيته فانتدب لمنصب القضاء في ناحيتي الخلائفة والريانية ثم نالوت.

وكانت رسائل الشكر والامتنان تلاحقه حيثما حل، حتى علم والي ولاية طرابلس الغرب السيد مصطفى عاصم بأفضاله فحرر وثيقة تلزم الجميع احترامه وتوقيره وتنذر من يمسه وأسرته بسوء أو مكروه، وتعفيه من كل المطالب الميرية والأعشار، وقد صدرت هذه الوثيقة في ربيع أول سنة 1292 هـ (1875 م).

وبعد تولي تلك المناصب أبى الشيخ محمد منيع إلاّ أن يعود إلى التعليم حيث يواصل دور أسرته في نشر العلم، فدرس بزاوية العالم حتى وافاه الأجل المحتوم سنة 1305 هـ (1887 م)[1].

---

(1) قدم الأخ إبراهيم الشريف الذي ينحدر من أسرة بني منيع ترجمة كاملة للشيخ محمد منيع لتنشر في الموسوعة الإفريقية، وقد أفدت من تلك الترجمة كثيراً.

الشيخ عبد الرحمن بن امحمد منيع:

هو خليفة الشيخ امحمد منيع في حلقة التدريس، ولد بالريانية سنة 1250 هـ (1834 م) ونشأ في بيئة علمية، حيث تلقى علومه على يد والده بعد أن حفظ القرآن الكريم بزاوية أبي ماضي.

وتحكي الروايات الشفهية أنه تولى التدريس بها بعد وفاة والده. إذ جلس في مجلسه ليلقي دروسه على طلاب كان هو بالأمس زميلاً لهم، ولذا فقد وجد كبار الطلاب في أنفسهم حرجاً من الدخول في حلقته والأخذ عنه حتى بدا من تقريراته ودروسه ما يثير الإعجاب ويستحق الاهتمام، الأمر الذي جذب إليه من تفرق عنه من زملائه الكبار[1]. وواصل التدريس بزاوية أبي ماضي حتى صار فيما بعد وكيلاً للزاوية ثم تحول إلى زاوية العالم وواصل التعليم بها إلى أن توفي سنة 1332 هـ (1913 م)، وبذلك يكون قد قضى عمراً بكامله تقريباً في طلب العلم وتعليمه.

ويُعرف الشيخ عبد الرحمن بعلاقاته مع المتصوفين، وبين أيدينا رسائل متبادلة بينه وبين الشيخ الصوفي عبدالله بن فضل تبرز هذا الجانب من شخصيته، ورسالة من الشيخ أحمد البدوي في نفس الغرض[2].

والجدير بالملاحظة أن الحكومة العثمانية عرضت على مترجمنا منصب الإفتاء في قضاء الجبل فرفض هذا العرض مفضلاً مهنة التعليم بقليلها على أية وظيفة أخرى.

وقد تلقى العِلْم على يد الشيخ عبد الرحمن طلاب كثيرون، وذلك لأنه

---

(1) حدثني بذلك حفيده الشيخ علي محمد منيع، ناقلاً ذلك مباشرة عن أحد تلاميذ الشيخ المذكور.

(2) تحتوي مكتبة الشيخ عبد الرحمن على رسائل واردة إليه من علماء وصوفيين مثل الشيخين المذكورين والشيخ محمد السني والشيخ يوسف أبو عز.

مارس التعليم ما يربو على نصف قرن من الزمان، ولا يمكن سرد كل الأسماء التي حظيت بدروسه طيلة هذه المدة. ونكتفي هنا بذكر جماعة منهم الشيخ أبو القاسم القلعاوي، والشيخ سالم بن المبروك بن سالم المنعي، والشيخ امحمد امحمد بن عامر العيني، والقاضي محمد العكروت وسواهم وهم كُثُرْ.

توجه الشيخ إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج وعاد إلى أرض الوطن في 23 من ربيع الثاني سنة 1131 هـ (1893 م) فأرسل إليه الشيخ محمد السني المسؤول على زاوية السني بمزدة يستفسر عمن قابله من العلماء وما أفاد من رحلته. ولا ندري ما إذا كانت أسرة السني تحتفظ برد الشيخ عبد الرحمن منيع عن هذه الأسئلة الذي أن تكون فيه ما يزيد في تسليط الضوء على سيرة المترجم له ـ رحمه الله ـ.

وأورد الشيخ طاهر الزاوي في «أعلام ليبيا» ترجمة لهذا الشيخ الجليل شاكاً في اسمه بين عبد الرحمن ومحمد، وقد تبين مما مضى أنهما أخوان، وذكر الشيخ الزاوي في المصدر نفسه أن وفاته كانت سنة 1324 هـ، والحق أنها كانت سنة 1332 هـ كما أسلفنا[1] ويدفعنا إلى الإحجام عن ذكر التراث العلمي للشيخ عبد الرحمن بن منيع عدم إلمامنا بكمية هذا التراث وطبيعته وهو ما سيتضح ـ إن شاء الله ـ من خلال فهرسة مكتبة بني منيع.

على أنه لا يفوتنا أن نشير إلى أن مترجمنا كان من شعراء عصره الذين اهتموا خاصة بمدح الرسول ﷺ، ففي مكتبته بعض آثاره الشعرية التي تنحو هذا المنحى، كما أن المكتبة الوطنية بتونس تضم مجموعاً به خمس عشرة رسالة،

(1) لا ينقص هذا التصويب البسيط من الجهود التي أسداها الزاوي لدراسة أعلام بلاده ومعالمها، وأذكر أني وقفت على رسالة بخطه أرسلها من القاهرة إلى أحد الثقات من أصدقائه يستفسر فيها عن تأسيس زاوية العالم، مما يؤكد رغبته في عدم الاكتفاء بما عنده وحرصه على الدقة فيما يورده من مادة تاريخية. وقد كان كتاباه «أعلام من ليبيا» و «معجم البلدان الليبية» من المراجع المهمة لصاحب هذه المقالة.

أوله منظومة لصاحب هذه الترجمة[1].

الشيخ أبو القاسم القلعاوي:

هو فضيلة الشيخ أبو القاسم بن علي القلعاوي، من بلدة القلعة إحدى قرى يفرن وأحوازها، سليل أسرة علم وفضل زادت به فضلاً وعلماً وشرفاً. ولد في القلعة سنة 1300 هـ (1880 م) وحفظ القرآن الكريم وتلقى علومه بزاويتي أبي ماضي والعالم حتى صار بين أقرانه حجة في المذهب المالكي.

وكان إلى جانب علمه متميزاً بالورع والتقى الشديدين، حتى إنني ما وجدت رجلاً من معاصريه أجمعت المصادر الشفهية على إبراز صفة فيه مثلما اجتمعت على إبراز صفة الورع في الشيخ القلعاوي. وتجمع الروايات أيضاً على أنه يفتي على معتمد المذهب، ولا يميل إلى الأقوال المرجوحة، ولذا فقد كان قوله الفصل في كل نزاع يطلب الشيخ للبت فيه.

يقول الشيخ أحمد الخليفي، الذي عاصره فترة من الزمن وسمع منه: (إن الشيخ أبا القاسم قد تولى الإفتاء بناء على رغبة أهل البلد دون أن يكون بالطرق الرسمية، أو أن يتقاضى عليه مرتباً، وذلك في وقت الجهاد، إذ كان يصدر فتاواه للشيخ سعيد المسعودي الذي كان قاضياً بيفرن إذاك) ويضيف الشيخ الخليفي قائلاً: (وله أحكام مبنية على الصلح بين المواطنين تفوق أحكام القضاة الذين نصبوا للحكم من قبل الهيئات الرسمية)[2].

ومما تجمع الروايات الشفهية على إيراده في حق الشيخ القلعاوي أنه رفض تولي القضاء في العهد الإيطالي برغم الترغيب والوسائط التي أرسلها المستعمرون وأعوانهم إليه. عامدين إلى ضم الشيخ إلى المتعاونين معهم ليكون

---

(1) فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية بتونس ج 5 ص 32.
(2) هذا النص من نبذة للشيخ الخليفي عن زاويتي العالم وأبي ماضي وعلمائها.

هذه المختارات إلى بيان المصادر الأدبية السائدة بين علماء الجبل في هذه الفترة، وإلى طبيعة المادة الأدبية المفضلة، والتعليقات التي كتبها الشيخ على حاشية المخطوط أو ربط بها بين أجزائه. ويحتوي هذا المخطوط على تسع وتسعين صفحة، في كل صفحة ما يربو على عشرين سطراً تتميز بجمال الخط ووضوحه، وقد أهداه إلى صديقه الحاج علي الهرامة الذي تربطه به علاقة روحية متينة.

عاش هذا العالم عفيف اليد كريم الخلق عطوفاً على الفقراء حتى لقي ربه عام 1372 هـ (1952 م). رحمه الله رحمة واسعة وأجزل ثوابه.

أحمد بشير الرياني:

فقيه وأديب ظريف، من رجال القرن التاسع عشر الميلادي تلقى تعليمه على يد الشيخ امحمد منيع وله فيه مرثية سبقت الإشارة إليها.

تولى القضاء بلواء الجبل، وكان من أعضاء مجلس اللواء حيث لا تصدر الأحكام إلاّ بحضوره، وهو بالإضافة إلى ذلك زجّال شعبي ظريف يحفظ بعض الرواة شيئاً من أزجاله المتميزة بروح الظرف وطابع الدعابة[1].

ومن آثاره العلمية شرحه للعاصمية الذي لا يُعرف مالكه حتى الآن[2].

محمد الإمام الزنتاني:

فقيه جليل واسع الاطلاع على جميع المذاهب الفقهية الإسلامية المشهورة،

---

(1) ممن يحفظ بعض أزجاله الشيخ أحمد الخليفي وقد أسمعني شيئاً من ذلك ولكنني لم أر ضرورة لإيراده هنا.

(2) نأمل أن يتفضل من يمتلك الآثار العلمية المشار إليها في هذا البحث بإيداع صورة منها في «مركز جهاد الليبيين» الذي نأمل أن يكون مركزاً لجهاد وتراث الليبيين بفضل تعاونهم.

معروف بدعوته وتحريضه على الجهاد ضد الطليان واشتراكه الفعلي في أتونه وقد أوذي في سبيل ذلك. . .

كان يفتي بأقوال المذاهب الأخرى ولا يتمسك بمعتمد مذهب مالك، وقد نالته ضائقة فرهن أعزّ كتاب على نفسه وهو «المعيار» للخروج منها، غير أن الذي قصده ليرهن كتابه عنده مقابل سداد حاجته أبى إلاّ أن يرد عليه كتابه ويقضي حاجته، قائلاً له إنك تُفيد به الناس أما أنا فلا أصنع به شيئاً. وتروى هذه الحادثة على نحو آخر فقد قيل إن جماعة من تجار طرابلس علموا بنيته في بيع كتبه فأعطوه مقابل ثمنها ما يريد من البضائع، ثم أخفوا تحتها الكتب حتى لا يكتشف صنيعهم إلا عند وصوله إلى بلاده.

تولى التدريس بزاوية العالم حتى وافاه الأجل المحتوم في تاريخ لم أقف عليه بالتحديد. أكرمه أهل بلدته «الزنتان» فأطلقوا اسمه على إحدى مدارسهم الحديثة.

محمد البصير الرياني المقرحي:

من سكان أولاد أبي حسين بالريانية وممن تلقوا دروسهم في زاوية العالم على يد الشيخ عبد الرحمن منيع، كان له باع كبير في الفقه المالكي، فقد حدثني غير واحد أنه كان يحفظ نصوصاً كثيرة من فقه هذا المذهب، ويرشد من يطالع له ـ وهو الرجل الكفيف ـ إلى مواضع المسألة المطلوبة من الكتاب الذي يطالعه.

القاضي محمد منصور العكروت:

وُلد القاضي محمد العكروت بالخلائفة سنة 1273 هـ (1856 م)، وحفظ القرآن الكريم بزاوية الشيخ عبد السلام الأسمر بزليطن، ثم انتقل إلى الذي

زاوية أبي ماضي بككلة التي غادرها متوجهاً إلى زاوية العالم حيث قضى أطول أيام دراسته وتلقى العلم في هذه الزاوية الأخيرة على يد الشيخ (عبد الرحمن بن عيون الغزال البوسيفي) والشيخ عبد الرحمن بن منيع.

واشتهر بوطنيته ومساهماته في سبيل تخليص بلاده من ربقة المحتلين، فقد اشترك في لجنة مكونة من ثمانين رجلاً من أهل العلم والسن والرأي لتنسيق أمور الجهاد مع مجاهدي الجهات الشرقية، وعلى رأسهم المجاهد رمضان السويحلي، وطورد العكروت من قبل أعوان إيطاليا، وأُحرقت كتبه بعد أن قام هو بنفسه قبل وصولهم إلى بيته بإحراق المراسلات التي تمت بينه وبين سوف المحمودي. وهو الذي صلى على رفاة الرحيبي الرياني الذي قتل بأمر الإيطاليين.

وتجمع الروايات التي استمعت إليها على أنه أقام في أحد الكهوف أو الزوايا بعيداً عن بلده إثر الحادثة السابقة مدة طويلة فراراً من عقاب أعوان إيطاليا، ثم أُخلي سبيله بعد أن تدخل العياط البوسيفي وحذر من يتعقبه وأنبه، قائلاً إن التعاون مع الطليان لا ينبغي أن يصل إلى حد معاونتهم على العلماء، أو شيئاً هذا معناه. ومن فوائد تدخله أن الحكومة الإيطالية لم تتعقبه بعد ذلك - فيما نعلم.

تولى الشيخ العكروت القضاء مرتين، إحداهما قبل دخول إيطاليا والأخرى بعد ذلك، ثم أُصيب في بصره وتوفي سنة 1361 هـ (أوائل 1942 م). ويحتفظ مركز جهاد الليبيين ببعض أحكامه التي أبرمها حين ولي القضاء، ضمن قضايا المحاكم الشرعية.

وبعد... فتلك نبذة عن مركزين من مراكز التعليم في الجبل الغربي حملا خلال أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن قبساً من نور العلم ليشع بفضلهما على بيئة عطشى إلى معين المعرفة وسلسبيل العلم.

الحياة العلمية في الجبل الغربي

في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

(الجزء الثاني)[1]

تقديم:

تطرقت في الجزء الأول من هذا البحث إلى الحديث عن مصادره الشفهية والمخطوطة والمطبوعة[2]. ولا يختلف طابع المصادر هنا كثيراً عنه في الجزء الأول، مع ملاحظة اشتمال هذا الجزء على قدر أكبر من النبذ التاريخية والمذكرات الشخصية، مثل:

1 ـ نبذة من الأستاذ عبد الرحمن الأزهري، المحاضر بكلية التربية حول تاريخ التعليم في زاوية طبقة.

2 ـ نبذة من الباحث عمرو مسعود حول عدد من أعلام الجبل الغربي ومراكز التعليم فيه.

3 ـ نبذة من الأخ عبد الباقي الكميشي حول زاوية الطواهرية، وهو من سلالة مؤسس الزاوية.

4 ـ نبذة من الأستاذ محمد الباروني الموجه بأمانة التعليم والطالب بالدراسات العليا في كلية التربية، حول المدرسة البارونية.

---

(1) نشر الجزء الثاني بمجلة البحوث التاريخية العدد (1) يناير 1985، ص 111.

(2) مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة، العدد الأول، يناير 1984.

هذا بالإضافة إلى بعض المخطوطات والرسائل والمصادر المطبوعة والروايات الشفهية مما قد يرد في هوامش البحث. وتجدر الإشارة إلى أن الاعتماد على النبذ التاريخية والروايات الشفهية مفيد جداً في دراسة التاريخ المعاصر والقريب، على أن يؤخذ الحذر والحيطة من قبول كل ما يقال في مثل هذه المصادر دون مقابلتها مع مصادر أخرى، وعرضها بمنطق الناقد النزيه، واشتراط الأمانة في رواتها، وأخذ وجهات النظر المختلفة في الخبر الواحد حتى يتسنى التحقيق في أمرها والتأمل في مضامينها من زوايا متعددة. وهو أمر يستدعي دراسة واعية لتاريخ وجغرافية وثقافة الفترة، ويجعل الاعتماد على هذه المصادر شائكاً بقدر أهميته، وصعباً بقدر خدمته الكبيرة والمفيدة لموضوع البحث.

المراكز التعليمية

استكمالاً للحديث عن المراكز التعليمية في الجبل الغربي نتناول في هذا الجزء طائفة أخرى من زواياه المشهورة وهي زاوية طبقة، وزاوية الباروني، وزاوية الطواهرية، وزاوية السني وزاوية قرزة.

أولاً: زاوية طبقة:

سميت هذه الزاوية باسم المنطقة المقامة عليها، وهي بلدة صحراوية تقع على مشارف الحمادة الحمراء، جنوب «مزدة». أسسها الشيخ محمد الأزهري حوالي سنة 1272 هـ (1855م) بمكان مختار بعناية في منتصف الطريق بين طرابلس وفزان، وعلى جادة قوافل الحجيج القادمة من غرب إفريقية والآئبة إليه، واكتسبت أهمية أخرى تكمن في قربها من عدة أودية زراعية تشتهر بزراعة الحبوب.

ويتكون طلابها من ثلاث فئات مختلفة الأعمال، فمنهم أطفال يتجهون إلى الزاوية لحفظ القرآن الكريم، وكهول وشيوخ يحضرون مجالس الوعظ والفقه، وطلاب نظاميون أتاحت لهم ظروفهم أن يتفرغوا لطلب العلم بطريقة

منهجبة إلى حد بعيد تعتمد اختيار كتب معينة في كل مرحلة من مراحلها.

فمن طلابها النظاميون كان أحمد إدريس وأحمد البدوي ابنا الشيخ محمد الأزهري، ومحمد عثمان الحضيري، ومحمد البغدادي وعبد السلام الزنتاني الذي استقر به المطاف في مدينة طرابلس وعبد الرحمن بن عيون الغزال.

وكان الشيخ الأزهري أول مدرس بها ثم خلفه ابنه أحمد إدريس حتى بداية الغزو الإيطالي، حيث انصرف باهتمامه نحو الجهاد إلى أن توفي سنة 1330 هـ فحلّ محله أخوه أحمد البدوي إلى أن توفي سنة 1954 م. وسنعرض فيما يلي لتراجمهم باعتبارهم أبرز أعلام هذه الزاوية.

محمد الأزهري:

هو المربي الشيخ محمد بن أحمد بن محمد الجريو الزنتاني مؤسس الزاوية وعالمها الأشهر. والأزهري هو لقبه الذي أطلقه عليه أستاذه أحمد الخازمي الورفلي في إحدى روايتين[1] وتقول الرواية الأُخرى: إن الذي أطلقه عليه هو محمد بن علي الخطابي[2]. أما والده أحمد بن محمد الزنتاني فهو أحد أعيان بلدته إبان العهد العثماني الأول...

ولد محمد الأزهري في الزنتان عام 1219 هـ (1804 م) تقريباً وقضى معظم حياته في رحاب العلم، دارساً ومدرساً وناسخاً ومفتياً ومجالساً للعلماء ومراسلاً لهم. على أن الجدير بالذكر أنه توجه إلى الدراسة في سن متأخرة حيث تلقى تعليمه في زاوية العالم وهو في أُخريات العقد الثالث من عمره.

درس في زاوية العالم علي امحمد منيع والخازمي الورفلي طائفة من العلوم الدينية واللغوية وغيرها، وكان حريصاً على تعويض الفترة الزمنية التي قضاها

(1) من نبذة للأخ عبد الرحمن الأزهري، وهذا اللقب لا ينسحب على والد الشيخ محمد خلافاً لما جاء في مجلة الشهيد عدد (3) حاشية (1)، ص 226.

(2) انظر الزاوي أعلام ليبيا، ط (3)، ص 383، ودليل المؤلفين الليبيين ص 82.

بعيداً عن ميدان العلم، حتى ليُحكى أنه يظل مقيماً في الزاوية أيام العطلات لحفظ المتون المشهورة في اللغة والفقه ومنها ألفية ابن مالك في النحو[1].

توجه من زاوية العالم إلى ورفلة حيث تتلمذ على علمائها في ذلك الأوان، وعاد من هناك إلى مسقط رأسه مدرساً مبرزاً في علوم الشريعة. غير أنه لم يقم طويلاً في بلدته فتوجه إلى «مزدة» والتقى فيها بعبدالله السني ولازمه مدة تصل إلى اثنتي عشرة سنة درّس خلالها مختصر خليل وختمه ثلاث مرات، وقيل ختمه عشر مرات.

وفي سنة 1272 هـ (1855م) انتقل إلى «طبقة» حيث أسس زاويته المذكورة وتولى التدريس بها. وهناك أخذ في تأسيس مكتبة قيمة للمخطوطات ضمت كثيراً من الكتب التي نسخ بعضها بيده مثل: مختصر ابن أبي جمرة وشرح خليل وغيرهما. وقد كان لوقوع الزاوية في طريق قوافل الحجيج القادمة من المغرب وموريتانيا أثره في تنمية مقتنياتها[2].

وللشيخ الأزهري مشاركة في ميدان الشعر، منها قصيدة ضد التدخل الفرنسي في تونس أبريل سنة 1881 م - ومنها قصيدة تصور حال المسلمين في عقيدتهم وسلوكهم منذ انبلاج الإسلام حتى الآن في إيجاز وتركيز، وقد ضاع منها الجزء الأخير وله فيما يبدو أهمية خاصة لأن ما قبله كالتمهيد له، فمن ذلك قوله:

الحمد لله الذي أكرمنا	بذا الرسول ثم قد بجلنا
ثم الصلاة والسلام سرمدا	على النبي المصطفى محمدا
وآله وصحبه ذوي الهدى	القاطع بسيفهم ظهر العدا

(1) من النبذة المذكورة في الهامش رقم (1) ص 44.
(2) راجع قائمة بمخطوطات زاوية طبقة في مكتبة الأوقاف بطرابلس، وانظر مجلة الناشر العربي عدد (2) ص 81.

نهـارهُـمْ وليلُهُـمْ فـي الـديـن ليـس لهـم شغـلٌ بغيـر الـديـن
قـد نصـروا ديـن الحنيـف كلهـم عصـابـة مـؤمنـة بجمعهـم
أنصـارهـم ثـم المهـاجـرون اتبعـوا سبيـل المهتـديـن
قلـوبهـم تعلقـت بـربهـم فـلا يُـرون غـافليـن (دأبهـم)
حتـى انقضـت مـدتهـم وقُبضـوا وانقرضوا فاغفر لهم ما اكتسبوا
ثـم أتـى مـن بعـدهـم قـرنـان قـد شـابهـا الأول فـي الإحسـان
بقـولـه خيـر القـرون قـرنـي ثـم الـذي يلـونهـم فلتثـن
ثـم أتـت مـن بعـدهـم قـرون فصـالـح وطـالـح مفتـون
فـالصـالحـون الأوليـاءُ المتقـون والطـالحـون الأشقيـاء الجهلـون
كعلمـاء السـوء والحكـام التـاركيـن سبـل السـلام
قلـوبهـم تعلقـت بغيـر مـا قـد كـان قبلهـم يشـد الـديـن مـا
وأبـدلـوا اسـم الشـريعـة فمـا تـراهـم إلاّ عبيـد درهمـا
ليـس بقلبهـم عفـاف قـد حـلا فـلا لـديهـم إلاّ هـات أو فـلا
بـرشـوة قـد غيـروا . . . .

والقصيدة كما ترى لا تسلم من عيوب عصرها في أسلوبها ولغتها وأفكارها. وهي تسير على نهج ألفية ابن مالك التي ألمحنا إلى أنها من محفوظات الأزهري.

توفى الشيخ محمد الأزهري حوالي سنة 1322 هـ (1904 م)[1] بعد أن عمّر طويلاً حتى بلغ عمره مائة عام، قضاها في نشاط علمي مثمر وترك مراسلات وفتاوى تستحق الجمع.

---

(1) هكذا ورد في النبذة المتقدمة الذكر وفي «أعلام ليبيا» أن وفاته كانت سنة 1315 هـ.

أحمد إدريس الأزهري:

هو أكبر أبناء الشيخ محمد المذكور، تلقى تعليمه على يدي والده، ثم أتم دراسته في الجغبوب فترة من الزمان، عاد بعدها إلى بلاده ليخلف والده في نشر العلم.

ظلّ مدرساً في زاوية طبقة حتى بداية الغزو الإيطالي، حين أصبح يحرض المسلمين على محاربة الغزاة، بل ويقودهم بنفسه إلى ميادين المعارك. وفاجأه المرض وهو في ساحة القتال، فتوفي سنة 1330 هـ (1912 م) ودفن بزاوية أبي ماضي بجوار الشيخ عبد النبي الأصفر.

أحمد البدوي:

هو أحمد البدوي بن محمد الأزهري، ولد سنة 1292 هـ (1875 م)، وتلقى تعليمه على يدي والده بزاوية طبقة، وخلف أخاه أحمد إدريس في مشيخة الزاوية. قام بجهود محمودة في حل المشاكل بين الناس وفي تثقيف العامة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة 1347 ـ 1954. وذكر الشيخ الزاوي أن مترجمنا «كان أحد أعضاء مؤتمر السعداوي البارزين سنة (1949)...»[1] وذكر قبل الانتقال من تراجم أعلام زاوية طبقة أن الأزهري صاحب الكناش التاريخي هو أحد الأحمدين ابني محمد الأزهري. والمرجح عندي أن يكون أحمد إدريس؛ لأنه عاصر والده مدة أطول من معاصرة أحمد البدوي له، ولذلك أكثر من الرواية عنه. كما لم ترد أحداث بعد وفاة إدريس في النبذة التي أوردها الأستاذ المصراتي حول الكناش واعتبرها مصدراً من مصادر العهد العثماني الأخير[2]. فلو كان البدوي هو صاحب الكناش لأشار إلى الأحداث التي

(1) أعلام ليبيا، ص 46.

(2) علي المصراتي، مؤرخون من ليبيا، ص 165 وما بعدها.

شهدها إبان العهد الإيطالي، ويقول الأستاذ محمد عبد القادر الأزهري أن أحمد البدوي هو الذي لخص الكناش، وأن أصله كان من تأليف جدنا محمد الأزهري.

ومن المستبعد أن ينسب الكناش إلى محمد الأزهري نفسه كما ورد في إحدى المجلات التاريخية[1]، وذلك لأن صاحب الكناش قد أشار صراحة إلى أساتذة والده محمد الأزهري، ومنهم أحمد الخازمي وامحمد منيع المتوفى سنة 1280هـ[2] ولم يثبت أن والد الشيخ محمد الأزهري تلقى تعليماً في زوايا الجبل أو في غيرها.

وهناك دليل آخر يمكن أن يؤكد أو ينفي نسبة المخطوط إلى أحمد إدريس أو إلى والده، وذلك عن طريق مقارنة خط صاحب الكناش مع الكتب التي نسخها محمد الأزهري، ومع أسلوبه في رسائله الباقية، ويكفي لتبيان حقيقة الأمر أن نقارن بين قول الكاتب في المجلة المشار إليها: «والشيخ محمد الأزهري من تلامذة أحمد الخازمي كما أشار في كناشه»[3]، وقول صاحب الكناش نفسه «مات منه [يعني الوباء] الإمام العلامة سيدي أحمد الخازمي الورفلي شيخ الوالد»[4].

---

(1) راجع مجلة الشهيد عدد (3) آخر ص 221 وأول ص 222. ولا ينقص هذا التصويب اليسير من الجهود القيمة التي ما انفك المصراتي يسديها لتاريخ بلاده الثقافي والاجتماعي. وانظر دليل المؤلفين الليبيين ص 82.

(2) ورد سهواً في المجلة المذكورة أن هذا التاريخ هو تاريخ وفاة عبد الرحمن بن منيع (ج 6 ص 227).

(3) المجلة نفسها عدد (3) حاشية رقم 1 ص 226.

(4) المصراتي، المرجع السابق، ص 181 وانظر ص 166.

صفحة من كناش الأزهري

(في السطرين السابع عشر والثامن عشر إشارة صريحة إلى أن المؤلف ابن محمد الأزهري)

من الجبل تسمى الطاحون ونهبوا اموالهم ونفوا اياما ثم يوم الاربعاء
وخمسة وعشرون من [illegible] سنة ١٢٦٤ حرب ككلة من ذالك
الموقع واستولى ابابكر باشا على عمور ككلة وفاتت يفرن ومن حولها
عليه مدة الفصر يوم الاحد ٢٩ من رجب سنة [illegible] [illegible]
[illegible] واستانبول ثم الى [illegible]
[illegible] الناقر [illegible] احمد باشا [illegible] والزنتان
والرجبان والرباينة بعد [illegible] يوم الجمعة ٨ من شعبان سنة ١٢٦٠
ووقع القتال بينه وبين الناس [illegible] يوم [illegible]
لتلك الجمعة [illegible] يوم الاثنين ثاني [illegible] رمضان
من هذه السنة [illegible] احمد باشا [illegible] على الرباينة [illegible]
وضرب قصرهما والبلد [illegible] الاموال بحيث لم يبقى شيء
[illegible] رجلا [illegible]
[illegible] رحمهم الله تعالى رحمة واسعة يوم الاربعاء ٢٢ شوال
بعث احمد باشا [illegible] بالرباينة والزنتان والرجبان
وضربت [illegible] سنة [illegible] رجب
تاريخه [illegible] جدنا محمد [illegible] لانه امر احمد باشا
١٧ باقامة [illegible] يفرن [illegible]
١٨ الشيخ محمد الازهري [illegible] عليهم والامركا
قال صلى الله عليه وسلم [illegible] من قوم [illegible]
الى الجنة [illegible] صلى الله عليه وسلم يوم الاحد وخامس [illegible]
[illegible] ووقع القتال بين احمد باشا [illegible]
[illegible] اليوم وضرب قصرهم والذي [illegible] قتل [illegible]
[illegible]

ثانياً: مدرسة البخابخة (أو الباروني):

جاء في ديوان سليمان الباروني أن مؤسسها هو الصوفي الحاج سالم أبو الهول اليفرني حوالي سنة 1213 ـ 1798[1]. وهي فترة مضطربة من العهد القره مانلي اختلّ فيها الاستقرار السياسي وانتشرت الأوبئة والفقر[2]، فكأن هذه

(1) انظر حاشية الديوان ص 16.

(2) انظر طرابلس من 1510 ـ 1850 لكوستا نريوسار ـ تعريب خليفة التليسي ـ طرابلس 1969 ص 268 وما بعدها.

المدرسة كانت ملجأ المستنيرين بالعلم وملاذ المعتزلين للفتن.

ويقال إن لها جهوداً كبيرة في تحفيظ القرآن الكريم وتدريس العلوم الإسلامية والعربية عبر تاريخ طويل؛ فقد ورد في نبذة تاريخية عنها أن أبا ساكن عامر بن علي الشماخي كان أحد طلابها في القرن الثامن الهجري، وورد في دليل المؤلفين الليبيين أن أبا ساكن المذكور أنشأ مدرسة في يفرن لعلها تكون هذه، وبذلك يكون هو مؤسسها لا أحد طلابها[1].

وبالرغم من العناية التي أولاها سالم أبو الهول في نهاية القرن الثامن عشر لهذه المدرسة فإنها لم تصمد لتقلبات الزمن؛ إذ انتهى نشاطها بعد وفاة المتحمسين لتعميرها، وبيعت أوقافها في تونس إثر الاحتلال الفرنسي لذلك البلد عام 1881[2].

وفي 12 من ربيع الأول ـ ذكرى مولد الرسول ﷺ ـ من سنة 1322 (1904) قام الشيخ عبدالله الباروني ونجله سليمان بافتتاحها بعد تجديد بنائها. وحضر حفل الافتتاح عزت باشا متصرف لواء الجبل وجمهور من وجوه البلد، وسميت المدرسة منذ ذلك التاريخ بمدرسة الباروني.

وقد حرص الشيخ سليمان الباروني على أن يجعل من هذا التاريخ مناسبة لاحتفال سنوي يقيمه في المدرسة وتُلقى فيه الخطب والقصائد الشعرية التي تشيد بها.

ومن ذلك قصيدة في يوم الافتتاح قال فيها مخاطباً السلطان عبد الحميد:

---

(1) عامر الشماخي هو صاحب كتاب الإيضاح الذي أصبح فيما بعد عمدة المقررات الفقهية في هذه المدرسة. (راجع ترجمته في دليل المؤلفين الليبيين ص 178 الإباضية في موكب التاريخ 69/2. 113 ـ 199. الجزء الأول من الإيضاح، البيلوغرافيا العربية الليبية 1982 ص 108، فهرس مخطوطات دار الكتب المصرية 90/1.

(2) انظر ديوان سليمان الباروني حاشية ص 16.

خدَمَتْكَ مدرسةُ الباروني إذ غَدَتْ تشدو بنصرك في مصادمة العنيدْ
ولسانُ حالِ دروسها وربوعها ما عمرتْ يرجو لك النصر الأكيد
في عصرك المعمورِ ذي الفخر الذي بهر العقولَ وحيَّر الفكرَ السديد
شبَّتْ وعاد لها الصِّبا فترنحتْ طرباً وقالتْ في الورى عبد الحميد[1]

تتكون المدرسة، من ركن للدراسة وقسم داخلي يساعد على إيواء المحتاجين والمغتربين من الطلاب، كل ذلك في نظام دقيق يجعل إقامة الطالب مفيدة ومريحة. وفي ميدان الدراسة كان تحفيظ القرآن الكريم هو حجرُ الزاوية فيها وفي كل المراكز التعليمية بالجبل، ومن العلوم الأخرى التي كانت معروفة بين منتسبي هذه المدرسة مثلاً الفقه والنحو والمنطق والفرائض والتوحيد.

ويمكن أن نتبين نوع الكتب التي كانت تخدم هذه العلوم من خلال رسالة شعرية بعث بها الشيخ عريبي العزابي إلى أحد أصدقائه، معتذراً لانشغاله عن مكاتبته بمطالعة دروسه:

إن قلت صِلْ فالوصلُ أسباب الرضا قلت اعتذاراً نحن في شغلٍ شغلْ
فالحرب قائمة على قدم فذا (إلا يضاح) في الميدان يزأر كالبطل
نادى (بألفية) ابن مالك فاكتست بغلائل (الكافي) ونادتنا بهل
هل عندكم فهم سما هل عندكم أولا فذا فن الفرائض مبتذل
ذا (سلم) يرقى به لمدارج تسمو الغزالة والمجرة والحمل
وأنا المبرز يا عليّ مجاهداً والنفس طامحة إلى نيل الأمل
فاعذر فمثلي لا يلام لأنني في موقف صعب مضايقه جلل[2]

---

(1) ديوان سليمان الباروني ص 16.
(2) ديوان سليمان الباروني ص 131.

وبالإضافة إلى الكتب التي أشار إليها الشيخ عريبي نشير إلى أن الشيخ أبا عثمان التندميرتي كان يتولى تدريس شرح اللؤلؤة في علم الكلام، وهو شرح لقصيدة اللؤلؤة التي نظمها أبو القاسم الشماخي. لكن ذلك فيما يبدو كان قبل تجديد المدرسة.

أما الشعر فكان القاسم المشترك بين كثير من علماء المدرسة وتلاميذهم، مما يدل على اهتمامهم بالأدب والعروض[1] فهذا الشيخ عبدالله الباروني يترك ديواناً شعرياً، وكذلك يفعل ابنه سليمان، والأديب أبو عثمان التندميرتي كما أن للشيخ عريبي، وسليمان الجادوي، وغيرهما مشاركات في مضمار الشعر نشر بعضها ضمن ديوان الباروني، ولعل بعضها الآخر ما يزال مخطوطاً لدى عقب أولئك الأعلام أو أصدقائهم.

ولقد علّم في هذه المدرسة أو تعلم بها جماعة من العلماء في فنون مختلفة، أهمها الفقه الآباضي واللغة العربية، نورد فيما يأتي تراجم لأشهرهم في الفترة المخصصة للدراسة، وهي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، دون إغفال الماضي العريق لهذه الزاوية العتيدة ودورها المجيد في خدمة الإسلام ولغة القرآن الكريم.

عبدالله الباروني[2]:

ولد الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني في كباو في الجبل الغربي وتلقى

(1) آية ذلك في ديوان عبدالله الباروني قوله في ص 117:

هـاكهـا خـود عـروب حليهـا لـؤلـؤ يلفظـه بحـر الـرمـل
فـاعـلاتـن فـاعـلاتـن فـاعلـن ليـس لـلإنسـان إلاّ مـا حصـل

(2) انظر ترجمته في أعلام الزركلي، سلم العامة من المبتدئين، أعلام ليبيا ط(2) ص 241، دليل المؤلفين الليبيين 235.

سليمان الباروني وآثاره الأدبية في جبران ص 8 معجم المطبوعات العربية ص 150، دراسات في الفن والأدب لنجم الدين الكيب ص 84، ديوان عبدالله الباروني سلامة طبعة دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

تعليمه الأولي في مسجد أبي محمد الكاباوي المعروف (بالقشقاشة). ثم استزاد من العلم في جامع الزيتونة بتونس وفي الجامع الأزهر بمصر.

وقد كان لهذه الرحلات فضل في اتصاله بعدد من الأساتيذ الذين أسهموا في تربية روحه وعقله، نخص بالذكر منهم أستاذه أبا عثمان سعيد بن عيسى الباروني نزيل جربة، إذ كان له حظوة خاصة في قلب تلميذه عبدالله الباروني عبر عنها في قوله:

مناي من الدنيا حياةُ سويعةٍ ... إلى أن أرى بدراً سما بالمفاخر
عنيتُ به الأستاذ شيخي وقدوتي ... يكنى أبا عثمان كنز الذخائر[1]

وتتبين مكانة هذا الأستاذ في نفس تلميذه من خلال مرثية قالها عند وفاته سنة 1865 م، ومنها:

فلو جاز أن تفدي نفوس بمثلها ... لكان فداءُ الشيخ بالناس يُشرع
ولكن حكم الله جل جلاله ... على خلقه بالموت أمر موقع[2]

وكان الشيخ الباروني على صلة بالنشاط الثقافي في مصر وتونس[3] عندما كان يتولى مهمة التدريس قبل إنشاء المدرسة البارونية وبعد إنشائها، وقد تخرج على يديه عدد كبير من الطلاب في أماكن مختلفة، من ذلك مثلاً أنه أقرأ كتاب (النيل) لجماعة من الطلاب في مصر وقال عند ختمه:

يوم ختم كتاب نيل المعاني ... فيه نلت المنى وتهت دلالا

---

(1) الديوان ص 54.
(2) الديوان ص 73.
(3) انظر محمد مسعود جبران، سليمان الباروني وآثاره الأدبية ص 8، والمصراتي في كتابه مؤرخون من ليبيا ص 237.

يــا لــه مــن مــؤلّـفٍ فــاق جمعــاً   واختصــاراً لا تخشـى منـه مـلالا[1]

أما تلاميذه في الجبل الغربي فمنهم ابنه الأديب سليمان والصحفي سليمان لجادوي والأديب عمرو التندميرتي، وأبو زكريا مفتي نالوت، وعلي الحجي، ومحمد الترهوني وغيرهم.

ولم تقتصر جهود الرجل على ميدان التدريس، فقد أضاف إلى ذلك جهوداً طيبة في مجال التأليف منها:

1 ـ «رسالة العامة والمبتدئين في معرفة أئمة الدين» طبعت سنة 1906 م وكان الفراغ من تأليفها سنة 1290 هـ (1873 م). تقع الرسالة في خمس وخمسين صفحة، تناول فيها سير وتاريخ أئمة مذهبه، بطلب من أحد وجهاء (تقربست) المدعو الحاج سليمان بن زيد. وأضاف إليها ولده سليمان تعليقات وحواشي في مواضع مختلفة.

وقد تعرض في الرسالة لأعلام المذهب من أمثال جابر بن زيد والمعافري، ورستم، ودرار، وأبو داود القبلي، والسدراتي، وعبدالله بن أباض التميمي، وعلي بن يخلف الذي يذكر أنه السبب في إسلام غانة وما يليها من بلاد السودان.

2 ـ مجموعة من الأسئلة ورده عليها تكوّن كتاباً أشار إليه يوسف بن أيوب في مذكراته وقال إنه وقف على جزء منه[2].

3 ـ ديوان شعره الذي طبعه محمد بن يوسف الباروني بدار الطباعة المحمدية بمصر (د. ت) ويشتمل على أهم الأغراض الشائعة بين الشعراء العلماء في تلك الفترة، وأبرزها المدائح النبوية والمواعظ الدينية. فقد ألف في هذا الغرض أبناء منيع، الأزهري، والعكروت، والتندميرتي، وغيرهم. وفي

---

(1) الديوان ص 45.

(2) مذكرات يوسف بن أيوب الباروني ـ مخطوط ـ يتناول طائفة من علماء الجبل.

ديوان الباروني رسائل شعرية ومدائح إخوانية في حق أصدقائه ومنهم الشماخي وعيسى الباروني ومحمد أطفيش وعمر لطفي.

ومثيلات هذه المراسلات كثيرة في تلك الفترة، وبخاصة بين الطلاب المغتربين في مصر وتونس وبين ذويهم وأصدقائهم. وهي تتميز بصدق العواطف، وبها ضعف في الأسلوب وبساطة الفكرة لم تسلم منه كثير من النصوص المعاصرة. وفي الديوان بالإضافة إلى ذلك مراثٍ ومدائح في حق أصدقائه وبعض ولاة طرابلس وتهنئة للسلطان عبد الحميد لانتصاره في حرب اليونان.

وكلمة أخيرة حول الديوان هي أن به خللاً في أوزان كثير من الأبيات، ربما حُمِّل بعضُه على الطباعة والنسخ ولكن منه ما يعود إلى أصل النظم، وهو ما لا نجده في الشعر الممتاز المنسوب لابنه الأديب المجاهد سليمان، فمن ذلك ما جاء في أعجاز الأبيات التالية من قصيدة واحدة للشيخ عبدالله:

أردت بها نجلي سليمان قاصداً ... لتحريضه على اكتساب المفاخر

بُنــيَّ تنبّــه واستمــع لمقــالتــي ... وكــن واعيــاً لهــا بقلــب مبــاشــر

تعلَّــم بُنــيَّ العلــم واسلــك سبيلــه ... وغص في بحاره تفز بالجواهر(1)

4 ـ رسائله الإخوانية:

كان عبدالله الباروني وهو في الجبل على صلة بالآخرين عن طريق المراسلة، وربما كانت المراسلة شعرية كتلك التي أرسلها إلى ولده في تونس، أو نثرية كهذه التي أرسلها إلى نامق باشا والي طرابلس فأفصح بها عن نموذج

(1) الديوان ص 29.

من النثر الفني يمثل خصائص عصره:

(بلّغ إلهي نجايب هبوب الصبا بزكي نفحات سلامي وسر صافنات نسيم الأسحار بعاطر تحيات غرامي، إلى من انتفشت هيولي بهجة جماله في صفاء تاموري، فلم أزل أطالع طوالع شوارق محاسنه في سماء آصالي وبكوري، أعني قطب دائرة المجد والكمال، وبدر سماء السعادة والعز والإقبال المساير حيث كمال عدله في مناكب الغبراء سير الغزالة في منازل الخضراء. . .).

ويستمر الباروني في إصباغ مثل هذه الصفات على نامق باشا، ويذكر له في تواضع جم أنه قال فيه قصيدتين «وقد قلنا فيكم قصيدتين الأولى وجعلنا رويّها منصوباً موصولاً بالألف المستقيمة تفاؤلاً بدوام منصبكم العالي وباستقامة أموركم مرّ الأيام والليالي». يعني قوله:

الـروض بـاكـره الحيـا فتبسمـا	وسـرى الصبـا بخـلالـه وتنسمـا
وتنـافحـت أزهـاره وتـرنحـت	أغصـانـه وبـه الحمـام تـرنمـا
والكـون أشـرق والبقـاع تباشـرت	وتمـايَلـت طـربـاً بطلعـة مـن سمـا
أعنـي بـه والـي الـولايـة نـامقـاً	من حل في فلك العلا وتنسما[1]

ومما عبر به عن تواضعه الجم قوله عن القصيدتين «وقد صدرتا عن فكر قاصر عليل وقلب بالمشاغل كليل مع قلة البضاعة وقصور الباع في هذه الصناعة، ولكن كما قيل: ما لا يدرك كله لا يترك قِلّه، فالمرجو من فيض محاسنكم المسموعة أن تكون بملاحظتكم موصولة لا مقطوعة ومقبولة لا ممنوعة»[2].

توفي الشيخ عبدالله الباروني سنة 1912 وقلبه يضيق ضجراً بالغزو

(1) الأبيات في الديوان ص 107.

(2) الرسالة بكاملها في «وثائق تاريخ ليبيا الحديث» أحمد الدجاني وعبد السلام أدهم، منشورات جامعة بنغازي 1974 م.

الإيطالي لبلاده، ودفن ـ رحمه الله ـ في كاباو بجوار مسجد أبي محمد الكاباوي[1].

عمرو بن عيسى التندميرتي:

فقيه متصوف قام بمهمة التعليم والإرشاد بين العامة بقرى يفرن حيث أمضى معظم حياته، وصرف جزءاً من جهوده إلى التأليف وقرض الشعر التعليمي والديني. تلقى تعليمه على يد الشيخ عبدالله الباروني وكان أكبر منه سناً، وتولى بعد ذلك الوعظ والتعليم، وقد تقدمت الإشارة إلى أنه درَّس شرح قصيدة اللؤلؤة للشماخي لكن أغلب جهوده صرفت في الوعظ والإرشاد بين العامة، وعاش من عمله في ميدان الفلاحة.

من مؤلفات التندميرتي ديوان «القلائد الدرية في مدح خير البرية»، تولى طباعته سليمان الباروني في مطبعته بالقاهرة. وله مؤلف في المذاهب الإسلامية[2] ومخطوطة مفقودة في علم الكلام[3] وشعره مطبوع في ذيل ديوان شيخه عبدالله الباروني.

ويتميز ما تبقى من شعره بخاصيتين بارزتين أولاهما انصرافه إلى مدح الرسول ﷺ والثانية اهتمامه البالغ بالمعارضة في شكل التخميس والتشطير والتربيع والتثمين. وللشاعر بالإضافة إلى ذلك قصائد متفرقة، وله زجل ممدوح في موضوع الحكم والمواعظ، ويقال إن حفيده يحتفظ بما لم ينشر من شعره[4].

---

(1) أعلام ليبيا ص 242 أنه توفي سنة 1914 وكذلك في أعلام الزركلي وذكر الأستاذ جبران في دراسته عن سليمان الباروني أن وفاته كانت سنة 1913. أما التاريخ فقد ورد في نبذة بقلم الباحث عمرو مسعـود، وفي «مؤرخون من ليبيا» للمصراتي ص 237.

(2) ذكر ذلك الباحث محمد الباروني في نبذة حول المدرسة البارونية.

(3) من نبذة للأستاذ عمرو مسعود حول علماء الجبل، وفيها أنها «رسالة في علم الكلام كانت عند أحد ورثة محمد بن الحاج سعيد».

(4) انظر دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 299.

وتجدر الإشارة قبل مغادرة الديوان إلى أن الحكم والمواعظ كانت هي وسيلته في دروسه اليومية، وهي كذلك مادة بارزة في شعره، وتبدو فيها التأملات والنظرة للأمور بمنظار الأتقياء المؤمنين والمتصوفة المتبتلين:

قـدِّم لنفسـك مـا إليـه تصيـر | فـالعمـر ضيـف والليـالـي تسيـرُ
وانهض هُديت لما خُلقت لأجله | واللهـو دعـه ومـا إليـه يشيـر
وبهـذه الـدنيـا الـدنيـة لا تثـق | واعلـم بـأن وعـودهـا تغـريـر[1]

فإذا أردنا الموازنة بين شعره وشعر معاصريه لوجدناه يتقدم على كثير منهم بأسلوبه وحسه العروضي وتأملاته الواعية.

توفي الشيخ أبو عثمان عمرو التندميرتي على إحدى روايتين سنة 1321 (1902) أي قبل تجديد مدرسة البخابخة[2] وفي الرواية الأخرى أنه توفي سنة 1340 (1921)[3] والفارق بين الروايتين كبير، لكني أرجح الرواية الأولى لأن التندميرتي لم يتول التدريس ـ فيما نعلم ـ لغير العامة، وظل متنقلاً بين قرى الجبل الغربي، فلو كانت مدرسة الباروني قائمة بأمور التدريس لانتدب للتدريس فيها لما له من صلة وثيقة بمؤسسيها.

ولكن ذكره ضمن المنتسبين إلى هذه المدرسة يعود إلى صلتها الوثيقة بأعلامها وتربيته في مناخها الفكري والديني والاجتماعي.

ونختم حديثنا عن هذا العالم والأديب بالإشارة إلى أنه ترك مكتبة زاخرة بمختلف المؤلفات ضاع كثير من محتوياتها خلال الغزو الإيطالي وما أعقبه من فتن[4].

---

(1) ديوان عبدالله الباروني وتلميذه عمر بن عيسى، ص 166.
(2) دليل المؤلفين العرب الليبيين ص 299.
(3) نبذة بقلم الأستاذ محمد الباروني.
(4) المصدر نفسه.

سليمان الباروني(1):

هو المجاهد البارز سليمان ابن الشيخ عبدالله بن يحيى الباروني المتقدم ذكره، ولد في جادو سنة 1278 هـ (1870) وتلقى تعليمه الأولي على يد والده ثم رحل إلى تونس لطلب العلم عام 1305 (1888 م) وهناك خاطبه والده بوصية ضمنها قصيدة شعرية طويلة تقع في مائة وعشرين بيتاً، منها:

تعلَّم بُنَيَّ العلم والزمه دائماً — قريناً مع التقوى وفعل الأوامر

تعلم بُنَيَّ العلم فالعلم زينة — وذخر وفخر للفتى في المحاضر

تعلَّم فإن العلم تاج وهيبة — لحامله بين الرجال الأكابر(2)

ثم انتقل إلى مصر حوالي سنة 1310 هـ (1892 م) بقصد الاستزادة من طلب العلم، وفي سنة 1313 (1895 م) توجه إلى الجزائر فأخذ عن الشيخ محمد يوسف طفيش ولازمه ثلاث سنوات عاد بعدها إلى أرض الوطن فأسس مع والده مدرسة الباروني وانتخب عضواً في مجلس «المبعوثان» التركي سنة 1910 م ثم كان له إسهام مشهور في فترة الجهاد ضد إيطاليا. توجه إثره إلى المشرق وتولى مقاليد سياسية عليا في عُمان. ثم حلَّ به المرض فتوفي يوم وصوله إلى (بومباي) بقصد العلاج وذلك سنة 1359 هـ (1940 م).

---

(1) من مراجعه: أعلام ليبيا 158/2 ـ أعلام الزركلي «صحافة ليبيا» للمصراتي ص 118، ولمحات أدبية عن ليبيا ص 69، والبيليوغرافية الوطنية الليبية 46/1، ومعجم المطبوعات العربية 515 وديوان الباروني نشر زعيمه الباروني، ودليل المؤلفين العرب الليبيين ص 147، بالإضافة إلى ما كتب حوله من دراسات تجدها في صلب هذه الترجمة.

(2) ديوان عبدالله الباروني ص 29. وقد كانت المراسلات بين الشيخ سليمان الباروني ووالده موضع شكوك السلطات العثمانية وقد قواها وجود بعض الوثائق التي ضبطت عنده سنة 1899 (انظر وثائق تاريخ ليبيا الحديث) منشورات جامعة بنغازي 1974 ص 156 فاتهم سليمان وصدرت في حقه مذكرة توقيف غير مؤقت في مايو 1899 م.

وليس هذا المقام الموجز بكافٍ للتعريف بكل مناشط الباروني المتعددة ولكن يكفي أن نشير - ونحن بصدد الحديث عن الحياة الثقافية - إلى أن الرجل كان صاحب قلم وبيان أسهم بهما في التأليف نثراً وشعراً، فترك من المؤلفات ما يلي:

1 - كتاب «الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية» وضعه في ثلاثة أجزاء، فُقِدَ أولها وثالثها ولم يبق سوى الجزء الثاني الذي طبع بمطبعة «الأزهار البارونية» في مصر، ويقع هذا الجزء المنشور في ثلاثمائة وإحدى عشرة صحيفة تتناول التاريخ والوصف لمدينة «تيهرت» بالجزائر، مفصلاً القول في تأسيسها وعلمائها وولاتها والأشعار التي أشادت بها.

وقد زار المؤلف هذه المدينة ووقف بين أطلالها سنة 1316 (1898 م) فعبر عن تأملاته فيها بقصيدة مطلعها:

قفا نبك أطلالاً تقلّص ظلُّها ... ونندبُ آثار الذين بقوا ذكراً[1]

2 - الديوان: يتألف ديوانه الذي أشرفت على طباعته ابنته زعيمة الباروني من مائتين وثمانين صحيفة تضم بعض الصور والوثائق بالإضافة إلى ثمانين مقطوعة أو قصيدة.

قُسِّم ديوان الباروني إلى جزأين فكان جزأه الأول يتكون من القصائد الواردة في الديوان المطبوع بالقاهرة 1326(1908م) بإشراف الشاعر نفسه، أما الجزء الثاني فمما أشرفت على جمعه وترتيبه ابنته زعيمة الباروني، وألحقته بالديوان الأصلي.

ويتناول شعر الباروني موضوعات متعددة كالمدح، والمجاوبات الإخوانية، والوصف، والرثاء، والاعتذار، والعتاب، ومدح الرسول ﷺ والتهاني.

(1) الديوان ص 101.

أبيات لسليمان الباروني بخط يده

وليعد للوطن المقدس عزه ... جهدا والا هناء ولا قرار

رب العباد اجب دعاء محافل ... قد شتتوا بجهادهم في كل دار

وارحم طرابلس وبرقتها فقد ... اضناها ذل وقهر وافتقار

لا عرض معصوم ولا دين الهدى ... بمقدس بل ولا قبس ينار

قتلوا النفوس بظلمهم واستعبدوا ... ابناءها وتملكوا حتى القفار

هي الحماقة لا التي ذاعت على ... اقلام من نالوا بها لوما وعار

3 ـ «مختصر تاريخ العائلة البارونية»: وهي رسالة صغيرة ألفها ـ فيما أعلم ـ بطلب من أحد المستشرقين، وتتناول كما يظهر من عنوانها تاريخ الأسرة التي تعود جذورها إلى قرية بارون بعمان، ومنها وفد أصلها خلال القرن الثالث الهجري.

4 ـ مقالات في المجلات والصحف: ومنها: مجلة «الأسد الإسلامي» (التي أصدرها في القاهرة) وصحيفة «الرابطة العربية» التي كتب فيها ردوده على شكيب أرسلان[1]، وجريدة «دار الخلافة» و «الفتح» و «المقطم» و «الأخبار» و «المنهاج» وغيرها[2].

ولم يكن غريباً أن يتناول الدارسون أعماله السياسية والأدبية بالتحليل والتسجيل نظراً لاتساع مناشطه في تلك الميادين، فقد أُلفت حوله كتب ودراسات ومقالات منها:

---

(1) تيسير بن موسى، كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام 1935 ـ 1950، طرابلس، مركز جهاد الليبيين 1983 م، ص 119.

(2) محمد مسعود جبران، سليمان الباروني وآثاره الأدبية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة الفاتح، ص 120.

1) حياة سليمان باشا الباروني، لأبي القاسم الباروني - القاهرة 1948 م.

2) سليمان الباروني - لأبي اليقظان إبراهيم - الجزائر 1956 م.

3) سليمان الباروني «تعريف موجز» لزعيمة الباروني - دار لبنان - بيروت 1973 م.

4) سليمان الباروني [سلسلة نوابغ العرب] دار العودة - بيروت 1975 م.

5) سليمان الباروني وقضايا عصره - مخطوط من تأليف محمد مسعود جبران.

6) سليمان الباروني وآثاره الأدبية - رسالة ماجستير من تأليف الأستاذ محمد مسعود جبران - نوقشت في كلية التربية بجامعة الفاتح سنة 1982 م، وقد طبع هذا العمل القيم في الدار العربية للكتاب.

7) حياة سليمان الباروني لإبراهيم الباروني - صورة بمكتبة مركز الجهاد.

أما المقالات والدراسات والتراجم فهي كثيرة ومتنوعة المصادر[1].

ثالثاً: زاوية الطواهرية بأبي زيان

تقع هذه الزاوية بمنطقة أبي زيان قرب مدينة غريان، وتنسب إلى أسرة الطواهرية إحدى فروع قبيلة الكميشات، وقد تنسب إلى المنطقة التي أُقيمت على أرضها فيقال «زاوية أبي زيان».

جاء في معجم البلدان الليبية أن مؤسس هذه الزاوية هو عبدالله بن السيد الشارف، وأنها شهدت نشاطاً متزايداً اشتهر به أمرها في أيام الشيخ علي الطاهر

(1) نذكر من ذلك ما كتبه الأستاذ المصراتي في «مؤرخون من ليبيا» و «صحافة ليبيا» و «لمحات أدبية عن ليبيا» وما كتبه الشيخ الطاهر الزاوي في «أعلام ليبيا» و «الجهاد الأبطال» وغيرها من المصادر (انظر مراجع الباروني في هذا البحث).

وعمه الأمين[1]. وورد في نبذة أمدني بها أحد أبناء أسرة الطواهرية أن المؤسسين هم الأمين وعبدالله وعمر أبناء علي الطاهر بن عمر الكميشي. . . على أنه ورد في هذه النبذة أن تاريخ تأسيسها كان حوالي سنة 1200 هـ (1785 م)، وهو تاريخ سابق لفترة النشاط التعليمي لعمر الطاهر الكميشي المتوفى سنة 1267 هـ[2].

أُقيمت الزاوية وسط أبي زيان في مبنى مكون من طابقين، يحتوي كل منهما على عدد من الحجرات الصغيرة (الخلاوي) أُعدت لسكن الطلاب الوافدين وبعض الأساتذة غير المقيمين، وقد زارها الشيخ الطاهر الزاوي سنة 1922 وذكر أنها حفير في الأرض مربع[3] ويبدو أنها التبست عليه بزاوية الكميشات في منطقة القواسم. وقد زرت زاوية أبي زيان فوجدتها على الحال المذكورة آنفاً، باقية الأثر، دالة ببنائها الشامخ على ماض عريق، وعناية بالطلاب والأساتذة جديرة بالتعريف والتقدير.

وتولى مهمة التهدريس في هذه الزاوية عبر تاريخها عدد كبير من العلماء نذكر منهم:

1 ـ الحاج الأمين الكميشي: وهو المؤسس الأكبر للزاوية، وقد اشتهر بالعلم والصلاح والمثابرة على التعليم والتوجيه، وفي عهده شهدت الزاوية نشاطاً كبيراً، وأقبل عليها الطلاب والعلماء من المناطق النائية والقريبة.

2 ـ محمد بن الأمين بن الطاهر الكميشي: فقيه بارز من سلالة مؤسس الزاوية، جمع بين الفقه والتصوف، وتولى التدريس في الزاوية المذكورة بالإضافة إلى كونه نائباً لمؤسس الطريقة الصوفية المعروفة عندهم بـ «الساعدية».

---

(1) الزاوي «معجم البلدان الليبية» ص 163.
(2) انظر كناش الأزهري ضمن كتابه (مؤرخون من ليبيا ص 183)، وهو ما يعني أن الاسم مشترك بين أكثر من شخص في هذه العائلة.
(3) معجم البلدان الليبية، ص 163.

3 ـ الشيخ عمر الطاهر الكميشي[1]: وهو المؤسس الأصغر للزاوية، وكان مفتياً بمجلس إفتاء غريان، وناظراً للزاوية على عهد أحمد باشا وصدر ولاية أحمد عزت، وفي عهده كُتب فرمانٌ واحد على الأقل باحترام الزاوية ومؤسسيها.

4 ـ الشيخ سعد بن عبد الواحد الفزاني: وقد كان مقيماً بالزاوية في حجرة خاصة به لفترة طويلة، وتولى خلال إقامته بالزاوية في النصف الأول من القرن العشرين تدريس الفقه الإسلامي، واشتهر بصلاحه وتقواه، وتذكر له في هذا الشأن أخبار تنخرط في سلك الكرامات.

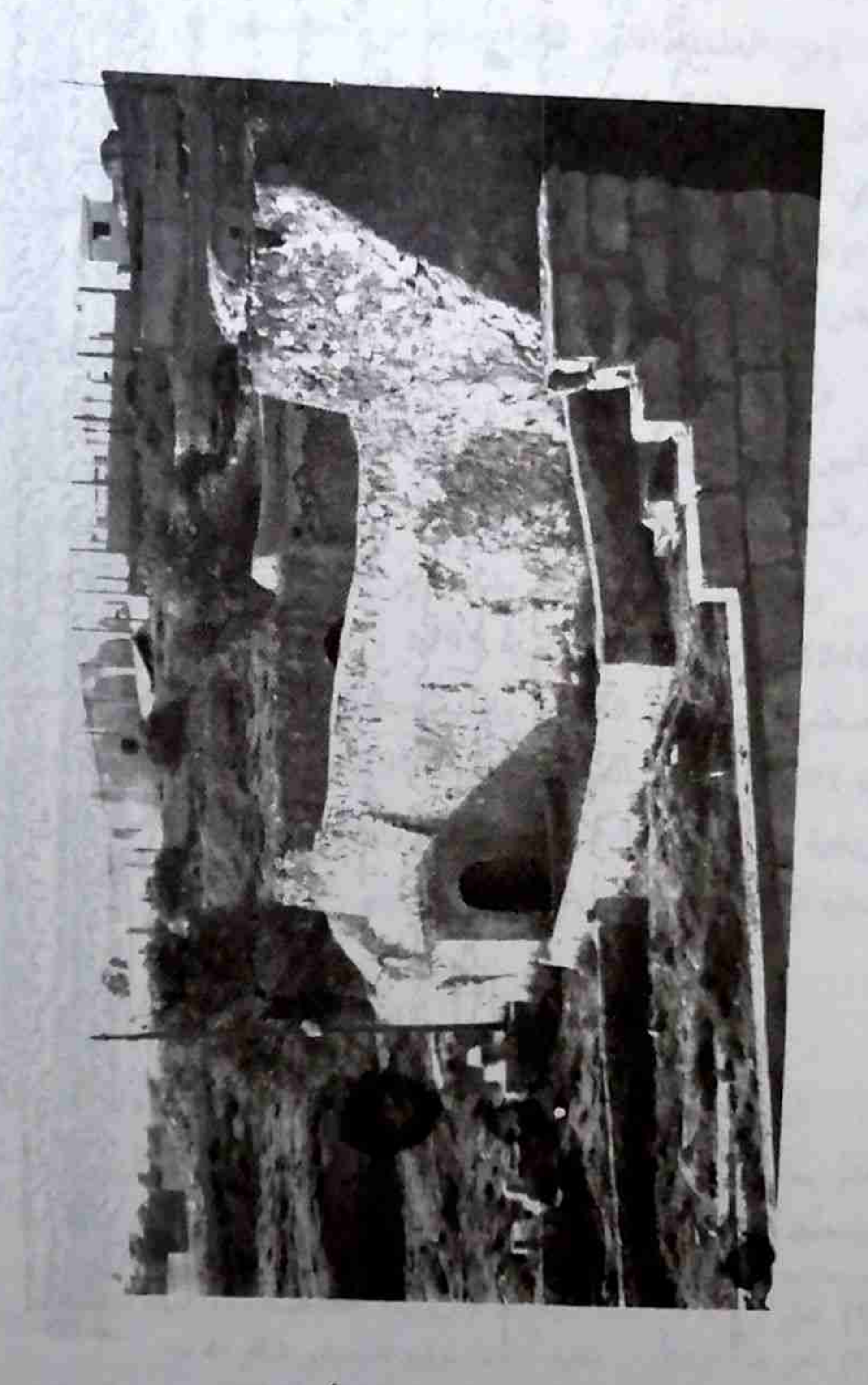
5 ـ الشيخ محمد الشنقيطي المغربي: ينتمي هذا الشيخ إلى شنقيط، وهو من الحجاج الذين طاب لهم المقام على ما يبدو في ربوع بلادنا، وهو ما يدل على شهرة هذه الزاوية وانفتاحها لاستقبال الأساتذة والطلاب من كل مكان، كما يدل على وحدة دار الإسلام والعرب التي لا تعرف حدوداً حاجزة بين مواطنيها في الماضي القريب، ناهيك عن الماضي البعيد. وقد ورد ذكر الشيخ الشنقيطي في نبذة أخرى باسم عبد العزيز ولعل المراد بذلك شخص آخر.

أما النظارة في هذه الزاوية فقد تولاها أفراد من أسرة الطاهر الكميشي نذكر منهم: الشيخ عمر الكميشي، وعلي بن عمر الطاهر، والأمين الطاهر، ومحمد بن الحاج الأمين، وأخيراً الطاهر بن إبراهيم.

تستقبل الزاوية في فترات ازدهارها ما قد يزيد عن أربعمائة طالب، ولكن هذا العدد يقلّ في مواسم الجفاف بسبب صعوبة الحياة، ذلك أن الطلبة يتزودون من أسرهم بنفقات معيشتهم وتصرف لهم معونات يسيرة من وقف الزاوية، وتقلّ هذه الإيرادات أو تنعدم في سنيّ الجفاف.

ويأتي الطلاب إلى هذه الزاوية من مناطق الجبل الغربي والجفارة ومن الجنوب، ثم قد يكتفي أكثرهم بالدراسة في الزاوية حين يتوجه بعضهم إلى

(1) ذكر الأزهر الزنتاني في كناشه رجلاً يدعى عمر الطاهر الكميشي توفي ليلة الثاني والعشرين من محرم 1267 هـ (1850 م) ولا أحسبه أنه هذا لاختلاف سبب الوفاة بينهما.



زاوية الطواهرية بأبي زيان

نص الفرمان الموقع من يوسف باشا القرمانللي في حق زاوية أبي زيان

الأزهر لاستكمال دراستهم. ومن هؤلاء الراحلين من عاد فتولى مناصب القضاء والتعليم في بلاده.

ومن العلماء الذين تلقوا جانباً من تحصيلهم في هذه الزاوية محمد بن الأمين وسعد الفزاني، ومنهم محمد الإمام الزنتاني الفقيه المشهور في الجبل الغربي[1] وعلي الطاهر، ومنهم الشيخ عليش الكميشي والشيخ الطاهر إبراهيم الطاهر، ومحمد المبروك الخوجة والشيخ محمد القطيوي والقاضي محمود أبو رخيص وغيرهم.

ويذكر أخيراً أن الزاوية قد حصلت على فرمانات من الولاة الأتراك والقره مانلليين توصي باحترام شيوخها، وتجعل لزاويتهم حدوداً موثقة، وتعفيهم من الضرائب والأتاوات.

وقد صدرت هذه الفرمانات عن يوسف باشا القرمانللي سنة 1244 و 1246 هـ وأحمد عزت سنة 1295 و 1287، وعثمان مظهر سنة 1273، ومصطفى نوري سنة 1287، والسيد محمد خالد سنة 1287، ومصطفى عاصم سنة 1292، وأحمد السيد عزت سنة 1296، وبذلك تكتسب هذه الوثائق أهمية تاريخية في تحديدها لأسماء الولاة وتواريخ ولايتهم فضلاً عن أهميتها في حماية الوقف الثقافي في ذلك العصر[2].

رابعاً: زاوية السني

أسسها الشيخ عبدالله السني في أُخريات النصف الأول من القرن التاسع عشر بمدينة مزدة لتكون مركز إشعاع ديني في طريق القوافل وبين سكان القبلة ولتحفّظ أبناء المسلمين القرآن الكريم وتعلّمهم علوم الدين والعربية[3]. وكان

---

(1) انظر ترجمته في مجلة «البحوث التاريخية» السنة السادسة، العدد الأول، ص 117

(2) نص هذه الوثائق في مكتبة الأستاذ توفيق الكميشي شكر الله له.

(3) الزاوي، معجم البلدان العربية، طرابلس 1968 ص 173.

المؤسس هو أستاذها الأول ثم تردد عليها علماءُ آخرون منهم الشيخ محمد الأزهري والشيخ قرزه والشيخ أحمد البدوي.

ولم يكن دور الزاوية مقتصراً على الناحية التعليمية وحسب؛ فقد كانت مرجعاً للمستفتين ومقراً للمتحاكمين. فيها وفي غيرها من زوايا الجبل كانت تعقد عهود الصلح، ويبرم أمر الجهاد، وتجاب أسئلة المستفتين، وتكتب عقود التوثيق العقاري وغيره، فضلاً عن دورها في إحياء المواسم الإسلامية وبيان شعائرها للناس، ويضطلع علماؤها بأدوار اجتماعية قيمة من خلال التوفيق بين القبائل والدعوة إلى وحدتها ونبذ خلافاتها[1].

توفي مؤسس الزاوية سنة 1877/1294 م فتولى الإشراف عليها ابنه محمد بن عبدالله السني، وأمرَه على ذلك أستاذه محمد المهدي[2] فارتقى بها مادياً وأدبياً ارتقاء ملموساً في كافة النواحي[3]. وعندما توجه الشيخ محمد عبدالله السني إلى شمال النيجر وتشاد في سنة (1895/1313) ترأس الزاوية من بعده أخوه عبد السلام السني، فاستمرت الزاوية تؤدي مهمتها العلمية في بيئة أمية تتوق إلى هذا الدور وتنظر له بتقدير كبير قد يصل إلى درجة التقديس.

والشيخ عبد السلام السني من مواليد (1867/1284 م) تلقى تعليمه على يدي والده، وارتحل إلى الجغبوب لمواصلة دراسته، ثم عاد إلى مزدة ليشترك في الجهد العلمي لزاوية السني. وقد ظلّ في رئاسة الزاوية منذ أن غادرها أخوه حتى مستهل سنة (1912/1330 م) أي في الشهور الأولى من الغزو الإيطالي

---

(1) محمد مسعود جبران، «الشيخ محمد السني مجاهداً بالسيف والقلم» مجلة البحوث التاريخية (يناير 1984) ص 77. وانظر كتاب «القبلة» لبيلاردينلي، ترجمة عبد الرحمن العجيلي، نسخة بالآلة الكاتبة، مركز جهاد الليبيين، ص 30.

(2) انظر محمد مسعود جبران، المصدر السابق، ص 83.

(3) انظر محمد الصادق عفيفي «الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي» ص 173 ـ 174.

البغيض لأرض الوطن، ففي هذه الفترة توجه لمحاربة الطليان فوافاه الأجل وهو في مدينة غريان في تلك السنة[1].

تولى إثر ذلك الشيخ أحمد السني رئاسة الزاوية بمقتضى خطاب أرسله المجاهد أحمد الشريف في الرابع عشر من صفر لذلك العام يشعر فيه أهل مزدة بتعيين أحمد السني مسؤولاً على الزاوية ويوصيهم بطاعته[2]. على أنّ الدور الذي قام به أحمد السني كان ـ فيما يبدو ـ سياسياً وعسكرياً أكثر منه علمياً وذلك نتيجة للظروف السائدة آنئذ[3].

في نطاق الترجمة لأبرز أعلام الزاوية نقف عند الشيخين عبدالله السني وابنه محمد.

عبدالله السني[4]:

ولد بسنار في السودان سنة 1215 (1800 م) ورحل إلى اليمن فالحجاز لطلب العلم، فكان من أساتذته الشيخ أحمد بن إدريس الشريف الفاسي[5]. وتأثر بزميله في الدراسة محمد بن علي الخطابي الذي أجازه إجازة علمية في تفسير البيضاوي[6] وهو الذي لقبه بالسني بدل السناري[7]، وطلب مرافقته إلى ليبيا.

---

(1) محمد مسعود جبران ـ المرجع السابق، حاشية ص 78 ومحمد سعيد القشاط «معارك الدفاع عن الجبل الغربي» ص 331.

(2) محمد سعيد القشاط «خليفة بن عسكر» طرابلس 1980، ص 362.

(3) انظر مراجع أحمد السني في «جهاد الأبطال» للطاهر الزاوي، بيروت 1973، و «القبلة» بيلاردينلي، القشاط، معارك الدفاع عن الجبل الغربي، «خليفة عسكر».

(4) انظر «معارك الدفاع عن الجبل الغربي» خليفة عسكر.

(5) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي وهدية العارفين ط (5) ج 1/186.

(6) انظر محمد مسعود جبران، المرجع السابق، ص 76. وانظر «مجموعة العبد الذليل على ربع التنزيل»، ضمن مخطوطات الأوقاف بمركز جهاد الليبيين (قيد الفهرسة).

(7) انظر محمد مسعود جبران، المرجع السابق، ص 75.

أسس بمساعدة الأهالي زوايا في مصراتة والعمامرة بمسلاته والقلعة بيفرن بالإضافة إلى زاويته هذه في مزدة وهي التي حظيت بإشرافه المباشر، ثم أسس زاوية في بني وليد سنة 1262 هـ/ 1846 م وثانية في الحرابة سنة 1266 هـ (1848) وثالثة في غدامس عام 1276/1858 م[1] ورابعة في سيناون وخامسة في متريس[2].

أما تراثه العلمي والأدبي فلم تتوفر عنه معلومات مفيدة سوى ما ذكره بعض الباحثين من أنه اطلع على مخطوط كبير يضم كثيراً من أشعار الشيخ عبدالله السني، وبينها «ملحمة طويلة يظهر فيها إخلاصه... وفي كل بيت من تلك القصيدة يشير إلى اسم سورة من سور القرآن حتى جمع أسماء سور القرآن». كقوله في شطر بيت:

«ما سوى الإخلاص في حبي لكم»

وكقوله: «سبحان من أسرى بجدك للعلا»[3].

تولى الشيخ السني الإشراف والتعليم في زاويته بمزدة، وتعدت شهرته هذه المنطقة النائية من خلال تأسيسه للزوايا السالفة الذكر، أو من خلال صلته بالعلماء والمصلحين. ومن أمثلة ذلك أنه أجاز الشيخ محمد كامل بن مصطفى مفتي طرابلس في تفسير البيضاوي وأشار إلى ذلك الشيخ محمد كامل في مجموعته[4].

وقد فارق عبدالله السني الحياة بعد سبعة وسبعين عاماً قضاها في خدمة

---

(1) المصدر نفسه ص 76 و 77، وانظر «القبلة» ص 30، و «أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر» لأحمد صدق الدجاني، طرابلس 1969 م.

(2) انظر محمد فؤاد شكري «السنوسية دين ودولة»، ص 39، وعند القشاط، المرجع السابق، ص 332 أن زاوية سيناون من إنشاء ابنه محمد.

(3) انظر محمد الطيب الأشهب (برقة العربية أمس واليوم) القاهرة 1947، ص 209.

(4) انظر محمد مسعود جبران ـ المرجع السابق ص 76، وانظر «مجموعة العبد الذليل».

الإسلام متنقلاً لا تمنعه الحدود، سائحاً في طلب العلم وتعليمه بين السودان واليمن والحجاز ومصر وليبيا. فرحمه الله وأجزل ثوابه.

محمد بن عبدالله السني[1]:

ولد في مزدة في التاسع من ذي الحجة 1268 (25 سبتمبر 1851 م) وتلقى مبادئه المعرفية الأولى على يد والده، ثم توجه إلى زاوية الجغبوب التي كان من أساتذتها فالح الظاهري، وأبو سيف البرعصي، وأحمد الطائفي، ومحمد الشريف[2].

وكانت له رحلة إلى الحجاز ومصر عاد بعدها ليواصل عمل أسرته في الإشراف على زاوية السني بعد وفاة مؤسسها. فتوسع في إنشاء الزوايا وحسَّن من آدائها بما وفر لها من تشجيع مادي وأدبي، فمن الزوايا التي أنشأها زاوية في كل من الزنتان والرجبان والجعلة وأولاد بو خير بغريان وبني زيري، كما أسس زاوية برنو في تشاد عندما رحل إليها فيما بعد[3].

ففي سنة 1313 هـ (1895 م) رشحه أستاذه محمد الخطابي للقيام بالدعوة في شمال النيجر وتشاد، فمكث هناك مشرفاً على الزوايا، وكان له

---

(1) من مراجعه: «برقة العربية أمس واليوم» الطيب الأشهب، «الحياة الأدبية في ليبيا» لطه الحاجري، «الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث» لمحمد عفيفي، و«الشعر والشعراء في ليبيا» له، و«أعلام ليبيا» للطاهر الزاوي، و«القبلة» لأبيلاردينلي تعريب عبد الرحمن العجيلي، و«السنوسية دين ودولة» لمحمد فؤاد شكري، و«معارك الجبل الغربي» للقشاط، و«حاضر العالم الإسلامي» تأليف لوتروي ستودارد وتعليق شكيب أرسلان، و«المهدي السنوسي» للطيب الأشهب. وقد استعان بكل هذه المصادر وغيرها الأستاذ محمد مسعود جبران في بحثه القيم حول «الشيخ محمد عبدالله السني، مجاهداً بالسيف والقلم» بمجلة البحوث التاريخية، يناير 1984 ص 71.

(2) محمد مسعود جبران، المرجع السابق، ص 82.

(3) راجع «معارك الدفاع عن الجبل الغربي» ص 332.

شرف الجهاد ضد الغزاة الفرنسيين في هذه البقاع، ثم عاد إلى ليبيا وقد تقدم به السن سنة 1913 ليشارك في مقاومة الاستعمار الإيطالي[1].

أدبـــه:

قرض محمد السني الشعر وأجاد في ذلك، فقد ظهرت فيما بقي من شعره ثقافة رصينة، متمثلة في جزالة الألفاظ، وجلال الفكرة، وتعبيرها عن مشاعر المسلم والمجاهد الواعي الذي يتألم لما يعاني منه أخوته المسلمون من إحن وأعاصير:

رويـدُكُـم أهـلَ الجحيـم فـإنـه	سيبدؤكم منه الذي كان من قبلُ
فينسـى فـرنسيسـاً بتـونـس أنسـه	ويحـرز كفـراً بـالجـزائـر قـد حلـوا
فتطهـر أرض طـالمـا قـد تنجسـت	بأفعالهم سيل الدماء لها غسلُ

ويستخف في أبيات أخرى بأحد المؤتمرات التي تتحدث عن السلام وتتجاهل ما يجري في العالم من وحشية المستعمرين وغطرستهم:

«لاهاي» من أين الوفاءِ وهذه	نـار الحـروب تشيـب الأطفـالا
أبـرمتُـمُ عهـدَ الـوفـاءِ وصحتُـمُ	بيـن المـلأ إن التَّـوحـشَ زالا
مـا بـالُ رومـا تنقـض العهـدَ الـذي	أبـــرمتُـــمُ وتجـــدِّدُ الأهـــوالا

وتوفي ... عبدالله السني في الثلاثينيات من هذا القرن وذلك بمدينة مزدة وأقبر ـ رحمه الله ـ إلى جوار ضريح والده[2].

---

(1) انظر محمد مسعود جبران، المرجع السابق، ص 84. ومحمد فؤاد شكري، مرجع سابق، ص 91 ومحمد القشاط «معارك الدفاع عن الجبل الغربي» ص 332.

(2) نحيل المستزيد من المعلومات حول هذه الأسرة إلى بحث الأستاذ محمد مسعود جبران السابق، فقد كانت دراسته ومصادره وتعليقاته خير موجه لصاحب هذا البحث.

خامساً: زاوية قرزة

تقع هذه الزاوية على مسافة 180 كيلو متراً جنوب شرق مزدة، بمنطقة وادي زمزم. وقد كانت في بداية أمرها بيتاً من الشعر يزار ويجدد سنوياً ثم بُني في مكانه مبنى لحفظ الكتب.

من أعلام هذه الزاوية الشيخ أبو القاسم البصير، ومحمد النعاس، والشيخ أبو بكر بن أبي القاسم أبي سيف وغيرهم. وبالرغم من أن لهذه الزاوية مكانة مرموقة لدى أولاد أبي سيف بالذات فإنها أسدت بما تحتله من مركز ممتاز في طريق القوافل خدمات جليلة للمسافرين من وإلى فزان ففيها يجد المسافر الأمن والعلم والهداية.

وأبرز ما بقي من آثار هذه الزاوية مكتبتها التي نقلت فيما أعلم إلى منطقة نسمة. ففي هذه المكتبة ما يقدر بمائة وخمسين مخطوطاً[1] بعضها من تأليف المتصلين بالزاوية وبعضها الآخر من التراث الديني واللغوي. وفي المكتبة مجموعة من الرسائل بين علماء الزاوية وغيرهم من علماء البلاد، من ذلك سبع رسائل من أحمد بن إبراهيم بن سحبان إلى أبي بكر بن أبي القاسم أبي سيف. ورسالتان منه إلى محمد بن عبد الجبار السوكني، ولا تخلو هذه الرسائل من فقه مسألة أو أدب أو دعوة إلى خير، وهي لذلك تستحق الدراسة والتحليل، ومن الوثائق المهمة في المكتبة صلح بين أهالي أولاد أبي سيف عقد سنة 1290 هـ (1874 م)، وهو يبرهن على الدور الاجتماعي التوفيقي الذي كانت تضطلع به هذه الزوايا.

وقد كان طريق الإهداء وتبادل الكتب أحد الوسائل المهمة في تنمية مقتنيات الزاوية من الكتب، ففي هذا النطاق أرسل إليها الشيخ أحمد بن سحبان، مثلاً، كتابه «سبيل الأمان من التلف في التمسك باتباع الصالحين

---

(1) انظر «أهم مراكز المخطوطات في العالم» مجلة الناشر العربي، (فبراير 1984 م)، ص 81.

السابقين من السلف» الذي فُرِغَ من نسخه في 10 من ربيع الأول 1267 (1850 م) و «انتصار القاصر في الزمن الآخر» له وبخط علي بن محمد المريض بن أبي سيف الذي نسخه سنة 1273 (1856 م) ويبدو أنه أعاد الأصل إلى صاحبه لأن ذلك كان متعارفاً عليه لديهم، كما سنرى من خلال رسالة في الخصوص بعثها ابن سحبان إلى الفقيه أبي بكر بن أبي القاسم ابن أبي سيف ومنها (وأما ما ذكرتم عن شرح سيدي ابن أبي حجرة ـ رضي الله عنه ـ . . . بعون الله نبذل جهدنا ونوصي أصحابنا، وإن اختار الله رجوعنا إلى صفاقس نرسله إلى تونس، وعلى كل حال إن شاء الله يأتيكم بعون الله. . . وتأتيكم إن شاء الله رسالة من رسائل الشيخ سيدي علي الميلي صحبة الذي أتانا بكتابكم، فإن وافقكم ما فيها من العلم فانسخوها وأرسلوها محفوظة كما أتتكم، وإن شئت غيرها زدناك والله يجعل جميع تصرف الجميع فيما يرضيه ابتغاء مرضاته).

وقد أشار ابن سحبان إلى تقاييده الموجودة في المكتبة المذكورة قبل أن يرسلها إليها واعداً بنسخها وإرسالها «وللفقير تقاييد أُبقيت في صفاقس كي ينسخوها، إن يسّر الله بمجيئها إلينا تقفوا عليها»[1].

من أعلام هذه الزاوية

أبو بكر البصير البوسيفي:

المجاهد والفقيه والزجّال الذي ضرب المثل مع جميع علماء الزوايا في جهاد الغزاة أو عدم التعاون معهم في أسوأ الأحوال، وكلهم قد رأى في الاحتلال الإيطالي منكراً يجب تغييره ولكن منهم من حاول تغييره بيده، ومن هؤلاء أبو بكر البصير البوسيفي.

فقد خاض هذا الرجل معارك 1911 ـ 1912 ضد الاستعمار الإيطالي

(1) رسالة مخطوطة بمكتبة نسمة وصورتها في مركز جهاد الليبيين بطرابلس.

رسالة من أحمد إبراهمي سحبان

إلى ابن بكر بن أبي سيف أحد أعلام زاوية قرزة.

وحضر معركة الأصابعة والشب وإشكدِه والمحروقة وتوفي في فزان، ويعلل بعض المجاهدين سبب وفاته بتأثره بسماع خبر انضمام أخيه أحمد إلى صفوف الطليان[1].

سادساً: زاوية أبي الخير

أسس الشيخ أبو الخير بن محمد اللافي الحزامي الداودي زاويته في غريان قبل سنة 1281 م (1864) لتعليم القرآن الكريم والعلم الشريف كما جاء في وثيقة وقفية حبّس فيها أشجاراً وأرضاً على هذه الزاوية. وقد تولى جماعة من أبناء المنطقة الوقف عليها كما في كتاب جمع لهذا الغرض من تأليف الأستاذ اللافي أبي الخير حفيد المؤسس[2].

ولا يقفنا الكتاب على أعلام الزاوية من الأساتذة والمقرئين ولا على طبيعة المقررات الدراسية فيها، ولكننا نعلم من الوثائق أن الشيخ المؤسس كان هو القيم بها، ثم أوكل لابنه عبد الكريم أبي الخير أن يكون شيخاً للطلبة يقرئهم القرآن الكريم والعبادات، وقيماً بشأن الزاوية. وقد تدل كتابة الوثيقة من بعض الفقهاء أنهم كانوا من أساتذة الزاوية، وفيهم محمد بن حميد الكميشي ومحمد الدعيكي وأحمد بن البشير بن الأمين الطاهر وغيرهم.

وفي بعض الوثائق ما يبين آداب القوامة لهذه الزاوية، وفيها تعظيم شأن طلبة العلم وحملة القرآن؛ لأنهم يعملون على حفظ كلام الله، وفيها توصية بالصفح عن مهاجرهم ومقيمهم، وهو ما يدل على أن هذه الزاوية كانت قبلة للمهاجرين

---

(1) انظر «معارك الدفاع عن الجبل الغربي» ص 232. ومن أزجاله المشهورة التي أوردها هذا الكتاب:

علىديننا والله لا ولينا ... احنا انهاجروا والغير بينابينا

(2) زاوية أبي الخير بعناية اللافي أبو الخير، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، سوريا 1995.

من الطلاب، وأن بها مقراً داخلياً لإيواء من بعدت إقامته عن مكان الزاوية.

ويتصل بهذه **الزوايا وأعلامها** رجال علماء كان لهم فضل إثراء الحياة الثقافية في الجبل الغربي، ولهم علاقات جيدة مع علمائها، منهم الشيخ سعيد المسعودي القاضي، والمجاهد الذي كان صديقاً للشيخ القلعاوي وأبناء منيع وغيرهم، وله معهم جلسات علمية قيمة، ومعلوم أنه عيّن في منصب القضاء من قبل المجاهد سليمان الباروني والي طرابلس من قبل الدولة العثمانية كما تنص الوثيقة التالية:

[illegible]

[illegible]

عدد
١١

الحمد لله وحده

الفاضل العلامة الشيخ سعيد افندي المسعودي وفقه الله

بناء على ما اشتهرت به من الدراية والتفنن في العلوم وممارسة قواعد الأحكام الشرعية مع حسن السيرة والصداقة للدولة العثمانية أيدها الله قد صار نصبك من طرفنا قاضيا لقضاء حرمان تحويلا من قضاء النواحي فعليك بالحكم بين الناس بالحق على الوجه المطابق للنصوص الشرعية معتمداً في ذلك على كتاب الله وسنة رسوله وأقوال علماء الدين المشهورة متعففاً في جميع أوقاتك عن أكل أموال الناس بالباطل الموجب لغضب الله وسوء السمعة والجزاء وأرجو لك من الله التوفيق في ظل دولة أمير المؤمنين الخليفة الأعظم محمد رشاد أيد الله جنوده الإسلامية تحريراً في التاسع والعشرين من صفر الخير سنة ست ثلاثين وثلاثمائة وألف هجرية الموافق ١٤ كانون اول [illegible] بقصر العزيزية

والي وقومندان طرابلس الغرب وملحقاتها

سليمان الباروني

نصّ الوثيقة

زوايا أخرى في الجبل الغربي



1 ـ زاوية السلامات



2 ـ زاوية طرميسة

وبهذا ينتهي الجزء الثاني من الحياة الثقافية في الجبل الغربي خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولكن ذلك لا يعني أن البحث قد غطّى الحياة الثقافية في الزمان والمكان المحددين، فهو لم يتناول بعض الزوايا الأخرى مثل زاوية الفقهاء، وزاوية السلامات، وزاوية طرميسة، وزاوية العميان، وزاوية الحرابة، وغريان وغيرها... ولم يتحدث عن تلك المساجد التي كانت مراكز للإشعاع العلمي، مثل مسجد أبي محمد الكباوي ومسجد سيدي خليفة الصوِّي. وأغفل ذكر علماء أجلاء مثل الشيخ بدرنة الجرساني المعروف بسعة اطلاعه واهتمامه بالكتاب، وقد كان الإغفال بسبب قلّة المعلومات الموثقة عنهم عند إعداد البحث أو لضعف صلتهم بالمراكز التعليمية المذكورة فيه.

من كتب الكناشات الأدبية في ليبيا
خلال النصف الأول من القرن العشرين

من كتب الكناشات الأدبية في ليبيا

خلال النصف الأول من القرن العشرين[1]

عَرَفَ فقهاءُ وأدباء النصف الأول من القرن العشرين ضروباً من المختارات الأدبية، يمكن تصنيفها تحت عنوان (الكشكول) أو (المجموع) أو (المنتخبات) أو (الكناشات) فهي جملة من المختارات المتنوعة في موضوعاتها ومبدعيها وأشكالها.

ومن هذه المختارات مخطوطان للشيخين عبدالله منيع وأبي القاسم القلعاوي، وقد ترجمتُ للشيخ أبي القاسم علي القلعاوي ضمن بحث عن الحياة العلمية في الجبل الغربي[2].

أما الشيخ الفقيه عبدالله فهو ابن عبد الرحمن بن امحمد بن أحمد بن عبد الواحد بن عبد القادر بن امحمد بن عبد القادر بن عبد الواحد بن إبراهيم بن منيع[3].

ولد في حدود سنة 1900 م وتلقى القرآن الكريم في حياة والده، فحفظه

---

(1) نشر بمجلة كلية الدعوة الإسلامية ـ العدد الثامن: ص 268، وقد علمت من الأستاذ علي مصطفى المصراتي وجود كناشات ليبية أخرى تستحق الدراسة والنشر.

(2) انظر ترجمته في مجلة البحوث التاريخية، السنة السادسة، العدد الأول 1984 م ص 115 ـ 117.

(3) انظر المصدر السابق ص 110 حيث نَسَبُ جدِّه امحمد.

على أكمل الوجوه في زاوية محمد العالم[1] وكان شقيقه عتيق قد توجه إلى تونس لتلقي العلم في جامع الزيتونة فلحق به، ثم عاد الأخوان إلى بلادهما مروراً بالزاوية الغربية، حيث أُكرما لنسبهما وإجادتهما في مجال حفظ القرآن الكريم.

ولم يلبث الشيخ عبدالله طويلاً في بلاده، فقد أخذه الشوق لاستكمال تعليمه بالزيتونة، فكان يتلقى في جامعها تعليمه في أثناء الدراسة، فإذا تعطلت الدراسة اشتغل بتعليم القرآن الكريم لأبناء المسلمين. ورجع إلى بلاده شاباً قد ناهز الثلاثين من عمره، فتزوج وأنجب بنتاً، ولكن سنوات الشدة التي كانت تمر بالبلاد في هذه الآونة من الثلاثينيات، وغطرسة واستحكام المستعمر البغيض قد دعت الفقيه إلى مغادرة بلاده مرة ثالثة قاصداً تونس، ولم يكن ذلك بدافع الاستزادة من العلم هذه المرة بقدر ما كان بدافع الحاجة إلى الاشتغال بتعليم القرآن الكريم لتوفير حياة كريمة مقابل ذلك.

وقد عاش من رحلته التونسية الثالثة غانماً ممتناً بمقياس ذلك الوقت فاشتغل بالتدريس بطلب من القرى القريبة، ومنها قرية أولاد منصور وقرية (أهل الوادي) بالخلائفة، وزاوية العالم نفسها. وفي قرية أولاد منصور توفيت زوجته الأولى، فتزوج بعدها بأخرى أنجب منها وحيده من الأبناء فضيلة الأستاذ عتيق منيع مع بنتين أخريين.

ثم استقرّ به المقام في (زاوية العالم) إلى تاريخ وفاته في حدود عام 1945 م بالمرض المعروف لدى المواطنين بالسمهود[2] وكان هذا المرض قد انتشر بعد الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها وأودى بحياة عدد كبير من الناس.

عرف عن الشيخ عبدالله منيع حبه الشديد للعلم، فقد عاش حياته بين

---

(1) هذه المعلومات وما بعدها من نبذة أملاها ابن أخيه فضيلة الأستاذ علي محمد منيع يوم الثلاثاء 90/10/9 م مع مصادر شفهية.

(2) هو مرض التيفود.

التحصيل والتعليم، كما عرف بمحافظته على فرائضه الدينية، والتحريض عليها، وكان من المقيمين لصلاة الليل الذاكرين الله كثيراً.

وإلى جانب تعليم الأطفال كان حريصاً على تثقيف عوام الناس، فقد خصص لهم دروساً فقهية غالباً بعد فراغه من عمله، فأفاد منها غير قليل من الراشدين، ويُذْكَرُ للشيخ ما اشتهر به بين الناس من اللين والمرحمة، فلم تُعرف عنه إساءة ولا خلاف مع أحد، وكان جميل الخط متأثراً فيه برسم المشارقة نظراً لدراسة أفراد من أسرته بالأزهر، فكان مشرقي الخط، على عكس معلمي الصبيان في عصره ممن توارثوا الخط المغربي في رسمه ونقطه وترتيب حروفه.

شعــــره:

ذكر ولده الأستاذ الفاضل عتيق منيع أنه روى عن الحاج علي الهرامة ما يفيد نسبة البيت التالي إلى والده:

إذا احتـاج الكـريـم إلـى اللئيـم ... فقد طاب الرحيل إلى الجحيم

وفي كشكوله مواضع تثبت نسبة بعض المنظومات إلى المؤلف بوضوح، كقوله: وقد فتح الله عليَّ بالنظم في أمور الدين فقلت:

أمـورُ ديننـا القـويـم أربعـة ... نَظَمْتُها في ضمن بيتٍ فاسمَعَه

صِحَّـةُ عَقـد والـوفـا بـالعهـد ... والصِّـدقُ بـالقصـدِ اجتناب الحدّ

وقد أتبع ذلك بشرح البيتين شرحاً موجزاً.

وقال في موضع آخر: ومما فتح الله عليَّ بنظمه من هذا النوع (ويعني ضبط القواعد النحوية والصرفية):

صحيحٌ، مثالٌ، ناقصٌ، ومضاعفٌ ... لفيـفٌ بقسميـه ومهمـوزٌ أجـوفُ

بين الشيخ القلعاوي والشيخ عبدالله منيع :

يكبر الشيخ القلعاوي صاحب الترجمة بحوالي عشرين سنة، وهو معدود في أساتذته الذين أخذ عنهم علوم: التوحيد، والفقه، والعربية، وقد تعاصرا في عهد الاحتلال الإيطالي، وأبيا العمل في وظائف الاستعمار برغم حاجتهما إلى المال، ورغبة الإدارة الإيطالية في خدمة أمثالهما من المثقفين.

توفي الشيخ عبدالله فأوصى قبل وفاته أن يصلي عليه أستاذه القلعاوي، فانتظر المصلون حتى قدم الرجل من بلده، وعند وصوله بكى وكانت عادته أن يدعو الناس إلى الصبر، فقيل له في ذلك فقال: (إنني لا أبكي عليه، فهو في جوار ربه مع الشهداء والصالحين ولكنني أبكي على نفسي وقد صرت بعده غريباً).

عُرف الرجلان ببغضهما للغزاة المحتلين، وفي مختاراتهما إشارات نستشف منها ذلك، فقد اختار الشيخ عبدالله تعبيراً عن ضيقه بالبلاد عندما أحكم الاستعماريون السيطرة عليها قول الشاعر:

إذا ما ضاق صدرك من بلاد ... ترحَّلْ طالباً بلداً سواها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرض ... ونفسك لم تجد نفساً سواها

وطبق ذلك في حياته كما مرَّ بنا آنفاً، ونصح باتخاذ الأحرار قدوة في حياة الإنسان، واختار لذلك قول الشاعر:

تمسك إن ظفرت بذيل حرٍّ ... فإن الحرَّ في الدنيا قليل

أما الشيخ أبو القاسم القلعاوي فيذكر في مختاراته قصيدة تُسمى بشكاية الحنبيهي، مفعمة بمرارة الشكوى لله تعالى، ومنها قوله:

أشكو إليك شكاية الضعفاء ... يا موجد السراء والضراء
أشكو إليك بحسرة وكآبة ... وألحُّ في الشكوى مع الفقراء

وعلّق الشيخ بعد نهايتها بقوله: (واسأل الله تعالى بجاه ناظمها ومن توسل

بهم فيها حسن العناية لنا ولإخواننا ومشايخنا وأحبائنا وأبنائنا وآبائنا ولجميع المسلمين وأن يحفظنا بهم من كيد أعداء الدين بحرمة خاتم المرسلين). وهي إشارة تشمل عدو الدين الذي يعاني منه المذكورون الأمرِّين.

وقد اختار الشيخ فيما اختار قصيدة بعنوان (ذكر السؤال العجيب في الرد على أهل الصليب) للشيخ أحمد المليجي، وهي قصيدة كافية في الردِّ على محاولات التنصير الموجودة والمتوقعة. فمما جاء في مقدمة هذه القصيدة قوله:

أعُبَّاد عيسى لَنَا عِنْدَكُمْ ... سؤالٌ عَجِيبٌ فَهَلْ من جَوَاب

إذا كان عيسى على زَعْمِكُمْ ... إلهاً عزيزاً (قوياً) مُهَاب

فكيف اعتقدتُمْ بأنَّ اليهودَ ... أذَاقُوه بالصَّلبِ مُرَّ العَذَاب

واختار قصيدة أخرى للناظم المذكور عنوانها «الجنون فنون» تقول مقدمتها:

قومُ عيسى قد تَغَالوا ... فيه جهلاً وضلالا

حيثُ قالوا مُذْ أَتَاهُمْ ... أنتَ ربٌ قال: لا، لا

وفي ثنايا المختارات أدعيةٌ بالنصر على عبدة الصَّليب كتلك التي جاءت في رسالة ابن الخطيب على لسان الغني بالله.

* * *

مختارات الشيخ أبي القاسم القلعاوي

تقع مختارات الشيخ أبي القاسم في حوالي خمسين ورقة مكتوبة الصفحتين باستثناء الأخيرة، وحجم الورقة كبير، وعدد أسطرها في المتوسط اثنان وعشرون سطراً، وخطها أقرب إلى الخط الأندلسي منه إلى الخط المغربي المعروف. ولم يخف الشيخ مصادره، فقد ذكر منها:

1 ـ نفح الطيب، للمقري التلمساني.

2 ـ خزانة الأدب، لابن حجة الحموي.

3 ـ ثمرات الأوراق، للحموي.

4 ـ السفينة القادرية، لعبد القادر الجيلاني.

5 ـ عقيدة محمد بن يوسف الحسني الخطابي المسماة «إرشاد المريد لتحقيق عقائد التوحيد» وهي مصادر ما كان بعضها من المظنون وجوده في مثل هذه البيئة الريفية.

انتهى الشيخ أبو القاسم من كتابة مختاراته أيام الحرب العالمية الثانية، وبالتحديد في التاسع من شوال 1359 هـ الموافق 1940، وأهدى عمله لأحد أصدقائه المخلصين، وهو ما يفهم من قوله:

«انتهى المراد، وصلى الله على سراج الوجود وشفيع العباد سيدنا محمد أفضل من ساد وعلى آله الأطواد، وصحبه الأمجاد، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المعاد، على يد ناقلها من محلها لمقام ابنه الفقيه علي بن محمد الهرامة الخليفي، أسير المساوي عبد ربه أبي القاسم بن علي القلعاوي لطف الله به وبالمسلمين آمين. بتاريخ التاسع من شوال سنة 1359 هـ».

ولكنه أضاف إليها أشياء أخرى، أغلبها من نفح الطيب والسفينة القادرية وغيرهما، ثم وضع تاريخاً خاتماً لانتهاء العمل بكامله فقال: «وكان الفراغ من نقله من أماكنه يوم الخميس لدى الزوال الموافق. . ثلاثة وعشرين من محرم الحرام فاتح سنة ستين بعد ألف وثلاثةِ مِنَ المئتين من هجرة سراج الكونين».

مقتطفات من اختيارات القلعاوي

ـ 1 ـ

قال في ثمرات الأوراق: يقال من تَخَتَّمَ بالعقيق، وقرأ لأبي عمرو، وحفظ قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف وهي هذه:

لاَ تَعْـذِليـه فـإنَّ العَـذْلَ يُـوجِعُـهُ ... قـد قلـت حقـاً ولكـنْ ليس يسمعُـهُ

جـاوزتِ فـي لـومـه حـداً أضـرَّ بِـهِ ... مـن حيـثُ قَـدرتِ أنَّ اللَّـوْمَ ينفعُـهُ

فاستعملي الرِّفْقَ في تأديبه بدلاً ... من عُنْفِهِ فهو مُضْنَى القَلْبِ مُوجَعُهُ

قـد كـان مضطلعـاً بـاللين يحملـه ... فظلعـت بخطـوب البيـن أظلعـهُ

يكفيـهِ مـن لـوعـةِ التنفيـذ أنَّ لَـهُ ... مـن النَّـوى كـلَّ يـومٍ مـا يُـرَوِّعُـهُ

مَـا آبَ مـن سَفَـرٍ إلاّ وأزعجـه ... رَأْيٌ إلـى سفـرٍ بـالـرَّغـم يَتْبَعُـهُ

كَـأنَّمـا هـو فـي حِـلٍّ ومـرتحـلٍ ... مُـوَكَّـلٌ بفضـاءِ الأرضِ يَـذْرَعُـهُ

إذا الـزمـاع أراه بـالـرحيـل غنـى ... ولو إلى السد أضحى وهو يزمعه

ـ 2 ـ

وكتب لسان الدين بن الخطيب إلى رسول الله ﷺ على لسان مخدومه السلطان الغني بالله محمد بن السلطان أبي الحجاج رحم الله تعالى الجميع ما صورته:

دعـاكَ بـأقْصَـى المغـربيـن غـريـبُ   وأنــتَ علـى بُعْـدِ المـزارِ قـريـبُ
مُـدِلٌّ بـأسبـاب الـرَّجـاءِ وَطَـرْفُـهُ   غضيضٌ على حُكْمِ الحياءِ مريبُ
يكلّـفُ قـرصَ البـدرِ حمـلَ تحيـةٍ   إذا ما هَوَى والشمسُ حينَ تَغِيبُ
لتـرجـع مـن تلـكَ المعـالـمِ غـدوة   وقـد ذاع مـن رَدِّ التحيـةِ طيـبُ[1]

ـ 3 ـ

ومن الاستغاثات:

يا ربِّ هيىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً   واجعلْ معونَتَكَ الحُسْنَى لَنَا مَدَداً
ولا تَكِلْنَـا إلـى تَـدْبيـرِ أَنْفُسِنَـا   فالنفسُ تَعْجَزُ عن إصلاحِ ما فَسَدا
أنتَ العليمُ وقد وَجَّهْتُ يا أملي   إلى رَجَائِكَ وَجْهَاً سَائلاً ويداً
ولِلـرَّجَـاءِ ثَـوابٌ أَنْـتَ تَعْلَمُـهُ   فاجعلْ ثوابي دوامَ السِّترِ لي أبداً

فضيلة الشيخ أبو القاسم القلعاوي
صاحب الكناش الأول

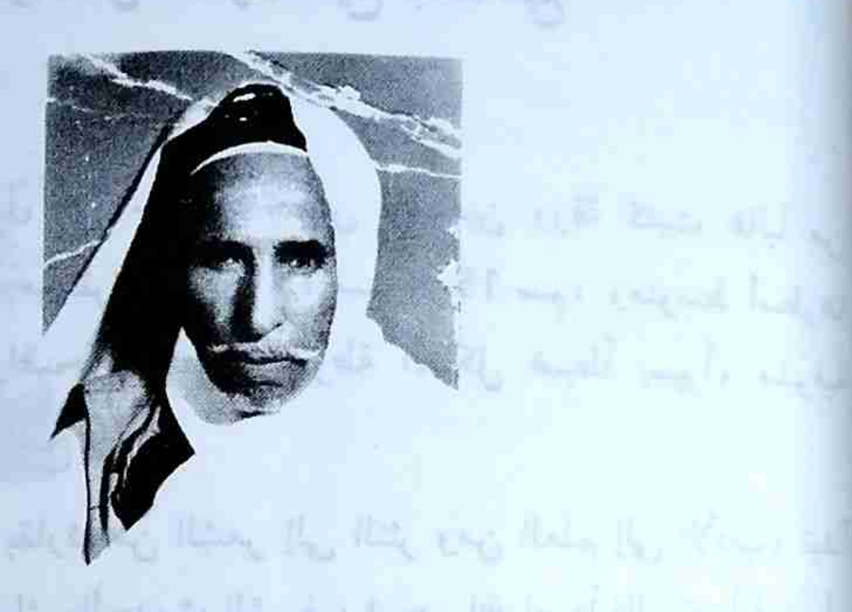




الفقيه عبد الله عبد الرحمن منيع

(1) انظر الديوان 1/157.

الحاج علي الهرامة صديق الشيخين القلعاوي ومنيع وفي مكتبته وجدت المخطوطتين، وإليه أهدى الشيخ القلعاوي مختاراته



- 4 -

ومن مختاراته:

إليكَ فَأنْتَ الحاكمُ العالمُ الشَّكوى	وأَنْتَ الذي تَدْرِي السرائرَ والنَّجْوَى
سألتكَ بالكُتُبِ التي مِنْكَ أُنزلتْ	وبالمرسلين المنقذين من البلوى
وبالعلماءِ العاملين بعلمهم	وبالأولياء السالمين من الدعوى
تُقَيِّضُ لي رزقاً حلالاً بلا عَنَا	وترزقُني العلمَ الشَّريفَ مع التقوى
وتحفظني من شرِّ خلقك والزِّنى	ومن شرِّ شيطانٍ ونفسٍ وما تهوى

مختارات من كشكول الشيخ عبدالله منيع

يقع هذا الكشكول في حوالي خمس وسبعين ورقة كتبت غالباً من صفحتيها اللتين لا تزيد مسطرتهما عن 13 سم × 15 سم، ومتوسط أسطرها حوالي تسعة أسطر، واضحة الخط مضبوطة الشكل ضبطاً يسيراً، مشرقية الرسم، مجهولة تاريخ النسخ.

والكشكول ينتقل بقارئه من الشعر إلى النثر ومن العلم إلى الأدب، تبدأ صفحته الأولى بعد التمليك بالحديث الشريف «رحم الله امرءاً قال خيراً فغنم أو سكت فسلم». وقد رأيت أمام هذا الكم الهائل من الاختيارات العلمية والأدبية ـ على اختصارها ـ أن أقتصر منها على نماذج شعرية تظهر سلامة ذوق جامعها، وحسن اختياره، مؤجلاً تحقيق مجموعها إلى مناسبة أخرى، إن شاء الله تعالى، وفي ذلك التحقيق تتوجب نسبة الأشعار إلى قائليها، وتوجيه القارىء إلى روايات أخرى قد تكون مخالفة لما في هذه المختارات.

نماذج من مخطوطة

عبد الله بن منيع


الاشكال الهوائية

الاشكال المائية

الاشكال الترابية

تسكين بزدح

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده والصلاة
والسلام على رسوله
اعلم ان حقيقة الحمد هو
المدح بكل كمال لله تعالى
لان الكمال ان كان قديما
فهو وصفه وان كان
حادثا فهو فعله وحقيقة
هو لا تعصي الله ابدا بنعمة
انعم بها عليك وحقيقة
الصلاة

الاسم والجواب باسم الملكين والخارج
باسم المالك من الاولياء بحساب هذه
الحروف وتطرح كل جملة تسعا تسعا
فان بقي لكل بالفرد فالاقل يغلب
ويموت الاكثر من الزوجين قبل صاحبه
وان لكل زوجا فالاقل هو الغالب
عددا وان بقي لواحد بالفرد وللاخر
بالزوج فالاكثر هو الغالب
وان استويا في الزوج فالمطلوب
للكل هو الغالب وفي الفرد الطالب
هو الغالب وهذه الابيات التي وعدنا
بذكرها سنة في الصحيفة الثانية
وبالله التوفيق

نماذج من مختارات الشيخ عبدالله منيع

- 1 -

يـا نـاطـح الجبـل العـالـي ليكلمـه   أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

-2-

إذا رُمْتَ في القاموس كشفاً للفظةٍ   فـآخـرهـا للبـاب والبـدءُ للفصـل

ولا تعتبـرْ فـي بـدئهـا وأخيـرهـا   مـزيـداً ولكـنّ اعتبـارك لـلأصـل

-3-

قال جرير:

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً   تُصبه على رغمٍ مكايدُ ما صنع

-4-

إذا مـا المـرءُ لـم يحفـظ ثـلاثـاً   فبِعـه ولـو بكَـفٍّ مـن رمـاد

وفـاءً للصـديـق وبـذل مـال   وكتمـان السـرائـر فـي الفـؤاد

فريدة إمساكية مطلقة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصلياً على	محمد وآله ومن تلا
وبعدُ فالعلم بعلم الحال	فرضٌ على النساء والرجال
فَهَاكَ منّي درةً لم تُثْقَبِ	وتُحْفَةً فَاقَتْ مُتُونَ الأَدَبِ
فَإِنْ تُرِدْ معرفةَ الأوقاتِ	وَزَمَنَ الإمساكِ والصّلاةِ
فاجعلْ أساسَ ذا وَرَتِّبْ عملك	على طُلوعِ الشَّمسِ في أُفقِ الفَلَكْ
فهي الأساسُ في هذا الخصوص	فابنِ عليه تظفرْ بالنصوصِ
الظهر نصفُ القوس ثم زد بلا	توقف للعصر ربعاً مسجلاً[1]
فالظهر نصف الليل[2] دق بامتثال	ونصف ما بين الشروق والزوال
أي نصف ما بين طلوع القرص	إلى زوال العصر فز بالنص
ولا يقولون بعصر ثان	خلافاً لابن ثابت النعمان
فَزِدْ ساعاتِ نصفِ قوسِ الظُّهر	عليه دائماً تفز بالعصر
وبذهابِ الشَّفَقِ المبيضّ	(لدى النعمان للعشاء فاقض)
وقسِّم الليل أقساماً سبعة	واعتبر الستة إلاّ سُبعه[3]

1) قال في الهامش: أي مطلقاً.

2) كذا في الأصل: ولعل المراد اليوم.

3) في بعض أبيات هذه القصيدة أوراق مكسورة لا تخطر على القارىء وقد تركتها على حالها حفاظاً على النص المكتوب.

تجدْ طلوعَ الفجرِ الصادقِ بدا   وذلك الإمساك شرعاً أبدا

وينبغي التمكين للجماعه   تقهقراً ولو بثُلثِ ساعه

إذا تمسكتَ بهذا القياس   تفز بعين الأصل والأساس

ناظمها المعروف بالقصور   العاجز الشهير بقدور

والحمد لله على الإتمام   والشكر لله على الدوام

-6-

قلت :

يختلفُ القوس بحسَب النُّقَط   فباختلافه يختلف الوسط

قاعدة الكل طلوع القرص   فابن عليه واعملن بالنص

ولذ بنظمنا أن كنت تستبين   واحفظه يحفظك إله العالمين

-7-

بثلاثةٍ كَفَرَ الفلاسفةُ العدا   إذ أنكروها وهي حقٌّ مثبته

عِلْمٌ بجُزْئيٍّ حدوثُ عَوَالِمِ   حَشْرٌ لأجْسَادٍ وكانتْ ميته

-8-

الصَّبر كالصَّبر مُرٌّ في مذاقته   لكنْ عَواقِبُهُ أَحْلَى من العَسَلِ

-9-

تحمل عظيمَ الذَّنبِ مِمَّنْ تُحِبُّهُ   وإنْ كُنْتَ مظلوماً فقل أنا ظالمُ

-10-

قَالتْ طرقتَ بيوتَ الحيِّ في غَسَقٍ   بمـا اهتـديـتَ إلينـا قلـت بـالقمـرِ
تَبَسَّمَتْ فاستنارَ البيتُ فاستترتْ   عن اللواحظِ في جنحٍ من الشَّعَرِ

-11-

مسألة طبية:

إذا شئـتَ أن تحيـا سعيـداً مُنَعَّمَـا   فكُـلْ مـن طعـامٍ تشتهيـهِ قليـلا
كمـا قـالَ بقـراطُ الحكيـمُ وغيـرُهُ   إذا قَـلَّ أكـلُ المـرءِ عـاشَ طـويـلا

-12-

كُـلُّ مـن تلقـاهُ يَشْكُـو دَهْـرَهُ   ليـت شعـرِي هـذه الـدنيـا لِمَـنْ؟

-13-

غيره توحيد:

عبـاراتُنَـا شَتَّـى وحُسْنُـكَ واحـدُ   وَكُـلٌّ إلـى ذاك الجمـالِ يُشيـرُ

-14-

يـا مُحْـرِقـاً بـالنـار قلـب محبـه   مَهْـلاً فـإنَّ مـدامعـي تُطْفِيـهِ
واحرقْ بها جَسَدِي وكلَّ جوارحي   واحـذرْ علـى قلبـي فـإنَّـكَ فيـه

-15-

سَهَـرِي لتنقيـحِ العُلـومِ ألَـذُّ لِـي   مـن طيـبِ غـانيـةٍ وطيـب عنـاق

-16-

التسبب :

ألـم تـر أن الله أوحـى لمـريـم فهزّي إليك الجذع يَسَّاقطُ الرُّطَبْ

ولو شاءَ أدنى الجذعَ من غير هزِّهِ إليهـا ولكـنْ كـلُّ شـيء لـه سبب

-17-

إذا مـا ضـاقَ صَـدْرُكَ مـن بـلادٍ تَـرَحَّـل طـالبـاً بلـداً سـواهـا

فـإنَّـكَ واجـدٌ أرضـاً بـأرض ونفسـك لـم تجـدْ نفسـاً سـواهـا

-18-

تشطير :

(بالله يا ظبيات القاع قلن لنا) قولاً يُزِلْ حيرتي عن رَبَّةِ الحور

بالشعب بالشيح بالأطلال أُنشدكم (ليـلاي منكـن أم ليلـى مـن البشـر)

-19-

ولو سُئِلَ الناس الترابَ لأوشكوا إذا قيـل هـاتـوا أن يَمَلُّـوا ويَمْنَعُوا

-20-

أ ـ كفـى بـالمـرء عيبـاً أنْ تـراه لَـهُ وجـهٌ وليـس لـه لسـانُ

-21-

ب - وفي النَّفْسِ حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطابُ

-22-

من قول أبي النجم:

تمنَّى ابنتايَ أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

فقوما وقولا بالذي تعرفانِهِ ولا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعر

إلى الحول ثم اسمُ السَّلامِ عليكما ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذر

-23-

(ضرب الأخماس في الأسداس):

وضرب الأخماس في الأسداس جهاته الست مع الحواس

كناية عن اجتماع الفكر لنظرٍ فيما يريد يجري

-24-

لا يُغُرَّنْكَ من المرءِ قَمِيصٌ رقَّعَه أو إزار فوقَ عظمِ السَّاق منه رَفَعَهْ

أو جبينٌ لاح فيه أثر قد خلعه أرِهِ الدِّرْهَمَ تعرفْ حُبَّه أَوْ وَرَعَهْ

-25-

واعلمْ بأنَّكَ إن طَلَبْتَ مُهَذَّباً رُمْتَ الشَّطَطْ

من ذا الذي ما ساءَ قَطْ ومن له الحُسْنَى فقط

محمد الهادي الذي عليه جبريل هبط

-26-

يموتُ الفتى من عثرةٍ من لسانِهِ وليس يموتُ المرءُ من عثرة الرِّجلِ
فعثـرتُـهُ بـالقـولِ تُـوجـبُ قتلـهُ وعثـرتُـهُ بـالـرِّجـل تبـرأ علـى مهـل

-27-

تَفَكَّر جميلي فيك مُذ كُنتَ نطفةً ولا تَنْسَ تصويري لِشَخْصِك في الحشا
وسَلِّـم إلـيَّ الأمـرَ واعلـمْ بـأننـي أُصـرِّف أحكـامـي وأفعـل مـا أشـا
إذا جـاء مـوسـى وألقـى العصـا فقــد بطــلَ السِّحْــرُ والســاحــرُ

-29-

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

ولـولا الشِّعـرُ بـالعلمـاءِ يُـزْرِي لكنــتُ اليــومَ أَشْعَــرَ مــن لبيــد

-30-

وقال:

ولـدتـكَ أمُّـكَ بـاكيـاً مستصـرخـاً والناسُ حولك يضحكون سروراً
فاجهدْ لنفسك أن تكونَ إذا بكوا في يومِ موتك ضاحكاً مسروراً

-31-

وله:

علـيَّ ثيـابٌ لـو تبـاعُ جميعُهَـا بفلسٍ لكـانَ الفلـسُ فيهن أكثرا

وفيهـن نفـسٌ لـو تقـاسُ بمثلِهَـا جميعُ الـورى كـانـتْ أَجَلَّ وأكبـرا

-32-

إذا لم يكنْ في السمعِ مني تصاونٌ وفي بصري غضٌ وفي منطقي صَمتُ

فحظي إذاً من صومي الجوعُ والظمأ وإن قلت إني صمتُ يوماً فما صمتُ

-33-

أتـركْ سـؤالاً لا يضـرُّكَ تـركُـهُ فلـربمـا قـد سـاءَ مـا أَبـداهُ

وإذا هنـالـك مشـربٌ لا تسـألـن مـن أَيْـنَ سـال ومـا جـرى مجراه

-34-

وفـي خمـسٍ تـوقَّ المـاءَ حتمـا فتلـك الخمـسُ مُجْلِبـةُ السِّقَـامِ

بُعَيْـدَ الأكـلِ، حمـامٌ، جمـاعٌ حيـاءٌ، ثـم صحـو مـن منـام

-35-

ثمـانيـةٌ تجـري علـى المـرءِ دائمـاً وكـلُّ امـرىءٍ لا بـد يلقـى الثمـانيـه

حيـاةٌ ومـوتٌ واجتمـاعٌ وفـرقـة سـرورٌ وحـزنٌ ثـم سقـم وعـافيـه

-36-

على قَدْرِ عِلْمِ المرءِ يعظُمُ خوفُهُ فمـا عـالِـمٌ إلاَّ مـن الله خـائـفُ

-37-

تَعْصِي الإلـهَ وأنْـتَ تَـزْعُـمُ حُبَّـهُ هـذا وربِّـي فـي القيـاس بـديعُ
لـو كـانَ حُبُّـكَ صـادِقـاً لأطعتَـهُ إن المحـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مطيـعُ

- 38 -

إذا ساءَ فعلُ المرءِ ساءتْ ظُنُونُهُ وصـدَّق مـا يعتـادُه بـالتـوهُّـم

-39-

نهـى بقـراطُ عـن نـوم العشَـايَـا وإدخـالِ الخفيـفِ علـى الثَّقيـلِ

-40-

حقوق الضيف :

للضيف عشرُ خصالٍ من يقومُ بها وَفَّى وإلاَّ يكونُ الضيفُ مُنْبخسَا
رَحِّـبْ بـه أولاً عنـد القـدوم لـك إن البشـاشـةَ يُطْفِـي نـورُهـا العبسا
عَجِّـلْ لَـهُ بـالفـراشِ عنـد مَجْلِسِـه إذ الفـراشُ يقـي أثـوابَـهُ الـدنسا
اجْلِـسْ بجـانِبِـهِ لكـي تُحَـدِّثَـهُ إن المضيـفَ إذا حَـدثتـه أنِسَـا
لا تشكـونَّ لـه مـن نعمـةٍ قصـرتْ لا تشكـونَّ لـه قـلاًّ ولا فَلَسَـا
إن كـانَ شيخـاً كبيـراً مسَّـه الهـرمُ فاصنعْ له اللّين لا تصنعْ له اليبسا
إن كـان فصـلَ رَبيـعٍ أعـلِ منـزلـه أو كـان وقـتَ شتـاءِ أوقـد القبسا
إن المطـايـا لهـا حـقٌّ لصـاحبهـا لا تكرم الضيفَ حتى تكرَم الفرسا

-41-

ذم الخمول:

لا تَقْعُدَنَّ عن اكتسابِ فضيلةٍ أبداً وإن أدّتْ إلى الإعدام

جَهلُ الفتى عارٌ عليه لذاتهِ وخمولُهُ عارٌ على الأيام

-42-

فلو كانتْ الدنيا جزاءً لمحسنٍ إذاً لم يكنْ فيها معاشٌ لظالم

لقد جَاعَ فيها الأنبياءُ كرامةً وقد شبعت فيها بطون البهائم

-43-

تمسكْ إن ظَفِرْتَ بذيلِ حُرّ فإنَّ الحُرَّ في الدنيا قليلُ

-44-

سعادةُ المرءِ في خمسٍ قد اجتمعت فلاحُ جيرانِهِ والبِرُّ في ولده

وزوجةٍ حَسُنت أخلاقها وكذا خلٌّ أمين ورزقٌ طاب في بلده

-45-

عاد رجل من الأفاضل مريضاً من الأفاضل، فقال العائد:

إن بيتاً أنت ساكنه غيرُ محتاجٍ إلى السُرُجِ

فقال المريض:

ومريضاً أنت زائرُهُ قد أتاهُ الله بالفرجِ

-46-

ولا تمنـــع كتـــابـــاً مستعـــاراً فـــإنَّ البخـــل لـــلإنســـان عـــارُ
ألـــم تسمـــغْ حـــديثـــاً عـــن رواةٍ جـــزاءُ البخـــل عنـــد الله نـــار

-47-

والمـرءُ تلقـاه مضيـاعـاً لِفُـرْصتِـهِ حتـى إذا فـات أمـرٌ عـاتـبَ القَـدَرا

-48-

شـاور سـواك إذا نَـابَتْـك نـائبـةٌ يومـاً وإن كنت من أهلِ المشوراتِ
فـالعيـنُ تنظـر مـا منهـا دنـا ونـأى ولا تـــرى نفسهـــا إلاَّ بمــــرآة

❋ ❋ ❋

وبعد، فهذان نصان ضمن نصوص تبين الثقافة الأخلاقية والعلمية السائدة خلال القرنين الماضيين وهي كفيلة بكشف النقاب عن جوانب مهمة من تاريخنا الثقافي، أقدمها إلى القراء آملاً مواصلة العمل من أجل إبراز هذا الجانب المضيء من تاريخنا المجيد.

الملحـــق

ثبت بمحتويات مختارات القلعاوي:

1 ـ قصيدة حول بعض علامات خروج الإمام المهدي لفالح البدوي.

2 ـ قصيدة لابن مرزوق التلمساني.

3 ـ شكاية الجنبيهي (قصيدة).

4 ـ بائية الجنبيهي (قصيدة).

5 ـ عينية في التوسل (قصيدة).

6 ـ قصيدة للأديب إبراهيم بن جابر الأندلسي في التورية بسور القرآن الكريم.

7 ـ إرشاد المريد لتحقيق عقائد التوحيد لمحمد يوسف الحسني الخطابي.

8 ـ قصيدة في الرد على أهل الصليب لأحمد علي المليجي.

9 ـ قصيدة أخرى له بعنوان (الجنون فنون).

10 ـ أرجوزة تغريد الصادح للحموني.

11 ـ قصيدة لابن زريق.

12 ـ وصية لسان الدين بن الخطيب لأولاده.

13 ـ من نثر لسان الدين وشعره رسالة عن السلطان أبي الحجاج يوسف.

14 ـ قصيدة بائية ونثر على لسان الغني بالله إلى رسول الله ﷺ.

15 ـ نونية لابن الجياب الأندلسي في التوسل برسول الله ﷺ.

16 ـ أبيات حائية للأديب المذكور.

17 ـ أبيات ميمية له.

18 ـ عينية له.

19 ـ ميمية له.

20 ـ هائية له.

21 ـ هائية لأبي زيد الفازازي.

22 ـ نونية للفازازي.

23 ـ رائية له.

24 ـ عينية له.

25 ـ همزية له.

26 ـ كافية له.

27 ـ هائية له.

28 ـ لامية له.

29 ـ سينية له.

30 ـ لامية له.

31 ـ نونية له.

32 ـ هائية لابن العريف في المديح النبوي.

33 ـ دالية لابن خاتمة الأندلسي.

34 ـ تسديس ختم به المقري نفح الطيب وهو ليوسف المنتشاقري الأندلسي.

35 ـ استغاثات ودعاوى مستجابة (نظم) بعضه نقلاً عن السيوطي ومحمد الكبرى والشيخ الإسقاطي وعبد القادر الجيلاني.

ب) ثبت بمحتويات كشكول ابن منيع:

1 ـ سورة الفاتحة.

2 ـ حقيقة الحمد والصلاة.

3 ـ أبيات شعرية لها صلة بحروف ورموز متقدمة.

4 ـ قاعدة حساب حروف علم النسيم.

5 ـ من حكم ابن عطاء الله.

6 ـ أوراد وأدعية.

7 ـ بيتان من أشعار الحكمة.

8 ـ ختم القرآن الكريم وقضاء الحوائج.

9 ـ من كتاب الفوائد (شعر).

10 ـ عود للأدعية في أيام معينة.

11 ـ كيف نستعمل القاموس المحيط؟.

12 ـ شاهد نحوي من أقوال جرير.

13 ـ غزل.

14 ـ شاهد نحوي من أقوال جرير.

15 ـ حكم شعرية وفيها شاهد نحوي.

16 ـ فريدة إمساكية مطلقة من الشعر، تحتوي على مواقيت الصلاة.

17 ـ إمساكية قرآنية.

18 ـ بمَ كُفِّر الفلاسفة؟ (نظم).

19 ـ حكمة.

20 ـ توحيد (نظم).

21 ـ في المحبة.

22 ـ شعر.

23 ـ مسألة طبية.

24 ـ شعر.

25 ـ شعر في التوحيد.

26 ـ الحرارة والبرودة.

27 ـ شعر.

28 ـ أسماء المدينة.

29 ـ فريدة فيمن تباح فيهم الغيبة.

30 ـ ما كتب على قبر أبي حنيفة.

31 ـ جوهرة في وجع الضرس (شعر).

32 ـ إذا سئلت عما لا تعلم (نظم).

33 ـ حكمة.

34 ـ نظم في أمور الدين للمؤلف.

35 ـ أُحجية.

36 ـ الخصوص والعموم والسلب والعموم.

37 ـ نظم.

38 ـ أمثلة على المنطق.

39 ـ مشتملات القرآن.

40 ـ نظم.

41 ـ تقليم الأظافر.

42 ـ الدرهم الطبي.

43 ـ حكمة السبب (نظم).

44 ـ شعر.

45 ـ جموع القلة.

46 ـ عمر بن عبد العزيز يدفن حية.

47 ـ من شعر أبي النجم.

48 ـ نظم في النحو.

49 ـ اللدغ واللسع.

50 ـ المسمى بالقبيح والحسن من أعضاء الإنسان.

51 ـ الفرق بين الكوع والبوع.

76 ـ شعر .

77 ـ أسماء الزمان والمكان .

78 ـ شعر في الحكمة .

79 ـ شعر في آل البيت وأصدق ما قاله شعراء العرب .

80 ـ كف الطفل ـ وأصناف الأحباب .

81 ـ الضيف وخصاله ـ وأسماء الشهور في الجاهلية .

82 ـ شعر في الوصايا .

83 ـ تركيب حاتم الغزالي .

84 ـ مسألة من المذهب الحنفي .

85 ـ الجنة تحت ظلال السيوف (حديث نبوي) .

86 ـ حديث قول الزور .

87 ـ وصايا شعرية .

88 ـ صلاة الحاجة ـ ثم بتر كثير وانقطاع .

89 ـ شعر في الدنيا .

90 ـ شعر .

91 ـ ابن غصن يخاطب بعض الملوك .

92 ـ في إخراج الضمير .

93 ـ فلك .

94 ـ شعر .

95 ـ صور الأشكال الهندية والعادية الأرقام ونظمها .

96 ـ شعر .

97 ـ في معرفة الساعة السعيدة والنحسة ـ فلك .

98 ـ فريدة في تاريخ الأئمة الأربعة .

99 ـ من طرائف الحكومة بين جرير والفرزدق والأخطل .

100 ـ حكم نثرية وشعرية .

101 ـ بحور الشعر ـ الحالة والمرأة.

102 ـ الأشكال النارية والأشكال الهوائية والأشكال المائية والأشكال الترابية (رموز هذه الأشكال).

103 ـ نصيحة شعرية.

104 ـ أولاد نوح بعد الطوفان.

105 ـ نص شعري من وفيات الأعيان.

106 ـ أحجية.

107 ـ من تواضع لله رفعه.

108 ـ المصدر.

109 ـ الدخان المستعمل سنة 1174 ـ وحُكْمُهُ.

110 ـ مقدمة للأطفال في النحو باسم (مفيدة الغلمان).

أهم مراكز المخطوطات

العربية الليبية وفهارسها

أهم مراكز المخطوطات العربية الليبية وفهارسها

يمكن القول بأن المخطوطات العربية في ليبيا من التراث الذي ما يزال خافياً على كثير من المهتمين بتحقيق ودراسة التراث العربي الإسلامي، فلم يكتب لبروكلمان أن يشير إلى هذا التراث في فهرسه الشامل (تاريخ الأدب العربي) وبالرغم من فؤاد سزكين قد زار شعبة المخطوطات بمركز جهاد الليبيين فإن ذلك كان بعد تأليف كتابه (تاريخ التراث العربي) وقبل الانتهاء من فهرسة مخطوطات هذه الشعبة التي لا تمثل كل التراث الموزع في هذا البلد بين الزوايا والجامعات والمساجد والمكتبات الخاصة وغيرها.

ونستطيع تقسيم مواطن وجود المخطوطات في بلادنا الليبية إلى ثلاثة أقسام هي:

أولاً: المكتبات العامة وأهمها:

1 - مكتبة أوقاف طرابلس: وكان أساسها ما أوقفه عليها المرحوم مصطفى الكاتب خلال القرن الثامن عشر، وتحتوي هذه المكتبة على حوالي (1250) مخطوطة حسب إحصائية نشرة الشهيد، غير أن الرقم الحالي لعدد المخطوطات بها هو (1280) مخطوطة بعضها من المجاميع التي تحتوي أكثر من عنوان لكتاب أو رسالة.

وقد ضُمّت هذه المكتبة إلى مركز جهاد الليبيين وكوّنت مع محتوياته أهم مجموعة مخطوطة في ليبيا.

2 ـ **المكتبة المركزية بجامعة قاريونس**: حظيت هذه المكتبة بمجموعة نفيسة ضُمت إليها من الجغبوب والبيضاء وتتكون من أكثر من (2000) مخطوط، وقد علمت أن في أحد المكتبتين المذكورتين أنفس نسخة في العالم من صحيح البخاري عليها تعليقات لأبي علي الصدفي شيخ ابن الآبار الأندلسي الذي ألّف كتاباً في شيوخ أستاذه سماه (المعجم): وفيها ديوان ينسب إلى ابن حزم الأندلسي، يرى بعض الباحثين أن جزءاً منه ثابت النسبة إليه، أما باقيه فلغيره من الشعراء، فإن كان هذان الكتابان ما يزالان من محتوياتها فهي تنفرد بهما بين جميع مكتبات العالم المعروفة.

وقد حظيت هذه المكتبة من شخص المكلف بقسم المخطوطات الأستاذ فرج شمبش بالعناية والفهرسة، فجزاه الله عن ذلك خير الجزاء، كما أطلعني الأستاذ عبد الحفيظ منصور على محاولة لفهرستها قبل ذلك.

3) شعبة الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية:

يعمل المشرفون على هذا المركز بحماسة مشكورة على أن يجعلوا منه بيئة إشعاع ثقافي معطاء، ويقدم خدمات جليلة للباحثين المحققين في مجال المخطوطات وغيره من مجالات الدراسات الإنسانية.

وقد تمكن المركز من تصوير أكثر من (1500) مخطوط وجمع ما يزيد عن (255) مخطوط. وقد أُضيفت إليه محتويات مكتبة الأوقاف السابقة الذكر، وصور محتويات فرع غدامس وأغلب محتويات (معرض المخطوطات الليبي المالي 1990 م) والمخطوطات المشاركة في المسابقة الأولى للمخطوطات سنة 1989 م وكان بذلك أُنموذجاً للتزويد النوعي والكمي الممتاز.

4) مكتبة (طبقة):

وبها أكثر من (150) مخطوطاً ومقرها على بعد حوالي مائتي كيلومتراً إلى

الجنوب الغربي من طرابلس، وعلى مقربة من مزدة.

5) مكتبة الجامعة المركزية بكلية العلوم بجامعة الفاتح:

وقد كان لتحويل هذه المكتبة من مقرها تخوفٌ من قبل المهتمين بالثقافة على محتوياتها من المخطوطات والمطبوعات النفيسة، ونرجو أن يزول ذلك التخوف بإنشاء المكتبة المركزية سريعاً وجعلها في خدمة الباحثين.

6) مكتبة كلية التربية بسبها:

وهي مكتبة ناشئة أُتيح لها من الشباب المتحمس من يعتزم النهوض بها ويثري محتوياتها ولا يُعرف الرقم الذي وصلت إليه حتى الآن.

7) فرع مركز جهاد الليبيين بغدامس:

وبه مجموعة كبيرة من صور المخطوطات، لم أتمكن من الحصول على إحصائية موثقة عنها غير أن الأستاذ بشير يوشع ضمنها في فهرس مخطوطات غدامس.

8) قسم الوثائق والمخطوطات بمشروع المدينة القديمة:

ويضم ما تمكن العاملون بهذا المشروع من الحصول عليه خلال عملهم عن طريق الهدايا أو المصادفة في البيوت المهجورة، ويضع المتتبعون لنشاط الكشف عن المخطوطات أهمية كبرى على تزايد المخطوطات بهذا القسم نظراً لما كانت عليه مدينة طرابلس من حضور ثقافي عبر تاريخ طويل ما زالت بقاياه في مدينتها القديمة.

9) قسم الوثائق والمخطوطات بمصلحة الآثار في السراي الحمراء بطرابلس:

وهو يحتوي على مخطوطات ليست بالكثيرة ولكن بعضها مهم في دراسة الحياة الثقافية والعامة، ومن ذلك سجلات المحاكم الشرعية.

10) مكتبة كلية الدعوة الإسلامية:

وبها قسم ناشىء للمخطوطات تبلغ محتوياته حوالي خمسمائة مخطوطة أصلية أو مصورة، في شتى العلوم، من بينها مجموعة من المخطوطات المصورة خلال إقامة المعرض المالي الليبي، ومصورات معرض المخطوطات الأول، وقد قام بفهرسة القسم العربي منها الأستاذ إبراهيم الشريف، كما قام أحد الدارسين النجباء بقسم الدراسات العليا بفهرسة المخطوطات الفارسية.

11) مكتبة أوقاف المعهد الأسمري بزليطن:

وهي غير مفهرسة، ولكنها تحظى بعناية وحفظ وكلاء الزاوية والمعروف أن هذا المعهد الذي خدم العلم الشريف منذ عهود طويلة، وتركز نشاطه العلمي جلياً منذ القرن العاشر الهجري، قد جعل من منطقة زليطن واحدة من البيئات العلمية الزاخرة بالتراث المخطوط، وفيه من أسر العلماء التي تحتفظ بالكثير أو القليل من تراث الأجداد، مثل أسر الفطيسي، وجوان، وأبي زبيدة. فإذا أضفنا إلى ذلك العلماء ذوي التآليف الذين إلي هذه المدينة من أمثال الشيخ حلولو قدرنا أهمية هذه المكتبة التي كانت مرجعاً لهؤلاء الأعلام وغيرهم من الذين يؤمون هذه المدينة العلمية أساتذة أو طلاباً ورحالة وحجاجاً عابرين أو زائرين.

مكتبة زاوية الزروق بمصراتة:

تقع زاوية الشيخ زروق في منطقة تكيران بمصراتة، وتضم مكتبة إلى جانب المسجد والمدرسة القرآنية، ويقـول د. علي فهمي خشيم إن الشيخ زروق قد وضع مكتبته في خلوته ولم يسمح لخادمه أحمد عبد الرحيم ببناء الزاوية التي أُنشئت بعد وفاته بعشرين عاماً في صورة مسجد بناه أحمد بن عبد الرحيم المذكور، ولئن قال د. خشيم بأن المكتبة خالية من مؤلفات شيخها فإنه أشار إلى احتفاظها بطابـع المكتبة (الزروق والزروقية 171 ـ 176).

ثانياً: المكتبات الخاصة

جمع هذه المخطوطات أساتذة باحثون أو أسر توارثتها عن أسلافها من العلماء، وأغلب المخطوطات النفيسة تنتمي إلى هذا القسم. ويمكن التمثيل لبعض هذه المكتبات لا الحصر ومنها:

1 ـ مكتبة الأستاذ علي مصطفى المصراتي:

وهو باحث معروف له جهوده الرائدة والمشكورة في ميادين التأليف والتحقيق والنشر، ولديه مجموعة نفيسة من المخطوطات التي عَرَّف ببعضها في جانب من دراساته وأبحاثه مثل كتابه (مؤرخون من ليبيا) وحقق بعضها من مثل (نفحات النسرين) و (ديوان البهلول).

2 ـ مكتبة آل منيع:

وتضم حوالي (200) مخطوطة من أصل حوالي (800) مخطوطة، وقد حصلت على الجائزة الأولى في مسابقة مركز جهاد الليبيين وصُورت كل محتوياتها لصالح المركز وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية.

3 ـ مكتبة محمد النعاس قرزة بنسمة:

وتضم مجموعة من المخطوطات قدرت بحوالي (150) مخطوطة.

4 ـ مكتبة ضوي بغدامس:

وتضم ما يربو عن (400) مخطوطة في شتى العلوم، فضلاً عن العديد من الوثائق المهمة في توثيق العلاقات مع أهل السودان الغربي، وقد اشتركت في مسابقة ابن الاجدابي وفازت بالجائزة الثالثة بالمشاركة.

5 ـ مكتبة الأستاذ الباحث مختار بن يونس:

حصلت على الترتيب الثاني في مسابقة مركز جهاد الليبيين لما تحتوي عليه من مخطوطات نفيسة، ويعمل الأستاذ الباحث على تنميتها بدأبه المتواصل على التنقيب والكشف.

6 ـ مكتبة زاوية أبي ماضي:

وبها مجموعة من المخطوطات تحت رعاية أولاد عبد النبي الأصفر ولكنها أشبه ما تكون بالمكتبات العامة لقدم وقفها وعموم خدماتها للباحثين.

وقد اقترحت عند كتابة هذا الموضوع بمجلة الناشر العربي[1] أن يقام معرض سنوي توضع فيه الجوائز لأنفس المخطوطات، ويتمكن المختصون عن طريقه من التعرف على المخطوطات والمفاوضة في شأن تصويرها أو شرائها أو فهرستها. ووجد هذا الاقتراح صداه بفضل كلٍّ من مركز جهاد الليبيين وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، حيث أُقيم المعرض الأول للمخطوطات بزليطن سنة 1987 م وأُقيمت المسابقة في العام التالي ولا يزال الأمل معقوداً في أن تُعاد الكرَّة لمثل هذا المعرض وتلك المسابقة.

ثالثاً: مظان وجود المخطوطات

لم تقم جهود منظمة متواصلة لجمع المخطوطات العربية الليبية باستثناء الجهود المحدودة التي بذلها مركز جهاد الليبيين مشكوراً ويمكن توجيه أنظار

---

(1)

القائمين على أي مشروع من هذا المستوى إلى المظان التالية:

1 ـ الزوايا:

وهي بيئات علمية كانت منتشرة في بلادنا بكثرة، وقد ذكر منها الشيخ الطاهر الزاوي في كتابه (معجم البلدان الليبية) ثلاثين زاوية، وهي تحتوي على مجموعات من المخطوطات وإن تفاوتت في القيمة العلمية والصلاحية والكمية وتاريخ النسخ. على أنه لا يمكن الجزم بوجود تراثها المخطوط في مبانيها الحالية، إذ يمكن أن يكون في عُهدةِ وكلاء الزوايا أو المكلفين بها.

ونذكر بكل أسف أن مكتبات بعض الزوايا تعرضت لكوارث أتت على بعض محتوياتها أو كلها، كما حدث لزاوية العالم التي تعرضت لحريق مدمر أتى على أغلب محتوياتها، وهي كارثة تحز في النفس وتدفع إلى المطالبة بتصوير المخطوطات التي تنتظر المصير نفسه، أو ما يشابهه من آثار القدم والإهمال.

2 ـ المدارس القديمة:

وهي لا تبعد عن الزوايا وقد أفرد لها الشيخ الطاهر الزاوي في كتابه (معجم البلدان الليبية) حيزاً تحت اسم (مدرسة) وذكر منها خمس مدارس إحداها مدرسة مصطفى الكاتب التي زارها الكاتب سنة 1965 م، فوجدها بحالة جيدة، وقد سبق الحديث عن مخطوطاتها التي كونت أغلب محتويات مكتبة الأوقاف.

3 ـ مكتبات العلماء والأدباء والأسر التي لها جد عالم أو ناسخ:

وهي كثيرة في طرابلس وفي غيرها من المدن والقرى، وإنما نخص طرابلس لتحقق احتفاظها بالمخطوطات الموروثة والمجلوبة إليها من الأرياف، وإلاّ فإن أصغر القرى يمكن أن تكون مظنة لوجود بعض المخطوطات.

فهارس المخطوطات بالمكتبات الليبية

ليس لحركة فهرسة المخطوطات العربية الليبية جذور في الماضي، وقد عوض ذلك النقص اعتماد بعض المكتبات على البطاقات التي توفر معلومات مكتبية حول محتوياتها من الكتب والمخطوطات.

على أن الاهتمام بالفهرسة بدأ منذ زمن ليس بالبعيد وما يزال العمل جارياً في بعض الفهارس حتى كتابة هذه الأوراق.

ومن أهم الفهارس المنجزة ما يلي:

(1) فهرس مخطوطات جامعة قاريونس:

وقد نشر الجزء الأول منه والمتعلق بالقرآن وعلومه والجزء الثاني المتعلق بالإسلاميات مرقونين على الآلة الكاتبة، ويتابع واضعه الأستاذ فرج شمبش إصدار الأجزاء الباقية.

(2) فهرس مخطوطات مركز جهاد الليبيين:

يعمل الأستاذ إبراهيم سالم الشريف على إعداد فهارس مخطوطات المركز، وقد نشر حتى الآن الجزء الأول مشتملاً على العلوم الإسلامية، وهو بصدد إصدار الأجزاء الباقية بعد أن أعدّها مرقونة على الحاسوب.

(3) فهرس مخطوطات غدامس:

أعدَّ الأستاذ بشير يوشع فهرساً يحتوي على عدد كبير من مخطوطات غدامس تتعلق بالعلوم الدينية والعربية والتاريخية وغيرها.

(4) فهرس المخطوطات العلمية في الجماهيرية:

أعدَّ هذا الفهرس الأستاذ عمار جحيدر متتبعاً مظان المخطوطات العلمية مع التركيز على ما تحتويه المكتبة المركزية بجامعة قاريونس ومكتبة الأوقاف العامة ومخطوطات كلية التربية بسبها وبعض مكتبات مدينة غدامس.

ونشير أخيراً إلى موضوع قيم عن المخطوطات في ليبيا أعدَّه الأستاذ الباحث الجاد عمار جحيدر في نشرة (الشهيد) الصادرة في أكتور 1980 م، عن مركز جهاد الليبيين، تحدث فيه عن أولية المكتبات في ليبيا وعن مكتبات المخطوطات وإحصائياتها، وبذلك كان بحثه مصدراً مهماً من مصادر هذه المادة، كما سجل الباحث المذكور معلومات وملاحظات قيمة عن المخطوطات في ليبيا، وذلك في صحيفة التراث الإسلامي التي صدرت بعدد واحد سنة 1990.

غدامس إحدى حلقات الوصل

في العلاقات الإسلامية الإفريقية

غدامس إحدى حلقات الوصل
في العلاقات الإسلامية الإفريقية(1)

توطئة:

كانت الصحراء الكبرى عبر التاريخ عامل وصل بين الأفارقة القاطنين على ضفتيها، وكانت غدامس خلال عصور متعاقبة حلقة الوصل المثلى بين الشمال والجنوب لميزات تتعلق بموقعها وأمن الطريق السالك إليها. وقد توطدت تلك الصلات بعد دخول الإسلام إلى ما وراء الصحراء عن طريقها، فما عادت العلاقات تقتصر على الجانب التجاري برغم ازدهاره بعد انتشار الإسلام في غرب ووسط إفريقيا، بل شملت تلك الصلاتُ غيرَهُ من الجوانب الاجتماعية والدينية والسياسية والثقافية.

فانتشر المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية على جانبي الصحراء، وانعقدت روابط المصاهرة والمجاورة والصداقة والتعامل التجاري بين السكان فيهما، وارتفعت رايات بعض الدول على أجزاء منهما، كما هو الحال منذ عهد المرابطين حتى عهد السعديين، وانتقل أهل العلم والتصوف عبر المراكز التعليمية والزوايا الصوفية هنا وهناك. ولا أدلّ على الوشائج التي كانت تربط بين العلماء في تلك الأقطار من تصفح كتاب (نيل الابتهاج) لأحمد

(1) قُدِّم لندوة الجغرافية السياسية للعالم الإسلامي المنعقدة بطرابلس في شهر أكتوبر سنة 1990.

بابا التنبكتي بما يشتمل عليه من أعلام كانت لهم آراء وطرق وعلاقات مشتركة في شمال الصحراء وجنوبها.

إن دراسة كلٍّ هذه الجوانب تحتاج إلى وقتٍ وجهد كبيرين يقصر عنهما هذا البحث الموجز الذي يكفيه أنه وضع إشارات استفهام حول العديد من القضايا ذات الأهمية الكبرى، ونوَّه بمصادر دراستها وأماكن وجود هذه المصادر. وهذه الدراسة مع ذلك الاختصار لم تتابع الحقائق من خلال دراسات سابقة فقط، أو أخيلة جامحة ولكنها حصيلةُ جولات شخصية في غدامس وتنبكتو، وقاو، وباماكو، وحصيلةُ مجموعة من الوثائق والمخطوطات.

ومع ذلك فإن الباحث لم يتجاهل جهود الرحالة والمؤرخين الغربيين الذين أنفقوا جزءاً من حياتهم بين رمال الصحراء على اختلاف مآربهم وتفاوت غاياتهم، ولذا كانت تلك الرحلات مصدراً آخر من مصادره، فضلاً عن المؤلفات العربية القديمة التي تعد مصدراً أساساً لكلِّ دارس لتاريخ وثقافة هذه الرحاب.

وفي معرض الحديث عن المصادر والمراجع لا يفوتني أن أشيد بالجهد القيم الذي بذله الأستاذ مصطفى عبدالله بعيو في كتابه (المختار في مراجع تاريخ ليبيا) فقد كان دليلاً مهماً لمتابعة ما كتبه الغربيون عن تجارة القوافل.

واحة غدامس:

ورد ذكر غدامس في (معجم البلدان) لياقوت الحموي فضبطها بفتح الغين وضمها، وأشار إلى ما تتميز به من جودة الدباغة ومن الآثار الرومانية، ونوَّه بنظام أهلها في توزيع المياه[1]. ووصفها الحميري فذكر ما بها من دواميس وكهوفٍ، ومن غرائبِ البناء الذي يعود إلى ممالك سادت ثم بادت، وقال:

---

(1) معجم البلدان ط. دار صادر - بيروت 4/187.

(وإن تلك الأرضَ لم تكن صحراءَ، وأنها كانت خصيبة غامرة وأكثرُ طعامهم التمر والكمأة)[1].

وإشارةُ المعجمين هذه تومىءُ إلى ما كانت عليه الواحة من أهمية تضرب جذورها في أعماق التاريخ، ففي غدامس أو (سيدا موس) ـ كما تسميها بعض المصادر ـ آثارٌ تنتمي إلى الإمبراطورية الرومانية التي استولت عليها سنة 19 ق. م، وأدخلت إليها المسيحية فيما بعد.

وتقع هذه الواحة على بعد 500 كيلو متراً إلى الجنوب الغربي من طرابلس، وقد قُدِّر عدد سكانها قبل تضاؤل أهميتها التجارية سنة 1919 م، باثني عشر ألف مواطن، وهي لا تختلف عن سائر الواحات الليبية في احتوائها على أشجار النخيل وإشرافها على الصحراء الكبرى، ولكنها تتميز بمكانها المهم على أقصر طرق القوافل عبر الصحراء، ففيها تتجمع القوافل المتجهة جنوباً، والقادمة من طرابلس وتونس، ومن الجزائر أحياناً، كما تتميز بنشاط سكانها في ميادين التجارة والتعليم والزراعة، وقد كان لعيونها المائية ـ وأشهرُها عين الفرس ـ فضلٌ في اتجاه القوافل إلى ربوعها المسعفة.

إن عين الفرس التي تتحدث بعض المصادر عن أزليتها[2] تساق في مصادر أخرى على أنها ذات قصة مرتبطة في اكتشافها بعقبة بن نافع الفهري إبان قدومه إلى غدامس[3].

وللغدامسة في توزيع مياه هذه العين على مزارعهم نظام دقيق ما زالت أدواته معروفة حتى الآن، وقد أشار إليه ياقوت في معجمه[4]. ويعتمد هذا

---

(1) الروض المعطار في خبر الأقطار ـ للحميري ـ مكتبة لبنان 1975 م، ص 427.
(2) معجم البلدان، لياقوت 4/ 187.
(3) ذكر قصة اكتشاف عقبة لعين الفرس صاحب المؤنس وغيره وأوردها الشيخ الطاهر الزاوي في تاريخ الفتح العربي، ص 108.
(4) مصدر سابق والصفحة نفسها.

النظام على توزيع المياه بمعيار يعرف عندهم بالقادوس، فإذا استنفذ أيُّ مزارع كمية المياه المقررة له جاءَه في آخرها ماءٌ يعلوه قليل من التبن ليشعره أن ما بعد هذا التبن ليس من نصيبه، فيسد الثغرة الموصلة إلى بستانه، مما يسمح بتسرب المياه عبر القناة الرئيسة إلى المزرعة الموالية وهكذا.

ومعمار هذه المدينة متميزاً أيضاً بشوارعه المسقوفة وواجهاته الجانبية الدالة على تفردها، إذا ما استثنينا بعض الملامح المشابهة للمعمار اليمني، والمعمار الغدامسي لا يمتاز فقط بمظهره الخارجي الفريد، بل بجمال زينة بيوته من الداخل، وتوزيع المياه بين البيوت والمساجد والحمَّامات والمزارع، وتخصيص الطرقات العليا للنساء والسفلى للرجال، وغير ذلك مما يجعل هذه المدينة مقصداً للسياح ورجالِ الآثار والفن المعماري.

بين غدامس والسودان الغربي:

تقع مدينة غدامس ـ كما تقدم ـ على مشارف الصحراء الكبرى عند أقرب نقطة معمورة تلتقي فيها ثلاثة من أقطار المغرب العربي مع مالي والنيجر، وتعود أهميتها مع ذلك إلى أنها المدخلُ الأقصر طريقاً بين البحر المتوسط والمدن التجارية المهمة في السودان الغربي[1]، وقد عُرِفَتْ هذه الأهمية قبل الإسلام وبعده، قال الحميري: (ومن غدامس يُدخل إلى بلد تادمكة وغيرها من بلاد السودان الغربي وبينهما أربعون مرحلة)[2].

والحديث عن مكانة غدامس باعتبارها حلقة وصلٍ بين المسلمين في

---

(1) رأيت في بعض المراجع أن هذا الطريق أقربُ بما لا يقل عن 500 كيلومتراً عن أقرب طرق القوافل الأخرى وهو لذلك مؤهل لاستئناف خطوط مواصلات حديثة تربط بين شمال الصحراء وجنوبها (لم أعثر من تدوين هذه المعلومات على المرجع المذكور فلم أثبتها في صلب البحث).

(2) الروض المعطار ـ ص 427.

شمال الصحراء وجنوبها يتشعب إلى الصلات التاريخية والثقافية والاجتماعية والتجارية وغيرها. ويضيق المقام باستقصاء الشواهد الدالة على صور التواصل بين الطرفين، ولكن تكفي الإشارة في الجانب الثقافي إلى المصادر التي كتبت عن ذلك، ونخص منها ما كتبه د. ا. م كاني الأستاذ بجامعة أحمد بيلو حول (مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط إفريقيا)[1]، وما كتبه أ. إبراهيم بن يونس عن (تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم)[2].

أما الرحالة الغربيون والمستشرقون فقد أغفلوا دراسة هذا الجانب، وفي ذلك يقول الدكتور كاني: إن هناك تعمداً مقصوداً لدى المستشرقين والمتأفرقين إلى الإيحاء باختلاف المراحل التي مرَّ بها السكان هنا وهناك، وإن هذا الاختلاف أحدث مؤسسات وثقافات متغايرة. و «نتيجة لهذا الاختلاف فليس هناك شيء مشترك بين السكان في هذين القسمين»[3]. ثم أشار إلى تعمد تشويه المظاهر الثقافية والفكرية، ومثَّل لذلك في هامشه بكتابي تري منجتون «قصة الإسلام في غرب إفريقيا» (أكسفورد 1970) و «الإسلام في غرب إفريقيا» (أكسفورد 1976).

فإذا تجاوزنا المادة المكتوبة إلى الواقع من خلال ما تزخر به مكتبات غدامس وتنبكتو من أدلة على العلاقات التي نود دراستها لوجدنا أشياءَ لافتةً للنظر نذكر منها ما يلي:

أولاً: الوثائقُ الغدامسية، وسوف نخصص لها جانباً في هذا البحث يُعرَّف بها وبأماكن وجودها.

ثانياً: نسخ متعددة من كتب متداولة في العلوم القديمة نجدها هنا وهناك

---

(1) مجلة البحوث التاريخية الصادرة عن مركز جهاد الليبيين عدد 1/1981 ص 14.
(2) نشر هذا الكتاب بالسودان سنة 1970.
(3) مجلة البحوث التاريخية العدد 1/1981، ص 9.

لمؤلّفين أو نسّاخ عاشوا في غدامس أو في تنبكتو، وأخرى لغيرهم ولكنها مُعتمدة في التدريس والفتيا في البلدين وربما في سائر غرب وشمال إفريقية.

ثالثاً: خطوط متشابهة في مخطوطات المدينتين ونسّاخ لهم آثار هنا وهناك، وأنواعٌ من الخط معروفة في منطقة الصحراء كالخط المغربي والسوداني والصحراوي في المدينتين، وهما في ذلك مثل يكاد ينطبق على معظم المدن والواحات الواقعة على جانبي الصحراء.

رابعاً: المدائح النبوية التي ينشدها التنبكتيون وهي معشراتُ وعشرينيات الفازازي موجودة في غدامس أيضاً، وهو ما تنفرد به عن بقية المدن الليبية.

خامساً: كتبٌ لمؤلفين عاشوا في ليبيا مدة طويلة ووضعوا فيها مؤلفاتهم مثل الشيخ أحمد زروق دفين مصراتة الذي تشتمل مكتبات تنبكتو وغيرُها من مدن السودان الغربي على عدد كبير من مؤلفاته التي نذكر منها:

أ ـ النصيحة الكافية (خ) بمركز أحمد بابا رقم 1498.

ب ـ القواعد في التصوف (خ) بمركز أحمد بابا رقم 917.

ج ـ تأسيس القواعد والأصول (خ) منه نسخ متعددة.

د ـ شرح قصيدة عيوب النفس (في بعض المكتبات الخاصة).

وكتب أخرى لمؤلفين ليبيين أمثال:

أ ـ ابن سليم الأوجلي، وكتابه الموجود في بعض مكتبات السودان الغربي وهو: «دليل القائد بكشف أسرار الواحد».

ب ـ علي عبد الصادق وشرحه الشهير على «المرشد المعين» ومنه نسخ متعددة.

ج ـ مؤلفات الغدامسة وقد تقدمت الإشارة إليها ومنها:

1 ـ أرجوزة في الطب منسوبة إلى محمد بن محمد بن طالب السباعي الغدامسي (رأيتها في بعض المكتبات الخاصة).

2 ـ منهاج السالكين في منافع القرآن الكريم لعبد الله بن أبي بكر الغدامسي (بمركز أحمد بابا رقم 955).

د ـ بعض الفتاوى ومن أمثلتها فتوى ابن متيضا الغدامسي المقيم بتنبكتو والموجهة لأهل غدامس.

أما الجانب الاجتماعي فإن الوثائق المتوفرة تدل على تواصل مستمر وعلاقات مصاهرة وصداقة ومجاورة طويلة[1] وما زالت بعض الأسر الغدامسية مثل أسرة بالليل تعيش في تنبكتو حتى يومنا هذا، وفي بعض المدن الليبية مثل غات أسرٌ لم تنس انتماءها إلى جنوب الصحراء.

أما الجانب التجاري من هذه العلاقة فقد كان ميداناً واسعاً للتعامل بين الطرفين، ولا يمكن لهذه العجالة أن تفيه حقه من التفصيل والبيان. ولعل دراسةَ الوثائقِ الغدامسية مستقبلاً تجعل ذلك في متناول الباحثين.

ويبقى الجانبُ التاريخي وهو مهم ومتسع لأنه يمتد إلى الوراء كثيراً، فقد عرفت الصلاتُ بين غدامس وجنوب الصحراء قديماً، ونحيل المستزيد من ذلك إلى مقال الكونت بايرون خون عن «الطرق التجارية القديمة من قرطاجنة إلى داخل الصحراء» وما يشتمل عليه من مصادر ومراجع، ففيه حديث عن واحة غدامس وأهميتها باعتبارها حلقة وصل في طرق التجارة بين قرطاجنة والسودان الغربي[2].

على أن الذي يعنينا في هذه الورقات من تاريخ العلاقات الغدامسية السودانية هو جانبها الإسلامي، وهو موضوع السطور التالية:

أشرقت شمس الإسلام على ربوع غدامس بقدوم الصحابي الجليل

---

(1) انظر الوثائق المرفقة على ذلك.

(2) «الطرق التجارية القديمة من قرطاجنة إلى داخل الصحراء». De Prerok Byron 1925 الصفحات ـ«المجلة الجغرافية» نيويورك ـ أبريل 190 ـ 905.

عقبة بـن نافع الفهري سنة 42 أو 49 هـ على اختلاف في الرواية، غير أن التاريخ الإسلامي لهذه المدينة وما يليها جنوباً لا يزال مما يلفّعُهُ الغموض من تاريخ القارة الإفريقية، فلا تفي الشذرات القليلة التي نجدها في بعض المصادر المعروفة بإعطاء صورة دقيقة عن تاريخ الفتح الإسلامي لهذه الواحة، وما أعقبه من أحداث تاريخية متصلة بفتوح السودان الغربي، ويكفي في هذه العجالة أن نثير أسئلةً حائرة علها تقودنا إلى دراسات معمقة في تاريخ هذه المنطقة.

فمن ذلك أن مقبرة لمجموعة من الصحابة تقع في مكان غير بعيد من مدينة غدامس ولا زالت آثارها حتى الآن، فمن هؤلاء الصحابة ومتى كان استشهادهم؟ ويؤكد أهل هذه المدينة أن الضريح الرئيس في مقبرة وسط البلد للصحابي الجليل عقبة بن عامر الجهني، وأنهم توارثوا هذه المعلومات متواترة عن أجدادهم، وهناك مصادر أخرى تؤيد صحة وصول عقبة بن عامر إلى غدامس ومنها إلى السودان الغربي[1]، بل رأيت في بعض المصادر ما يفيد أن الفلانيين ينسبون أنفسهم إليه. بيد أن بعض المؤرخين يقول: إن عقبة بن عامر الجهني دُفن بمصر، وقُبِرَ بجوار مسجده في القاهرة[2]. ويقول ابن إياس: إن عقبة بن عامر مات شهيداً ودفن بالقرافة الصغرى[3]. فأين الحقيقة بين هذه الأقوال المتعارضة؟.

إن دراسة عابرة كهذه لا تدعي حسم إشكاليات تاريخية متضاربة الآراء ولكنها تكتفي - كما أسلفت - بإثارة هذه الأسئلة وتشير إلى أن كثيراً من مصادر

---

(1) من هذه المصادر مخطوطة صغيرة باسم (خبر السوق) لمجهول، اطلعت عليها في جمهورية مالي. وقصيدة فتوح إفريقية على يد عقبة بن عامر - وهي مخطوطة بمركز أحمد بابا برقم 689 م.

(2) انظر ترجمة عقبة بن عامر في دول الإسلام للذهبي 1/20 والإصابة ترجمة 5603 وكشف النقاب (خ) وابن دقماق 4/11 وجمهرة أنساب العرب ص 416.

(3) تاريخ ابن إياس 1/28 عن أعلام الزركلي.

فتوح المسلمين لإفريقية ما تزال مخطوطة حتى الآن أو منشورةً بدون دراسة وتحقيق، ومن أمثلتها:

1 ـ تاريخ الفتاش، لكعت محمود بن المتوكل الكرمني، (منه نسخة مخطوطة بمركز أحمد بابا رقم 64).

2 ـ خبر السوق ـ لمجهول ـ مخطوط صغير ولكنه مفيد فيما يتعلق بدخول عقبة بن عامر إلى السودان الغربي، وقد أُلِّف متأخراً عن الفتاش.

3 ـ قصيدة فتوح إفريقيا على يد عقبة بن عامر (مخطوطة بمركز أحمد بابا تحت رقم 689 م).

4 ـ حديقة البستان على تواريخ أهل أوران (مخطوطة بمركز أحمد بابا رقم 145).

5 ـ الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان. . . جمع البلوي (مخطوطة بمركز أحمد بابا تحت رقم 755).

6 ـ فتوح إفريقية للواقدي، وهو كتاب مطبوع مشهور ولكنه غير محققٍ ولا مدروسٍ ـ حسب علمي ـ دراسة وافية.

7 ـ فتوح إفريقية لعلاء الدين الإفريقي (منه نسخ متعددة بالخزانة الحسنية بأرقام 2539 ـ 450 ـ 49 ـ 1190 ـ 7453).

8 ـ قصة فتوح إفريقية مخطوط بمركز أحمد بابا برقم 83.

9 ـ تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي، منه مخطوط بمركز أحمد بابا رقم 81. وهو كتاب معروف لدى الدارسين ولا أرى أنه استنفد حقه من الدراسة.

10 ـ تاريخ أزواد ـ لمجهول ـ المكتبة السابقة رقم 37.

11 ـ اللؤلؤ المصون في أخبار من دخل السنغاي من قبائل العرب ـ لعبد الله بن محمد (خ) (مكتبة السيد محمد الطاهر بن نصر أحد مواطني مدينة قاو بجمهورية مالي).

12 ـ أخبار البلاد السودانية والهوسية لعبد القادر بن مصطفى (خ) (المكتبة السابقة).

13 ـ ضبط الملتقطات في أخبار الفلان، لمحمد بن عبدالله صاحب اللؤلؤ المصون (المكتبة السابقة)[1].

إن دراسة وتحقيق هذه المخطوطات وغيرها مما يتصل بتاريخ السودان الغربي والشمال الإفريقي يجب أن يسبقا أية أحكام حاسمة في تاريخ الفتح الإسلامي للقارة الإفريقية.

أهمية غدامس في تجارة القوافل:

اكتسبت تجارة القوافل بين شمال الصحراء وجنوبها أهمية كبرى في القرون الوسطى ويقال: إنها بلغت ذروتها في الفترة ما بين 1490 و 1590 م، على عهد دولتي سنغاي وبرنو[2] وقد كان في اعتقاد الغربيين أن عوائدها عالية جداً[3] الأمر الذي دفعهم إلى الاهتمام بالسيطرة عليها والبحث عن مصادر تقديرها. وقد اختلفت تقديراتهم لعوائدها باختلاف السنوات والمصادر، ففي عام 1973 م، قدرت هذه العوائد بمليون جنيه استرليني، وقدرت تجارة السودان الغربي عبر غدامس ما بين سنتي 1846 و 1848 بمبلغ 41684 جنيهاً استرلينياً، كما قدرت تجارة السودان إلى طرابلس وحدها في الفترة ما بين 1861 و 1862 بمبلغ 59440 جنيهاً استرلينياً، وقد صدرت طرابلس مقابل

---

(1) ورد ذكر محتويات هذه المكتبة في مقال للباحث بعنوان: «تنبكتو نافذة على التاريخ» بمجلة كلية الدعوة الإسلامية العدد الرابع ـ سنة 1987 م.

(2) انظر مقال أدو بوهن عن تجارة القوافل في القرن التاسع عشر بمجلة التاريخ الإفريقي عدد 2، سنة 1962 م. الصفحات من 349 إلى 366 (Boahen, A, Adu).

(3) وردت هذه التقديرات في مقال عن تجارة الشمال الإفريقي والسودان الغربي في القرن التاسع عشر نشر بمجلة التاريخ الإفريقي الإنجليزية عدد 2 سنة 66 ص 46 ـ 233، ونقلها مترجمة عن «المختار في مراجع تاريخ ليبيا 3/210 ـ 2/2».

ذلك إلى تنبكتو وكانوا ما قيمته 41040 جنيهاً استرلينياً.

وإذا كانت تجارة الصحراء تحتل هذه المكانة فإن المنافذ المؤدية إليها قد حظيت باهتمام أكبر لاشتراكها مع ذلك في أهداف سياسية واقتصادية أخرى، وأهم هذه المنافذ الرابطة بين شمال الصحراء وجنوبها ما يلي:

1 ـ طريق نهر النيجر ـ مراكش ـ عبر ازرار أو تاديني إلى تندوف أو تافيلت[1].

2 ـ طريق تنبكتو ـ عين صالح ـ غدامس ـ ثم طرابلس أو تونس.

3 ـ طريق بلاد الهوسا ـ أغاديس ـ غات.

4 ـ طريق غدامس ـ أير ـ كانو.

5 ـ طريق طرابلس ـ فزان ـ برنيو.

6 ـ طريق برقة ـ الكفرة ـ واداي.

وبعض هذه الطرق تتداخل وتلتقي في نقاط تجمعُ وتفرق الراحلين بحسب اختلاف غاياتهم المقصودة.

وتعود ميزة طريق غدامس عليها بالإضافة إلى أنها أقصرُها جميعاً في الربط بين السودان الغربي والبحر المتوسط، إلى ما كانت تتمتع به من الأمن السائد بفضل سيطرة قبيلتي «أزجر» و «كيل أوي» الطارقيتين على هذا الطريق، وقد كانت القبيلتان تعيشان على العوائد التي تُدفع في مقابل حراسة القوافل وضمان سلامتها، وهما لذلك تبذلان قصارى الجهد في هذا السبيل[2].

وقد هيأ هذا الوضعُ الآمنُ جوّاً من حرية التنقل للقوافل الصغرى التي كانت تسافر في غير الأوقات المعروفة لرحلات القوافل الكبرى، أما هذه

---

(1) لعلها تافليت.

(2) انظر تجارة القوافل في القرن التاسع عشر ـ بمجلة التاريخ الإفريقي، ص 351 ـ عدد 1962/2 م. (Boaen. A, Adu).

الأخيرة فقد كانت لها رحلتان: رحلة ذهاب من الشمال، وتتم عادة في فصل الخريف من كلِّ سنة، ورحلة الإياب من الجنوب وتكون عادة في فصل الربيع ما بين شهري أبريل ومايو حين يبدأ موسم الأمطار في السودان الغربي.

وتدوم الرحلة سبعين أو تسعين يوماً بحسب حجم القافلة وحمولتها[1] وتتكون القافلة الصغرى من 60 إلى 100 جمل عادة في حين تتكون القوافل الكبرى من 600 إلى 1000 جمل، ويبلغ مجموع الجمال القادمة إلى تنبكتو سنوياً نحو 50 أو 60 ألف جمل قبل الاحتلال الفرنسي لهذه المدينة، ثم أخذ في الانخفاض بعد الاحتلال المذكور[2].

نعود بعد هذا الاستطراد القصير إلى أهمية غدامس في تجارة القوافل لنسجل أنه اعتباراً لهذه الأهمية الخاصة عقدت في واحة غدامس معاهدة مشهورة بين فرنسا والطوارق سنة 1862 يمكن الرجوع إلى دراسة عنها في كتاب فويلو عن اكتشاف الصحراء[3] كما كان موضوع أهمية غدامس في تجارة القوافل محور جملة من الوثائق القنصلية احتواها الفصل الرابع من كتاب روبين هاللت عن سجلات الرابطة الإفريقية[4].

على أن أهمية هذه الواحة قد أخذت في التناقض عقب ضعف تجارة القوافل ثم اختفائها كلياً، وهي الآن مدينة أثرية خرج أهلها إلى موقع المدينة

(1) انظر تجارة القوافل في القرن التاسع عشر ـ بمجلة التاريخ الإفريقي، ص 353ـ 354 عدد 1962/2 م. (Boaen. A, Adu).

(2) Dubois, Felix, Timbucte the Musterious, p.p. 252- 253.

(3) انظر الفصل الخامس من كتاب «اكتشاف الصحراء الكبرى» لفويلو حيث يختم هذا الفصل بتناول المعاهدة التي أبرمت بتاريخ 1962/9/22 م بين حاكم الجزائر العام ورؤساء قبائل الطوارق، واشتملت على مواد أربعة تمّ الاتفاق عليها (مراجع تاريخ ليبيا 27/3).

(4) انظر سجلات الرابطة الإفريقية، جمع روبين هاللت، الفصل الرابع، وهو خاص بمشروع كرامون ووالوين بشأن القيام إلى غدامس، ومنها إلى الجنوب (عن مراجع تاريخ ليبيا 3 ـ 152).

الجديدة وما تزال تربطهم بمدينتهم القديمة أواصر الحنين والألفة، فهم يزورونها بين الفينة والأخرى. بل يرى بعضهم أنها أفضل في أوقات الصيف من المساكن الحديثة، فيلجأ إليها فراراً من القيظ أو من وسائل التكييف الصناعية.

الوثائق الغدامسية:

تحتوي المكتبات الخاصة في غدامس وتنبكتو على وثائقٍ كثيرةٍ تتناولُ جوانبَ مختلفةً من الروابط الإنسانية المتعلقة في معظمها بالصلات المتنوعة بين السكان في شمال الصحراء وجنوبها، وإذا كان وجود هذه الوثائق المقدرة بالآلاف مؤكداً في هاتين المدينتين فإن وجودها محتمل أيضاً - إلى حد كبير - في كانو، وسكتو، وقاو، وأغاديس، وغات، وربما توات، وعين صالح، وغيرها من المدن والواحات ذات العلاقة بهذا الشأن، والواقعة حالياً في مالي، ونيجيريا، والنيجر، وليبيا، والجزائر.

وقد حقق الأستاذ بشير يوشع قسماً من هذه الوثائق في كتاب يقع في 370 صفحة كانت حصيلتها 50 وثيقة بعنوان «غدامس... وثائق تجارية، تاريخية، اجتماعية» تنتمي إلى الفترة الواقعة ما بين 1228 و 1310 للهجرة[1].

وتحصل مركز جهاد الليبيين على قدر من الوثائق الغدامسية يبلغ ألفيْ مخطوطة، وهي حصيلة كافية لقيام دراسة جادة حول ما تسجله هذه الوثائق من مظاهر العلاقات الإسلامية الإفريقية في الفترة والبيئة التي تعرض لها.

كما أن في مركز أحمد بابا التنبكتي عدداً من الوثائق الغدامسية[2] ولكنه ليس بالقدر الكبير إذا ما قورن بنظيره في غدامس أو بما هو متوقع في محتويات

---

(1) نشر هذا الكتاب ضمن منشورات مركز جهاد الليبيين لسنة 1982 م. (سلسلة نصوص ووثائق رقم 6).

(2) لعله من الإنصاف القول بأن الوثائق الموجودة في تنبكتو هي وثائق تنبكتية وإن كانت ذات صلة بغدامس، وهذه الصلة هي مسوغ وصفها بالغدامسي، وهي غالبة فقط إذ من الوثائق ما هو مرسل إلى بعض الطرابلسيين.

المكتبات الخاصة في تنبكتُو، ولعل قلة عدد الوثائق الغدامسية في هذا المركز عائدة إلى تشبث أصحابها بها، أو لاهتمام المركز بالمخطوطات في مراحل تأسيسه أكثر من اهتمامه بالوثائق.

إن أهمية هذه الوثائق تكمن في أنها تعرض معلومات جديدةٍ في تاريخ العلاقات الإنسانية المختلفة بين الأفارقة المسلمين في شمال الصحراء وجنوبها، وتصحح الكثير من المسلمات السائدة حول تجارة القوافل، وحول العلاقات المتينة التي ربطت بين الإخوة على جانبي الصحراء، إنها تؤرخ للأحداث وتعطي أسبابها ونتائجها، تفصل المجملات وتبين المجهولات، ولذا كانت دراستها على قدر كبير من الأهمية، ثم إنها تتفاوت فيما بينها في الأهمية والأسلوب والقيمة العلمية وهذا شأن كلٍّ الوثائق المشابهة.

وفي الوثائق متابعة لحركة الفرنسيين في شمال وغرب إفريقيا ومعلومات عن معارك في الصحراء كنا نقتصر في استقائها على المصادر الفرنسية. وفيها أيضاً معلومات عن حركة الغدامسيين في مدن السودان الغربي، وعلاقاتهم مع بعض المغاربة والجزائريين والتونسيين سواءٌ أكان ذلك في غدامس أو في المناطق السودانية الصحراوية.

ولهذه الوثائق أهمية أخرى جديرة بالدراسة المركزة، فقد أثبتت النظرة الأولية لعينات كافية من هذه الوثائق خطأ الاعتقاد السائد في كتب الرحلات الغربية القاضي بأن تجارة الرقيق كانت رائجة عبر هذا الطريق حتى بعد الاتفاق الدولي على حظرها سنة 1815 في مؤتمر فيينا.

ومع وجود بعض الأرقاء في تجارة القوافل فإن الوثائق تؤكد أن تجارة العبيد لا تشكل نسبة تذكر إلى جانب البضائع المتبادلة قبل ذلك التاريخ وبعده، وتشترك مراجع أخرى في تأكيد هذه الحقيقة، منها على سبيل المثال مقال بعنوان: «سلع التجارة الصحراوية الصادرة من السودان الغربي»[1].

---

(1) كتاب «الصحراء الكبرى» المتضمن البحوث ندوة علمية متخصصة، وهو من منشورات=

وعلى الرغم من ثبوت هذه الحقائق حتى في القوائم التي أحصاها الغربيون أنفسهم لتلك البضائع[1] فإننا نجد من بينهم من يقول: (أصبح من السهل الاسترشاد بتلك الجماجم في معرفة الطريق دون حاجة إلى دليل لكثرتها في بعض الطرق، ومعظم هذه الجماجم كانت لجماعات من العبيد ماتوا وهم في الطريق إلى الشمال بصحبة القوافل التجارية التي كانت تعتمد إلى حدً كبير على تجارة الرقيق الأسود في نشاطها)[2].

ولا يخفي أسلوب المبالغة والتشويه في هذا النص، ولا يكفي الرد عليه بما هو معروف في شرع المسلمين من وجوب دفن جثة الآدمي مهما كان دينه أو جنسه، ولكننا نتساءل كيف أمكن لهذا الكاتب أن ينسب هذه الجماجم لجماعات العبيد وليس للتجار والأجراء الذين لا يختلفون عنهم كثيراً بعد نزع البشرة وأحياناً قبل ذلك أيضاً.

ولِمَ لا تكون هذه الجماجم ـ إن وجدت ـ لقطاع الطرق الذين يحاولون الإغارة على القوافل، ويصطدمون مع حراسها؟.

والحق أن العظام موجودة في طرق القوافل، وقد أشار إليها رحالة غربي آخر، ولكنه ذكر حقيقتها، فقال: إنها جماجم الجمال التي تَنْفُقُ أو تُنْحر في

= مركز جهاد الليبيين سنة 1979 م، ونعدم في هذا المقام الرجوع إلى أبحاث مؤتمر تجارة القوافل وبعضها بمجلة البحوث التاريخية لعدد سنة 1981 م.

(1) عن تجارة الشمال الإفريقي والسودان الغربي في القرن التاسع عشر بمجلة التاريخ الإفريقي اللندنية، العدد الثاني 1966 م، نقلاً عن (المختار في مراجع تاريخ) 2/2/3. ولقد تحدث كاكيا عن تجارة القوافل وذكر البضائع المستورة من إفريقيا إلى طرابلس فلم يكن من بينها الرقيق مطلقاً (ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني) ـ ص 136.

(2) تجارة القوافل في القرن التاسع عشر ص 52 ـ 353 Boahen. A وانظر تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير لبوافيل، ترجمة د. الهادي أبو لقمة ود. محمد عزيز، ص 398.

الطريق وهي لكثرتها تُعدُّ من معالِمِ طرق القوافل[1]. وشتان بين عظام الجمال وجماجم البشر فلم يبق إلاً أن يوصف ذلك الكاتب بالوهم أو باتباع الهوى الذي يصرف البحث العلمي عن نزاهته وحياده.

إن مثل هذه النصوص المخالفة للحقيقة كانت تهدف ـ في اعتقادي ـ إلى إثارة الحماسة الجماعية لدى الغربيين لاقتحام الصحراء الكبرى مستغلة في ذلك روح الموقف الإنساني العام ضد الاسترقاق، وهو كفيل بإضفاء الشرعية على الحركة الاستعمارية وتحريك المشاعر للمساهمة في القضاء على الرق في مهده كما جاء في بعض الكتب[2].

ولقد كشفت بعض التقارير الغربية هذه الغاية الاستعمارية فقالت: (لقد أصبحت سياسة مقاومة تجارة العبيد وسيلةً لاستبعاد بعض الشعوب الإفريقية والاستيلاء على بلادهم)[3]. أما الغاية الثانية فهي تحويل إفريقيا إلى المسيحية وذلك ثابت من كتابات وتصريحات علنية، من ذلك أن البابا ليون الثالث عشر أعطى مهمة الإشراف على تحويل كلٍّ وسط إفريقية إلى المسيحية إلى الكردينال الكاثوليكي لافيجيريا سنة 1898[4].

إن الوثائق الغدامسية، تحتاج إلى وقفة أطول، وهي مع غيرها من الوثائق والمخطوطات الإفريقية سبيلنا الأمثل لإعادة كتابة التاريخي الإفريقي، ودراسة العلاقات الإسلامية الإفريقية بروح جديدة.

---

(1) انظر مراجع تاريخ ليبيا لمصطفى بعيو ص .

(2) انظر «رحلات إلى أقاليم القارة القطبية ورحلات في إفريقية في القرن التاسع عشر ـ الفصل الثاني من الجزء الثالث Tribouillar D.M.J, ed، وانظر تعريفاً بها في كتاب (المختار في مراجع تاريخ ليبيا) 3/264.

(3) من تقرير نشر بمجلة الجمعية الجغرافية ـ عدد أكتوبر 1951 م. نقلاً عن (المختار في مراجع تاريخ ليبيا) 3/241.

(4) انظر كتاب الاستعمار الأوروبي لميري تاونسند ط 1، ص 29 وما بعدها Townsend, Mary Evlyn.

الخـــاتمـة

وهكذا تنتهي هذه الجولة السريعة في ذلك الميدان الواسع، ولا يمكنها ـ لاتساع ميدانها ـ إلاَّ أن تكون بهذا الاختصار والتركيز حتى تناسب ندوة متعددة الأبحاث والإسهامات.

ولا أزعم أنني قدمت بها أحكاماً حاسمة أو آراءً نهائيةً ولكنها وجهات نظر متواضعة لا تخلو من إشارات مفيدة لدارس العلاقات الإسلامية الإفريقية، وهي تطرق بقوة أبواباً كانت مغلقة في هذا المجال، وتفتح ملف المصادر الإفريقية لدراسة تاريخ هذه القارة من داخلها بعد أن كان يُلتمس في كثير من الأحيان من خلال دراسات الآخرين وانطباعاتهم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

مصادر ومراجع البحث

المخطوطات:

1 ـ عينات من الوثائق الغدامسية في تنبكتو وغدامس.

2 ـ بعض المخطوطات الواردة في صلب الدراسة.

المطبوعات:

3 ـ تاريخ الفتح العربي في ليبيا ـ للشيخ الطاهر الزاوي.

4 ـ الروض المعطار في خبر الأقطار ـ للحميري ـ مكتبة لبنان 1975 م.

5 ـ غدامس ـ وثائق تجارية، تاريخية، اجتماعية، جمع وتحقيق: بشير يوشع منشورات مركز جهاد الليبيين 1982 م.

6 ـ الصحراء الكبرى ـ دراسات مترجمة، صدرت بمناسبة انعقاد الندوة العلمية للتجارة عبر الصحراء سنة 1979 م، ترجمة د. عماد غانم وآخرون.

7 ـ مجلة البحوث التاريخية، الصادرة عن مركز دراسات جهاد الليبيين العدد 1 سنة 1981 م.

8 ـ مجلة كلية الدعوة الإسلامية، العدد الرابع 1987 م.

9 ـ المختار في مراجع ليبيا، تأليف أ. مصطفى عبدالله بعيو ـ الجزء الثالث ـ نشر الدار العربية للكتاب ـ 1395 ـ 1975 م.

10 ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي، طبعة دار صادر ـ بيروت.

De Prorok. Byroiu Khun:

11- Ancient trade routes from Cartage into the Sanara the Geographical review, April 1925.

Boahen, A. Adu: The Caravan trade in the ninetten century.

12- The Journal of African History. Vol III Number 2. 1962 Townsend, Mary Evelyin.

European Colonil Expansion Since 1871 Chicago, Philadelphia and New York. Ib Lippincott Company 1941 VIII.

من آثار

أحمد بن عبد الدائم الأنصاري

من آثار
أحمد بن عبد الدائم الأنصاري[1]

تقديم:

تتعرض الأحكام النقدية حول التاريخ الثقافي لهزات عنيفة عند كل كشف مهم عن أثر من آثار النتاج الفكري والأدبي، وتصبح تلك الأحكام عندئذ عرضة للتحوير والإصلاح، وربما للتغيير والهدم. ولذا فقد كان من الضروري أن تبذل الجهود في الكشف المتواصل عن الآثار المخطوطة قبل التسرع في نشر الدراسات النقدية في هذا المجال.

وكان ذلك من أقوى الدوافع وراء نشر بعض آثار الشاعر أحمد بن عبد الدائم الأنصاري، الذي يبدو من خلالها أنه كان أحد الشعراء المجيدين في القرن الثامن عشر الميلادي، وهو القرن الذي يوصف أحياناً بأنه يمثل ذيل التخلف في تاريخ الأدب والثقافة العربية.

وقد قسمتُ هذا العمل إلى قسمين يتضمن الأول منهما تعريفاً بحياة الأديب وصفاته، ويتضمن الثاني أعماله الأدبية الباقية وحرصت على ألاّ أثقل هوامش النصوص بالتعليقات إلاّ إذا اقتضت الضرورة ذلك.

ومن الله أرجو العون والتوفيق

---

(1) نشر بمجلة الناشر العربي العدد 8 ص

الرموز المستخدمة في التحقيق

* معكوفان للزيادة عن الأصل [ ]
* إشارة تعجب أمام المعاني غير الواضحة !
* قوسان لما يحتاج التعليق ( )
* ثلاث نقاط لما تتعذر قراءته (. . .)

حياته

لفّ الغموض معظم حياة الأديب أحمد بن عبدالدائم الأنصاري أحد رجال القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي). وقد نبّه إلى هذا الغموض أستاذان متصلان بالدراسات العربية الليبية هما الطاهر أحمد الزاوي وعلي مصطفى المصراتي، حيث قال الأول: «ومنذ أن اعتزمت طبع هذا الكتاب [يعني التذكار] وأنا أكتب إلى أصدقائي بطرابلس ممن لهم صلة بالعلم بشأن البحث عن ترجمة للشيخ أحمد بن عبد الدائم الأنصاري»، إلى أن قال: «كتب إليّ صديقي الفاضل الأستاذ أحمد بن محمد الفقيه حسن نبذة تتعلق به ننشرها بنصها مع الاكتفاء بها حيث لم يكن لدينا من المعلومات غيرها»[1].

أما الأستاذ علي مصطفى المصراتي فقد قال: «ولقد سألت كثيراً وبحثت طويلاً عن ترجمة الناظم فلم أجد شيئاً يشفي الغليل»[2].

وكان أمامي عند البدء أن أسلك مسلك الأستاذين في جمع هذه الآثار فاتصلت بكثير من ذوي الاهتمام بالحياة الأدبية وأظنني وقعت على بعض المعلومات التي يمكن أن تسلط الأضواء على حياة الرجل آخذاً بالقول السائر «ما لا يدرك كله لا يترك قله».

(1) التذكار فيمن ملك طرابلس وكان بها من الأخبار الصفحة ح.

(2) أعلام من طرابلس ص 192.

ولادته ووفاته:

لم تورد المصادر المتوفرة شيئاً عن ولادته ووفاته، غير أننا نجد من الإشارات ما يعطينا تحديداً تقريبياً لذلك. فهناك إشارات إلى أنه تتلمذ على محمد بن سعيد الهبري المتوفى ـ على أرجح القولين ـ سنة 1121 هـ[1].

ويبدو من إحدى رسالتين كتبهما الشاعر نيابة عن شيخه المذكور إلى محمد الماجي المغربي أن مترجمنا كان في ذلك الإبان رجلاً مدركاً وكاتباً بليغاً وشاعراً فصيحاً وصوفياً ورعاً ولا تتوفر هذه الصفات مجتمعة في فتى صغير.

وله قصيدة تصرّح بأنه شهد حصار الأسطول الفرنسي لطرابلس سنة 1140 هـ (1727 م) منها قوله:

في يوم عيد المسلمين ونحرهم ... متـرقبيـن بفـرصـة للمـدخـل

عـام أربعيـن مضـت لهجـرة أحمـد ... مـن بعـد مـا مـائـة وألـف كمـل

بل إن له قصيدة في الدفاع عن طرابلس أُنشئت ـ كما يأتي ـ بعد سنة 1144 هـ (1731 م)؛ وهو تاريخ بعيد عن أوان كتابة الرسالتين السالفتين ويدل على أن الرجل قد تقدم به العمر عند إنشاء القصيدة المذكورة.

---

(1) صاحب القول المذكور هو المنالي الزبادي في رحلته (انظر الحاجية لعلي فهمي خشيم ص 136)، أما القول الثاني فقد ورد في (نفحات النسرين) للنائب الأنصاري ص 132 ن وفيه أن ابن سعيد توفي سنة 1093 هـ وينقض هذا القول الأخير ما وجدته في مخطوطة من تأليف عبد الرزاق الغرياني تلميذ محمد بن سعيد نفسه من أنه صلى على أحمد بن محمد بن مقيل المتوفى سنة 1101 هـ وما ورد في رحلة الإمام القادري من أن لقاء حياً تم بينه وبين الهبري سنة 1101 هـ [ليبيا لدى الرحالة المغاربة مجلة المجمع العلمي العراقي العدد 9 السنة 1970 ص 7] وكذلك ما ورد في المقامة الخامسة من كتاب «التحفة المرضية» ص 136 من أن محمد بكداش التقى أوائل سنة 1117 هـ بالصوفي محمد بن سعيد بالمنشية [حاشية رقم 185 من ليبيا في رحلة ابن الطبيب الصميلي].

وفي أقوال الشاعر نفسه نجد إشارة تدل على أنه تجاوز الخمسين سنة وهي قوله: «لي معرفة بسبعين حكمة وعمري الآن ما ينيف عن الخمسين سنة»[1]، ولو علمنا تاريخ هذه الإشارة لساعدنا كثيراً في تحديد دقيق لتاريخ ميلاد الشاعر.

ثم تخفى علينا بعد ذلك المعلومات عن بقية حياة المترجم له فلا نجد غير ذكر لمخطوطة من قصيدته نُسخت سنة 1180 هـ (1766 م)[2] فإذا اشتط بنا الخيال فظننا أنه نسخها أو أملاها أو قُرئت عليه في التاريخ المذكور لكان بذلك قد توفي عن سن عالية بعد عمر زاخر بالعطاء لم يصلنا منه إلاّ القليل.

وبين هذه الفروض يبدو مؤكداً أن أحمد بن عبد الدائم هو من أعلام القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي.

صفاته في كتب القدماء:

وصف ثلةٌ من الكتاب القدامى أحمد بن عبد الدائم فأجمعوا على نبله وفصاحته وذكائه، حيث قال صاحب التذكار: «الفاضل الأديب الخيّر اللبيب سيدي أحمد بن عبد الدائم الأنصاري»[3] وقال محمد عبد الكريم الأنصاري في كتابه الإرشاد لمعرفة الأجداد: «الفقيه أحمد بن عبد الدائم، كان يضرب به المثل في ظرفه وفصاحته، وصلته لأقاربه والفقراء. كان حافظاً، ذا معرفة

---

(1) وردت هذه العبارة في كتاب الإرشاد إلى معرفة الأجداد للعسوس ومنه نقلها أحمد الفقيه حسن. وعنه أثبتها الأستاذ الطاهر الزاوي في ابن غلبون (رقم ح؛ ط) وفي أعلام ليبيا ص 52 وأعلام من طرابلس 194.

(2) إنها ترجمة الأنصاري في وثائق ومخطوطات أحمد الفقيه حسن الحفيد.

(3) ابن غلبون ص 3.

بالتواريخ الإسلامية والأخبار الملوكية، غاية في الذكاء والفطنة والعقل الراجح. ومن الغرائب ما اختص به من الحكمة حيث كان يقول: «لي معرفة بسبعين حكمة، وعمري الآن ما ينيف على الخمسين سنة ولم يسألني أحد من أهالي طرابلس عن واحدة منها ومن جملتها استخراج الماء من الأرض حتى يصعد إلى قمتها بغير مشقة»[1].

وقال: «وكان له التقدم في صناعة الخط وقد انفرد فيه بطريقة اخترعها لم يكن أحسن منها قط في أنواع الخطوط المعهودة. وقد كان شاعراً بليغاً حسن الطريقة في شعره»[2].

أما زميله علي بن سليمان الذي تتلمذ معه على يد الصوفي محمد بن سعيد الهبري فقد قال عنه: «أخونا في الله، المحفوف بعناية الله، السراج الوهاج الذي أخرج مريد الظلمة بلا علاج! سيدي أحمد بن عبد الدائم»[3].

وانفرد الناصري بوصفه بالقاضي في قوله: «وإياه قصد قاضيها المالكي في الوقت وهو أحمد بن عبد الدائم»[4].

أعماله الأدبية:

إن الأعمال الباقية لأحمد بن عبد الدائم لا تمثل في نظرنا إلا قدراً يسيراً من نتاجه العقلي في مجال الأدب والفكر، ولدينا بعض الأدلة القاطعة التي تدل على ضياع جانب من ذلك النتاج شعراً ونثراً، فمن أمثلة ذلك أن أحمد الفقيه حسن الحفيد أخذ من كتاب الأجداد للعسوس أبياتاً منتخبة من قصيدة قال إنها

---

(1) من ترجمة الشاعر التي نقلها أحمد الفقيه حسن عن كتاب «الأجداد» المفقود. انظر أعلام ليبيا ص 52.

(2) المصدر نفسه الصفحة ط.

(3) من مخطوط عن الأولياء في مركز جهاد الليبيين لعبد الرزاق الغرياني ص 58.

(4) رحلة الناصري (نقلاً عن أمير مغربي في طرابلس ص 69).

تبلغ حوالي مائة بيت لم يصلنا منها سوى خمسة وعشرين بيتاً. ومما ضاع من نثره بصورة قاطعة خطاب أرسله إلى محمد الماحي أشار إليه عبد الرزاق الغرياني في كراسة الأولياء فقال: «فجاوبه سيدي أحمد بن عبد الدائم بجواب مفيد يزيل الشك والريب، ولم نعقل الآن ما ذكره»(1).

وقد ظلت الأعمال المعروفة لهذا الأديب قليلة جداً حتى تم العثور على مخطوطين مهمين في هذا الميدان، أولهما النص الكامل لرسالة أحمد الفقيه حسن الحفيد في ترجمة الشاعر وهي ترجمة وافية أرسل بعضها إلى الشيخ الطاهر الزاوي عند شروعه في تحقيق كتاب ابن غلبون، واحتفظ بنصها الكامل في مكتبته التي آلت إلى مكتبة مركز جهاد الليبيين.

وهذه الترجمة تحتوي على ما جاء في كتاب الإرشاد إلى معرفة الأجداد للعسوس وهو كتاب مفقود، كما تحتوي على بعض الإضافات المفيدة الأخرى.

أما المخطوط الثاني فهو كتاب صغير في الأولياء من تأليف زميل المؤلف عبد الرزاق الغرياني المتقدم ذكره، وقد أشار فيه إلى رسالة لم يتذكر تفاصيلها عند التأليف فأعرض عن إيرادها، لكنه أورد رسالة أخرى إلى محمد الماحي أيضاً، أكد في مستهلها أنها غير الرسالة السابقة حيث قال: «أما سيدي أحمد بن عبد الدائم [فـ] كتب جواباً غير الجواب الأول لسيدي محمد الماحي»(2).

ولما كانت أعمال هذا الأديب غير معروفة فقد صار من أهداف هذه الدراسة أن تسهم بقسط متواضع في إضاءة هذه الأعمال وجوانبها التاريخية، وأن تجمع ما يمكن جمعه منها في حيز واحد يمكن من خلاله الوقوف على أنموذج من أدبنا في القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي).

---

(1) من مخطوط عن الأولياء لعبد الرزاق الغرياني، ص 55.
(2) من مخطوط الأولياء، ص 64.

1 ـ قصيدته في وصف طرابلس والدفاع عنها:

أُنشئت هذه القصيدة في الدفاع عن طرابلس رداً على الهجوم الذي سجله الوزير الإسحاقي الشرقي بعد رحلة للحج عَبْر الأراضي الليبية قام بها سنة 1143 هـ (1731 م).

وقد جاء في ذلك الهجوم: «وعلى كل حال فما رأيت بهذه المدينة لهذا العهد ما يروق الطرف ولا ما يحصره الوصف، ولا ما يحصل به الأنس ولا ما تطمئن به النفس، بلدة شعثة الساحة لا يجد القلب فيها راحة... الخ»[1].

ثم لم يكتف بهذا الذم، فنقل من وصفها عن العبدري ما أفرغ به نفثات صدره ضد هذا البلد الذي يبدو أنه ينقم على بعض أهله أمراً لم تتضح معالمه إلا إذا سلمنا بأنه المعني في الغريبة التي أوردها ابن غلبون وفيها: أن أحد المتسبين للعلم طلب توقيعاً من أمير طرابلس يتضمن زيادة احترامه، فأمر أجلّ كَتبته بذلك فكتب ما نصه: «هذا كتاب أمير المؤمنين أيّده الله بيد حامله العالم العلامة النحرير فلان يؤذن من يقف عليه بزيادة احترامه وتعظيمه». فلما تناوله وقرأ «النحرير» كاد أن يخرج من عقله حنقاً، واشتكى من الكاتب والأمير غضهما حقه، فبُين له معناها فلم يقبله، وتوهم لقصوره أنه وصف ببيع الحرير وهو من المواد التي درج أهل الذمّة على بيعها»[2].

ويبدو من عرض الدكتور عبد الهادي التازي لهذه القصة اطمئنانه إلى أن المقصود بها هو الوزير الإسحاقي الشرقي[3] ويزيده قوة ما جاء في قصيدة أحمد بن عبد الدائم من تلميح ذكي في قوله:

ألا أيها النحرير مَهْ عن مذمة فما في الأواني بان من قطراتها

---

(1) ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، ص 142 ـ 143.

(2) التذكار، ص 8 بتصرف.

(3) أمير مغربي في طرابلس، ص 70.

وكان المعتقد عند بعض الكتاب أن الرسالة في الرد على العبدري[1] حتى تأكد بعد نشر الدراستين اللتين قدمهما الأستاذان محمد الفاسي بين يدي رحلة العبدري، وعبد الوهاب التازي في تقديمه لكتاب «أمير مغربي في طرابلس» أن المقصود هو هذا الوزير عبد القادر الجيلاني، والمعروف بالشرقي الإسحاقي، وقد كان مصاحباً في رحلته للأمير محمد بن عبدالله ملك المغرب فيما بعد.

ويمكن حصر أقوى الأدلة على نسبة الرحلة التي ردّ عليها ابن عبد الدائم إلى الوزير الإسحاقي الشرقي في الآتي:

أولاً: ما جاء في تصدير نص قصيدة أحمد بن عبد الدائم من قوله: «الحمد لله، لما بلغ العبد ما صنع الشرقيُّ برحلته من ذكر مساوىء لطرابلس اختلقتها عينُ السخط منه بعد توجهه لبلده، فوقفت على بعض ألفاظه...» إلى أن يقول: «فلما تحقق الفقير ذلك انتُدب لذكر محاسنها فقال...»[2] ثم أورد القصيدة وفي النص ما لا يقبل الشك في أن صاحب الرحلة هو الشرقي، وأنه معاصر للشاعر.

ثانياً: ورد التصريحُ باسم الشرقي في ثنايا القصيدة حيث قال الشاعر:

فجاءتك يا شرقيُّ تسعى فراعها   وكن منصفاً ثم اجن من ثمراتها[3]

ثالثاً: ما ورد في رحلة الناصري من قوله: «وقد مر بهذه البلدة بعض الأدباء من أرباب الدولة العلوية في الأيام الإسماعيلية الماضية فاقتفى في وصفها العبدري... وإياه قصد قاضيها المالكي في الوقت وهو سيدي أحمد بن الدائم الأنصاري بقوله: أرى زمناً... الخ»[4].

---

(1) انظر على سبيل المثال لا الحصر كتاب التذكار، ص (د).
(2) انظر حاشية ابن غلبون، ص 3.
(3) التذكار، ص 280.
(4) المصدر نفسه حاشية رقم 1 ص 3. والدولة العلوية هي دولة الأشراف السجلماسيين بالمغرب المنتسبين إلى علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أما الأيام الإسماعيلية فهي

وعلى الرغم من عدم تصريح الناصري باسم الوزير الإسحاقي فإن عباراته دالة عليه، فهو من أرباب الدولة العلوية بدرجة وزير في أيام المولى إسماعيل بن الشريف، ونهج طريقة العبدري في ذم طرابلس دون غيره من الرحالة المغاربة، وقد كان مروره بطرابلس في تلك الأيام، فلا شك أنه المقصود من رد أحمد بن عبد الدائم.

وتبقى بعد ذلك طائفة من الآراء الظنية منها القوي ومنها الضعيف، ولست أرى الإطالة في تدوينها بعدما تقدم من أدلة قاطعة[1] ويتضح مما تقدم ومن دراسة القصيدة أنها أُنشئت في الفترة ما بين 1144 هـ وهي سنة رجوع الشرقي إلى بلاده، و 1158 هـ وهي سنة وفاة أحمد باشا القرمانلي الذي كتبت القصيدة في عهده[2].

وقد بدا لي واضحاً أن الرحالة لم يدون رحلته إلا عندما رجع إلى بلاده من قول أحمد بن عبد الدائم «اختلقتها عينُ السخط منه بعد توجهه إلى بلده»[3]، ومن قول الرحالة نفسه في وصف مرحلة الذهاب «حتى انفصلنا عن البلد مشرقين وكذلك حين خيمنا على طرابلس مغربين»[4] حيث جمع في مذكراته بين مرحلتي الذهاب والإياب.

= فهي نسبة إلى إسماعيل بن الشريف على أحد ملوك هذه الأسرة (1082 هـ/ 1139 هـ) (انظر الاستقصاء ج 7 ص 3 وما بعدها).

(1) انظر رحلة أمير مغربي ص 69 وفيها أن حديث الشاعر عن الهبري والزروق وقد توفيا بعد وفاة العبدري دليل على أنه لا يحاججه. وانظر مجلة البحوث التاريخية (يناير 1982 ص 50 ـ 51) وفيها أن الزمانة التي أشار إليها الشاعر صفة حقيقية لدى الإسحاقي.

(2) امتد عهده ما بين 1123 هـ (1711 م) و 1158 هـ (1745 م) وقد جاء في كتاب ابن غلبون ص 250 أنه المقصود بالمدح في هذه القصيدة.

(3) المصدر السابق، ص 3 وحاشية رقم 1.

(4) أمير مغربي في طرابلس، ص 124 ـ 125.

وإذا وضعنا في الاعتبار أن كتاب التذكار قد ألف في عهد أحمد باشا القرمانلي وبتكليف منه لشرح هذه القصيدة تبين لنا أنها كُتبت بعد تدوين الرحلة بوقت قصير.

النـــص

أرى زمناً قَدْ جاء يَنْتَقِصُ المَهَا — بلا جارحٍ والأسد في فَلَواتها

رأى القيضَ مُبَيَضاً بمزبلةِ الحِمى — فقَال كفاني إنَّهُ من صِفاتها

أتى أهْلَهُ يَهْوى وبشَّر أنَّه — بربقة من ظبيانها ومهاتها

فألقى قُشُوراً باليات وقد رمَى — بدائه أرباب الحجى من نهاتها

كَمَنْ رامَ أن يُبري العليلَ بحية — وزارع شوكٍ يرتجي ثمراتها

ألا أيُها النّحريرَ مَهْ عن مذمةٍ — فَمَا في الأواني بان من قطراتها

طرابُلُسُ لا تَقْبَلُ الذمَّ إنها — لها حسنات جاوزت سيئاتها

إذا أمَّها مَنْ قد نأته بلاده — وأوْحَشَه ذو أمرهَا من حُماتها

تطَامَنَ عن نَفْسٍ ومالٍ وعشرةٍ — ويضحى بعزٍّ ما ثوى بجهاتها

فكم من دُيُور أخربت وكنائس — وكمْ من حُصون حُوصرت بسراتها

وكم من بلادٍ للصليبيّ مركز — أحاطوا بها ليلاً فأفنوا طغاتها

وكم من جوارٍ للكوافر ضيقت — على سُفُن الإسلام من نفحاتها

قد أضحت بمرساها أسيرة فلكها — وعسكرها في جبرها من حفاتها

وكم من أونيسي بِهَا ذِي معارف — وكم من جُنَيديّ على شرفاتها

بها فضلاءٌ ما الفضيلُ يفوقهم — فوارس أنجادٌ وهم من حُماتها

قد اختارها الزروق داراً وموطناً — كذا ابن سعيد مقتد بهداتها

تواترت الأقطاب تترى بأرضها وكم سيِّد رام المقام بذاتها

بها علماء عاملون بعلمهم خمول من الإظهار في خلواتها

ولم ترَ غشاً قط من جمع أهلها ولا قسماً في بيعهم من جُفاتها

إذا حان وقت للصلاة رأيتَهم سراعاً وخلّوا الربح في عرصاتها

رويداً فلا تعجل بذمك للتي تَباهى بها الإسلام من غزواتها

بها ملك أندى من السحب راحة وأرأف بالأغراب من والداتها

له همةٌ تعلو لتأييد سنَّة بحفظ مبانيها وجمع رُوَاتها

لعمرُك تلقى سوء قصدك عاجلاً وتُسلبُ نور العلم من بركاتها

فتب وانتصح لله إن كنت عارفاً ودع سوءَ ما أبديتَه من صفاتها

ويكفي أهاليها من الفضل أنها رباطٌ لمن قد قام في حجراتها

فجاءتْكَ يا شرقيُّ تسعى فراعها وكن منصفاً لم اجن من ثمراتها

وصلِّ وسلِّم يا إلهي على الذي نهى عن حظوظ النفس مع شهواتها[1]

حظيت هذه القصيدة بعناية أبي عبدالله محمد بن خليل بن غلبون الذي كلفه أحمد باشا القرمانلي بجمع حسنات طرابلس، فألّف كتاب «التذكار» شارحاً في ثناياه هذه القصيدة.

وهو في شرحه لها قد سلك اتجاهين واضحين: اتجاهاً لغوياً يعمد فيه إلى تفسير الكلمات وإعرابها أحياناً، واتجاهاً تاريخياً تناول فيه إشارتها التاريخية باستفاضة، مع استطرادات جعلت من كتابه أهم ما كتب في التاريخ العربي الليبي قبل هذا القرن.

---

(1) ورد في إحدى مخطوطات القصيدة هذا البيت:

وصل وسلم يا إلهي على الذي نهى عن حظوظ النفس مع شهواتها

وآلِهِ والأصحاب ما قال نابه حذار، فسم النفس في شهواتها

(البيتان في مجلة البحوث التاريخية، يناير 1982، ص 49).

2 ـ استنجاده بالسلطان العثماني :

ونَظَم شاعرنا قصيدةً وُصِفتْ بأنها طويلةٌ جداً يستنجد فيها بالسلطان العثماني أحمد خان الثالث ليضع حداً لحصار الأسطول الفرنسي لطرابلس سنة 1140 (1728 م)، ولكن السلطان كان آنئذ في سنواته الأخيرة في الحكم يعاني آثار التدخل التركي في بلاد الفرس وغارات الشاه الفارسي طهماسب على حدود الدولة العثمانية، وضغوط الإمبراطورية الرومانية التي استمرت في البلقان طوال القرن الثامن عشر تقريباً، كما يعاني من (ثورة الإنكشارية التي انتهت بعزله من الحكم سنة 1143 (1730 م)[1].

ولم أجد من أبيات هذه القصيدة سوى خمسة وعشرين بيتاً، نُشِر منها في ترجمة الشاعر بكتاب التذكار خمسةُ أبيات[2] فكانت ـ فيما أعلم ـ أول إشارة تاريخية تنشر بالعربية عن ذلك الحصار، الأمر الذي جعل الأستاذ المصراتي يستبعد عند الحديث عن هذه الأبيات أن يكون الأسطول الفرنسي قد دخل إلى ميناء طرابلس غازياً في ذلك الحين[3].

ثم نشر الدكتور محمد عبد الكريم الوافي أخبار هذا الاعتداء الفرنسي على السواحل الليبية في ترجمته «للحوليات الليبية» التي ألفها (شارل فيرو) وأورد بالخصوص رسالتين مهمتين متبادلتين بين أحمد باشا القرمانلي وقائد الأسطول الفرنسي[4] ثم توالت الإشارات في مصادر أخرى[5].

---

(1) راجع تاريخ الدولة العثمانية، ص 146 والشعوب الإسلامية، 161.
(2) التذكار، الصفحة (ط).
(3) انظر أعلام من طرابلس، ص 198.
(4) الحوليات الليبية، شارل فيرو، ترجمة وافي، طرابلس: المنشأة العامة للنشر والتوزيع، ط 2، ص 386 ـ 388.
(5) انظر مثلاً طرابلس من 1510 إلى 1850 لكوستانزيو برنيا، تعريب خليفة التليسي، نشر دار القرماني، طرابلس: 1969 م.

وفي المصادر المحلية نُشرت تفاصيل هذا العمل العدواني الفرنسي في يوميات حسن الفقيه حسن الذي ننقل قوله التالي بتصرف قليل: قدمت علينا مركب «فرنسيس» يوم الأربعاء التاسع عشر من ذي القعدة الحرام سنة ألف ومائة وأربعين من الهجرة... وفي الخامس من ذي الحجة قدمت عمارتهم من تونس، وتتكون من غرابين وسبعة مراكب وثلاث هويات (نوع من السفن) ونحو الخمسة شواطىء، ومكثوا على طرابلس يتردد بينهم الجواب حتى رابع يوم العيد ليلة الأربعاء حين أطلقوا البومبة وتطاردوا مع الأبراج فأصيب منهم مركبان، واستمر الإطلاق ليالي الخميس والجمعة والسبت، ثم طلبوا الصلح فأبى الباشا وأهل البلد...

ثم قال: وجملة ما أطلقوا من مدافع ألف وثمانمائة مدفع ونحو سبع وعشرين «بونبه». ثم سافروا يوم الخميس الخامس عشر من ذي الحجة سنة 1140[1].

وهذا السرد التاريخي مهم في دراسة النص، إذ بالإضافة إلى أنه يؤكده ويوضحه يكشف لنا عن الظرف النفسي الذي دفع الشاعر إلى ذلك الاستنجاد، ويثبت أن الرجل الصوفي لا يقف بعيداً في عزلة عن أحداث الوطن وشجون الناس كما يرى بعضهم[2]، وشاعرنا صوفي كما سنرى.

ويحدد هذا السرد التاريخي بالمقارنة مع محتوى القصيدة أن تاريخ إنشائها يقع ما بين يوم السبت الحادي عشر من ذي الحجة والسبت الثامن عشر من الشهر نفسه، وهو موعد انتهاء المعركة، والأقرب أنها أُنشئت يوم السبت

---

(1) انظر اليوميات الليبية، حسن الفقيه حسن، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، منشورات مركز الجهاد 1984، ج 1، ص 659.

(2) انظر مادة التصوف الإسلامية في الموسوعة العربية الميسرة لنجد ذلك القول بطريقة غير مباشرة، يصوز أن المتصوف المسيحي يتميز عن غيره من المتصوفة بخدمة الناس حين ينكفي غيره على أنفسهم وينعزلون عن الناس.

الأول لأنه لم يُشر إلى القتال حين أشار إلى ترقبهم لفرصة الدخول.

النـــص

يا حامي الإسلام يا بحر الوفا	يا من على الأملاك شأنُكَ يعتلي
لا زلت كهف الخائفين ملاذَهم	غيثَ اللهوف[1] أتى بوقت ممحل[2]
شِيدَتْ منـاراتُ الشـريعـةِ منـه إذ	تسمـو علـى هـامِ السّمـاك الأعـزل
وإذا الملـوكُ تحجبـت عـن وافـدٍ	فهـو الـذي عنـه المكـارمُ تنجلـي
يـا واحـداً مـا فـي البسيطـة مثلـه	ملـك الملـوكِ بتـاجـه المتكلـل
فـاسمع لقصـة مـن أتـاكَ بحـرقـةٍ	خُـذ ثـأره مـن كُـلِّ خصـمٍ مبطـلِ
أوَ مـا يغيظـك حـالُ قلعتِـك التـي	فـازتْ بفتحـك فـي الزَّمـان الأوَل
يـا سيـدي فـانظـر لحـالـة ضَعْفنـا	مـن شيمـةِ الأخيـار أن لا تبتلـي
إنـا لنـرجـو منك أخـذ الثـأر مـن	شعـب الفـرنسيـس اللئيـم الأرذل
جاءوا على الصلح القديم وأنكروا	مـا أكملتـه نفـوسهـم بتحيـل
في يوم عيد المسلمين ونحرِهم	متـرقبيـن بفـرصـةٍ للمـدخـل
عـام أربعين مضتْ لهجـرة أحمـدٍ	مـن بعـد مـا مـائـةٍ وألـفٍ كُمِّـلِ
خُذْ ثـأرنـا يـا سيـدي مـن كـافـرٍ	رامَ البـلادَ، أذقـهُ طعـمَ الحنظَـل
دارُ الـربـاط فيـا لهـا مـن بلـدة	دارُ الجهـاد شكَـتْ لمـولـى أعـدل
تـالله لـو ظفـرتْ بهـا الكفـارُ لـم	تطمـعْ بمصـر ولا الشـآم ومـوصـل
أدرك بـلادَك (بـاءشـاهـم)[3] إنهـا	حـزنـت لفعـل الكـافـر المتحيـل

(1) اللهوف: لعل صوابه اللهيف وهو المظلوم وقد ورد في القاموس من ألفاظه الملهوف واللهفان واللاهف واللهيف.

(2) المحلُ: الشِّدةُ والجدب.

(3) باء شاهم: هكذا في مسودة أحمد الفقيه حسن ومبيضته ولعلها كذلك لضرورة الوزن.

للّـه كـم مـن كُـربـةٍ فـرَّجْتَهـا	يـوم الـوغـى أدركْ بـلادك واعجـل
أهـلُ الـولايـة كلِّهـا وقفـوا علـى	قـدم الجهـادِ ونـار حـرب تصطلـي
متـرقبيـن نـزولَهـم مـن سُفْنهـم	كَتَـرقّـبِ البـازيِّ طعْـمَ المـأكـل
لكـن أعـداء الإلَـه تَحَصَّنـوا	بسفـائـنِ بَعُـدَتْ كشـامـخ أجبـل
يـا لَيْـتَ تـمَّ لَنَـا الـوُصُـولُ إليهـمُ	عنـد التـلاقـي كُـلُّ هَـمّ ينجلـي
الله أكبـر مـا وجـدنـا حيلـة	تشفـي غليـل تحمّـس للجحفـل
الله أكبـرُ مـا وجـدْنـا مـدفعـاً	يـرميهـمُ عـن بعـد سبعـةِ أمْيَـلِ
يا صاحب النفسِ الكريمةِ كُنْ لَنَا	عَـوْنـاً يَخـصُّـكَ رَبُّنـا بِتَجَمُّـلِ

3 ـ رسالتان إلى محمد الماحي:

قُدِّمَ محمد الماحي المغربي في كتاب الأولياء لعبد الرزاق الكميشي على أنه أحد تلامذة الشيخ محمد بن سعيد الهبري المستغانمي دفين طرابلس. وعَرَّف به أحمد بن عبد الدائم فقال: (سيدي محمد شُهِرَ الماحي ابن الفاضل المرحوم سيدي محمد بن عبد الرحمن الراشد)[1].

أرسل الماحي من المغرب[2] رسالة إلى شيخه الهبري في طرابلس، ويبدو أنها استفسار من المدعو محمد بن عبدالله الذي تربطه علاقة ما بمحمد الماحي. أما موضوعها فيتلخص في أن السائل كان يرى رسول الله ﷺ ويستشيره في أموره كلها، ويسأل: «هل ـ سيدي ـ تلك الرؤيا التي تقع لهذا الإنسان صدق؟ وهل وقع مثلها لغيره ممن تقدم، أو أن نفس ذلك الإنسان هي التي تصور له ذلك الأمر، وليس هو على وجهه»[3].

---

(1) مخطوط الأولياء لعبد الرزاق الكميشي، ص 64.

(2) المراد بالمغرب هنا ما يشمل الجزائر أيضاً وقد آثرت المحافظة على التسمية الواردة في المخطوط، ولكن الشيخ الهبري مستغانمي والشيخ محمد الماحي من مواطنيه وهو من أولياء الجزائر.

(3) مخطوط الأولياء ـ ص 54.

ويورد مؤلف الكتاب أن الشيخ أحمد بن عبد الدائم بعث له جواباً يزيل عنه الشك والريب، ولكنه لم يورد نصه بسبب نسيانه لمضمونه. ثم يورد جواب زميله علي بن سليمان الذي كان أُمياً ولكنه أملى رسالة طويلة في الرد على الماحي.

وفي هذا الجواب نجد إشارة إلى إجابة أحمد بن عبد الدائم الأنصاري وإشادة بها تقول: «وأول ما كتب لك أخونا في الله المحفوف بعناية الله السراج الوهَّاج الذي أخرج مريد[1] الظلمة بلا علاج... سيدي أحمد بن عبد الدائم، فأجابك بما يليق وما أرسم فيه ببريق، فاقرأه وكن في قصده عليه حزماً»[2].

أما الرسالة الباقية فهي تختلف في موضوعها عن الرسالة السابقة وإن لم تخرج عن ميدان التصوف، وقد أرسلها الشاعر إلى الشيخ محمد الماحي وضمنها رداً على رسالة لهذا الأخير. ويبدو من رسالة ابن عبد الدائم معرفته لعدد من رجالات المغرب المنتمين بصلة للشيخ الماحي، وخصَّ منهم بالذكر محمد الطيب وأخاه.

وقد بدت في رسالة أحمد بن عبد الدائم إشادة بتواضع الماحي وعدم رضاه على نفسه، وخوفه من سوء العاقبة، وأمور أخرى تدل على أن الرسالة هي غير رسالة الماحي السالفة الذكر، وهو ما يعطينا صورة عن هذا النوع من الرسائل المتبادلة بين علماء الأقطار الإسلامية في ذلك الأوان. ولا أكون مغالياً إذا قلت إنه يضع أصابعنا على ما تتمتع به طرابلس من شهرة في مجال التصوف بالذات في ذلك القرن، ولنا أدلة قوية على ذلك، منها أن الكاتب الصوفي الهاروشي المغربي قد شدَّ الرحال إلى طرابلس وأخذ عن عالمها أحمد بن جابر

(1) لعله أخرج المريد من الظلمة بلا علاج.
(2) المصدر السابق، ص 58.

وسجل اعترافاً بالجميل يقول فيه: «فمن نسبنا لغيره فهو بأمرنا جاهل أو عالم متجاهل»[1].

وأُقدِّم اعتذاري سلفاً على ما تركته من كلمات لم أتوصل إلى معرفة وجه الصواب في قراءتها، وربما اجتهدت في توضيح معناها بكلمات قريبة من رسمها، وسبب ذلك وجود نسخة وحيدة من هذا المخطوط كَثُرَ فيها التصحيف والخرم والأخطاء الإملائية والنحوية والصرفية بصورة تتعذر معها القراءة أحياناً.

النـــص

بعد الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد ﷺ حفظ بمنّه وكرمه كمالَ الجنابِ العاطر، وأَدَرَّ وابل[2] السحاب الماطر، وغَمَرَ في أنواره الباطنَ والظاهرَ، أعني من شَوْقه لاحتْ لنا أقمار شهودِه! وفاحتْ أزهارُ وجوده، فقد اشتَقْنَا إلى مشاهد غُرَّته النورانية، وطرته[3] الفجرية، التي عرائسُ مواطِنها جميلةٌ، ونفائس معالِمها جزيلة جليلة.

فوردتْ لنا منه مخاطبةٌ شريفة، ومكاتبة منيفة[4] مودعة لجوامع برّه وإحسانه، حاوية لنواميس فضله وامتنانه. فحمدنا الله على سلامته (...)[5] وسألنُه أن يجمع له بين المعالي وأسرار المعاني، العالم العامل، الفاضل الكامل، العارف بالله، حامل لواء الطريقة السعيدية[6] ومحل الآلاء الربانية، محبنا حَقاً، وملاطفنا صدقاً أخانا في الله تعالى سيدي محمد شهر الماحي بن

---

(1) الفتح المبين والدر الثمين في فضل الصلاة والسلام على سيد المرسلين، الهاروش المغربي مخطوط بمكتبة الحاج علي الهرامة.

(2) أَدَرَّه: أكثره، والوابل: المطر الشديد.

(3) الطُّرَةُ: طرف كل شيء.

(4) المنيفة: العالية.

(5) كلمات غير واضحة في الأصل.

(6) نسبة إلى محمد بن سعيد الهبري.

الفاضل المرحوم سيدي محمد بن عبد الرحمن الراشد، أرشدنا وإياه الله إلى طُرقِ الهداية، ووجه الجميع بأسرار العناية في البداية والنهاية.

سلامُ الله تعالى عليكم ورحمةُ الله وبركاتُهُ، وأزكى تحياته (وعلى كل من نسب إليكم وانتسب لجنابكم)[1] خصوصاً منهم سيدي محمد الطيب وأخاه، جعلَ الله لكم منهم قرة عين، إنه قوي متين، آمين.

وبعد يا أخي، فقد حمدتُ لك الله الذي لا إله إلاَّ هو على ما ألهمك الله من عدم رضاك على نفسك، وقلة عجبك لها، لأن من المهلكات إعجابُ المرء بنفسه، وهذه صفةُ الصدِّيقين في المعاملة الذين لا يزالون (يأمنون عليها التحريف)[2]، نسألُهُ سبحانه وتعالى أنْ يثبّت أقدامنا من الزلل والحيْف، وأن يجمعنا في ذلك الخيف[3]، بجاه النبي الشريف.

وأما ما ذكرتُمْ لنا من الأوصاف القائمةِ بالنفس، وشكوتُمْ منها بقولكم: إنْ لم تذكروني فإن سفينتي ـ والله ـ لقد غرقت، لا علم ولا عمل، ولا توفيق ولا راحة قلب ولا بدن، قد تحققتُ الهلاك الأخروي. إلى غير ذلك من الشواغل وتكدير المشارب، فلا يغرنّك بعد[4] ما يجدك من الأهوال والصعوبات والمضرات وكدرات الأوهام وطيف الأحلام، فإنك ما دمت متمسكاً بعهدك، عاضاً عليه بنواجذك، معظماً لقدر شيخك[5]، وشرف مقصدك وشفاءِ شُربك، فإن سفينتك عائمة، وحبالها قائمة، ورياحها جارية، وأهلها ـ إن شاء الله ـ ناجية، إن صبرت على المعجزات، ورضيتْ نفسُك على مشاهدةِ

---

(1) اجتهاد في قراءة جملة غير واضحة تماماً لكن المعنى لا يخرج عما ذكر.

(2) اجتهاد في القراءة مع عدم الابتعاد عن الرسم المخطوط.

(3) الخيف: الناحية، وهي اسم في غرة بيضاء بالجبل الأسود الذي خلف أبي قبيس بالأراضي الحجازية وبها سمي مسجد الخيف، أو لأنها ناحية من منى.

(4) في الأصل «بعدك».

(5) يرى كثير من المتصوفة أن الشيخ ضروريّ لتأديب المريد وتربية عقله وروحه ويقولون من لا شيخ له فشيخه الشيطان.

المُهلكات، ولازمت طريقك من غير التفات، حتى تعثر في مسرات الشبات، فهكذا يكون رسُا النجاة.

فبعد ذلك تلقى المخاطيف بالحبائل! ويعسر عنك الأمر الهائل! وتبقى كالعبور على القنطرة إلى الساحل، وهي قنطرة (تحار) فيها الأفهام، ومحلُ مزالق الأقدام، فلا تُقْطَعُ إلاَّ بالتشمير، والصبر على الآثام.

ولبعض الأكابر - رضي الله عنهم في هذا المعنى:

ألا قـــل لمـــن رامَ دَرْكَ العُـــلاَ	ولـم يَـرْضَ دُونَ السُّهـا منـزِلا[1]
بحسـر[2] الهُمـوم وخَـوْضِ البَـلا	وقطـع الـرَّجـاءِ تنـالُ العُـلا
أخـا الفضـل لا تطْمعـنْ راحـةً	وإلاَّ دعِ الحـبَّ مـا مَثَّـلا
فـدُون الثُّغـور ودُونَ الشُّعـور	ودُونَ الكعـابِ ودونَ الطَّلـى[3]
أَسِنَّـةُ أحـداقِ سُـودِ العُيـونِ	وبيـضُ قُـدودٍ تُبيـدُ الكُلَـى
ودون الـرَّجـاءِ سهـامُ الجفـاءِ	ودونَ الـوِصـال نعـالُ الفَـلا
وجـزْ كُـلَّ نعـمٍ بـه وعـرة	ودع كـل سهـم وإلاَّ فـلا
(نـدِيمـي إمْـلَ لـي شـربـة	نعلـل بهـا مـن بهـا علـلا)[4]

ولتعلم يا أخي أن السفر إلى جنة المعارف فيه صعوبة وأنه مخالف لطبائع النفوس، والناس يميلون إلى الأسهل الموافق لطبائعهم، فإن السفر ذو مشقات، وترقى فيه العـ[illegible] الشاقات، ومن أجل ذلك تعذر السفر على أهل القلوب القاسيات، وأهل العقول الساخفات[5]، وأهل الشهوات العاجلات، فطريق

---

(1) السـها: كوكب من نبات نعش الصغرى يضرب المثل بخفائه وبعده.

(2) الحسر: الكشف.

(3) الطلى: الأعناق.

(4) هكذا جاء في النص ولا يخفى ما في الشطر الأول من خلل عروضي.

(5) لعل صوابها السخيفات، والسّخف: رقة العقل.

السفر ذات عاهات ومحن شاقات، لقوله ﷺ: «حُفَّتِ الجنة بالمكاره وحُفَّت النارُ بالشهوات» لأن جنة المعارف محفوفة ببلايا ومحن ومصائب، فإن توجه إليها أبناء الدنيا تعرضت إليهم تلك العوارض، وانقلبوا إلى شهوة الدار الفانية لأنهم لا يستطيعون اقتحام المحن أصلاً.

والعارفون اقتحموا البلايا والمحن والمصائب لأن مذاقها يعذب عندهم، فإن قيل كيف تعذبُ المرارة؟ وكيف تعود الصعوبة سهولة؟ أقول: من لم يعرف أسرار الأشياء يغرب عنه عملها، ولا يدخل جنة المعارف حتى يُطَهِّر جوارحه الظاهرة [من] المعاصي، ويُطَهِّر قلبه من (أسلاب)[1] حب الدنيا مثل الكفر، والعجب، والغضب، والحسد، وحب الجاه بالغيوب[2]، وإظهار الحكمة وتنقيص عوام المسلمين حتى يرى نفسه أكرم منهم، وما أشبه ذلك من مزبلة القلوب ـ عياذ الله من ذلك ـ.

ومراصد الشيطان كثيرة يعسر حصرها، وقلّ[3] مَنْ يسلم مِنْ رمايته إلاّ من حفَّهُ الحق بعنايته، ودخل تحت قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾. [الحجر 42 والإسراء 65].

فكن عبد الله تسلم، ولا تشرك بعبادته أحداً، لأن من أحب شيئاً كان له عبداً؛ (فلا تجعل عبوديتك إلاّ للواحد)[4] وجنة المعارف لا يدخلها إلاّ [من] هو طاهر. ومن لم يكن طاهراً دُفِعَ في قفاه حتى يبتعد عنها، ولو رآه أهلاً لها ما دفعه عنها، لأن لكل منزل ساكناً ولكل طريق سالكاً.

وعليك يا أخي بالاشتغال بالعلم النافع وهو علم القلب؛ لأن علم اللسان

---

(1) في الأصل «إنسلاب».
(2) لعله يعني دعاةُ الولاية الذين يوهمون الناس بمعرفة المغيبات.
(3) في الأصل: قبل.
(4) الأصل غير واضح.

لا يورث الخشية ولو كثر باللفظ، فهو شبيه الوزير وعلم القلب يشبه الأمير، فقد ورد في بعض الأخبار أن العلم علمان: علمُ اللسان وذلك حجة الله على نبيه آدم، وعلمُ القلب وذلك العلم النافع.

وقد قال عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ليس العلم بكثرة الروايات، إنما العلم الخشية، أراد ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28] فالخشية لا توجد إلاّ من علم القلب، لا من علم اللسان، فعلم القلب هو المطلوب المرغوب فيه وعلم اللسان مرغوب منه عند أهل البصائر.

واسلك يا أخي مسالك السلف الصالح في قوة العزم والانتهاض في العمل بالمسارعة إلى الطاعات، ولا يشغلك من حالة لأخرى شاغل، ولا يصدك عن شأنك شيءٌ من وظائف عيالك وأولادك، واجعل أحوال دنياك تبعاً لأحوال آخرتك، ولا تتمسك منها إلاَّ بما فيه عون على رضاء الله عز وجل.

وابتهل بعبادة الله، ولازم الأدب معه في كل شيء، والتوسل بالنبي ﷺ وكثرة الصلاة عليه، والتزم الأدب مع الله في كل شيء؛ وأعظم الآداب معه بحفظ أسرار الحق صيانة عن الخلق.

وكن مع الخلق برسمك ومع الله بالله، كما قال بعضهم وقد سُئل عن العارف فقال: العارف لا يرى في نومه ويقظته غير الله، ولا يرافق غير الله، وعند العارف من الاتساع ما يلبس به الحقائق بالرسوم، فهم في وادٍ وهو في واد.

وعليك بالصدق فإنه عماد الطريق للسالكين وباب حضرة العارفين. وفي هذا المحل كلام يطول، والفكر في الأوجه يجول، جعلنا الله وإياكم ممن كشف الغطاء، وفاز بالمنة والعطاء.

حذار حذار أن يكون اهتمامك بالرزق يشغلك عما يعنيك، وما يطلب

منك؛ لأن غالب الفترة عن الحضور والمشاهد تنشق من ذلك!! وعليك بالقناعة والزهد، ومن شروطها صيانة الفقر بكتمان الشدة، وقطع الشكاية مع التهاون بالدنيا في أكثر أوقات العمر، واتخاذ الفقر حرفة مع السرور به، وفقد النفور عنه، كما قيل: إذا رأيت الفقر (فقل) مرحباً بشعار الصالحين، واقتصر على قوة القلب من الله تعالى، وإحالة الفكر في عظمته وجلاله، وصرف الهمة عن سواه.

وفي هذا المعنى قال الشاعر[1]:

ألا قُلْ لخلٍّ تمادى على	ركوب الدُّنا ما الذي أخْمَلَكْ
أتطمعُ في جيفةٍ حَدَبَتْ	عليها كلابٌ وما عللك
فلا تغترزْ بالخيال الذي	يدورُ عليك كدور الفلك
ودع ما تريد وما تَشْتَهي	فما ثَمَّ إلاَّ مرادُ هلك
وعِشْ خاملَ الذكر ذا همة	تكاد تلابسُ ذات الحُبُكْ[2]
وإما أرتك سنَى [ظاهراً]	فحاذر وإياك أن يخدعك
وطَهِّرْ قُلَيْبَكَ من وَهْمِهِ	وهيىء منازلَهُ للملك
ولاحظ بعين البصيرة في	أمور الأزل قد تجد راحتك
ولا تَكُ عبداً لدنيا ولا	لبطنٍ وفرْجٍ ولا درهمك
وحب الرئاسة والجاه دع	كنيف البواطن لا ينجسك
وأوْرِدْ مناهلَ صفو الوفا	(وإلاَّ يخالف ففيمن هلك)[3]
وانصبْ خيامك حولَ الحمى	وكنْ مذهبَ الحبِّ هُوْ مَذْهَبَكْ

(1) يعني بالشاعر نفسه، وحتى لا تنصرف نسبة الشعر إلى مجهول كتب فوق هذه العبارة «قلنا أبيات» وبذلك يتضح أن قائلها أحمد بن عبد الدائم.

(2) الحبك من السماء: طرائق النجوم، وذات الحبك هي السماء.

(3) لا يخفى الخلل في هذا الشطر والمعنى ظاهر.

وكــن ذا علــوم ببحــر الهــوى ... (فخضه كذا العرج لا يمنعك)[1]

وحــب حبيــبٍ لنــا يــرتجــى ... عليــك بــه إنــه عمــدتــك

وطَفِّــخْ كُــؤُسَــكَ مــن نــوره ... (فمــن ذا الــذي بعـد ذا يعدلـك)

تعيــشُ سعيــداً بــه آنســاً ... ويكفيــك كــلَّ الــذي أشغلـك

أيَــا حــادي العيس عَــرِّجْ بنــا ... وقِفْ بـالمحصِّبِ كـي أَسأَلك[2]

علــى رتــب الغيــد وهــي التـي ... تُطيِّــبُ مــن إثــرهــا أثَــرَكْ

فهــل خيمــتْ عنــد ذاك الحِمَــى ... وإلاَّ تقـاصـت فَسَـلْ مـن سلـك

أقــامــت بقلبــي عنــد النــوى ... جيوشُ الفضا في الهوى المعترك

فكـم لـي أرى القتْـل مـن هجـرهـا ... بصــارِم لحــظٍ لهــا تــدفنــك

وكـم أرتجـي الـوصـل مـن وُدِّهـا ... (وكــم أرتجــي . . . .)[3]

فيـا عظـم وجـدي وشـوقـي لهـا ... (أُراعي النجومَ ببحر السمك!)[4]

فسلِّــمْ لسلمــى وكُــنْ عبــدهــا ... (ودُرْ حيــثْ دارتْ ولا تهملـك)[5]

وفــارق مقــامــك فــي (حبــه)[6] ... وخــلِّ الــربــوع وذَرْ مضجعــك

فيــا صــاح إن شئــت نيــل المنــى ... فحيِّــر نفــوســاً تجـد مطلبـك

ومهمـا مـلا لـك سَـاقـي المـلاح ... (فخـذ عنـه لا تتـركـن راحتـك)[7]

(أمسكــاً تنشقــت مــن كفــه ... أرشـداً بـدا لـك مـن شـربتك؟)[8]

---

(1) محاولتان للقراءة لا تبدوان بعيدتين عن الصواب.

(2) المحصب: موضع رمي الجمار بمنىً.

(3) اجتهاد في قراءة النص مع المحافظة على ألفاظ الأديب.

(4) اجتهاد في قراءة النص مع المحافظة على ألفاظ الأديب.

(5) شطر غير واضح.

(6) كذا ولعل الصواب في حبها.

(7) الصواب: اهتديت.

(8) اجتهاد لا يطابق الحروف تماماً.

وبـالخـال غـنّ وكـن مطـربـاً (وبـالـراح تـرتـاح مـن عُمُـرِك)
وبـالعشـق تحيـا وتضحـى بـه فـريـد المعـارف فـي غـربتـك
فكـلُّ غـريـب لـذا يهتـدي وتضحـي العـواشـق فـي رُقبتـك
وتلبـس تـاج العُـلا سَـرْمَـدا وقـد تنظـر الكـون فـي قبضتـك
فهـذي طـريقـةُ أشْيَـاخنـا فـإمَّـا عليـك وإلاَّ فَلَـك
عليهـا مـوانـع قـاطعـة ومـن لـم يَجُـزْهَـا غـداً مـرتبـك
ومـن فـاز بـالعـزم حتـى مضـى يقـولُ لـه النـاسُ مـا أشجعـك
ظَفِـرتَ بعَنْقَـا مُغَـرِّب فـي[1] ريـاضٍ وعـانقـت مـا أنحلـك!
هَـديـتُ لكـم كُـلَّ مـا أسفـرت (لغيـرك يـومـاً ومعنـاه لـك)[2]
غـريبـة قـومٍ لهـا شـرف فـريـدة حسـن بهـا مـا ملـك
إذا مـا تـوشـت[3] علـى صرحهـا أتـاك سنـا بـرقهـا بشـرك
فَخُـذْهَـا بعـزمٍ وصُـنْ سـرَّهَـا فمـا غيـر أهـلٍ لهـا قـد ملـك

4 - قصيدته في الرد على مجادل:

أرسل إليه أحدهم[4] سؤالاً من مدينة جربة يجادله - على ما يبدو - في قضية من القضايا الخلافية، فكانت هذه القصيدة مثلاً لذلك الجدال الصادر عن التعصب الكلامي الذي تعاظم خطره في عصور التخلف والابتعاد عن منبع الشريعة السمحة.

---

(1) عنقاءُ مغرب في القاموس المحيط اسم لطائر غير معروف الجسم يضرب المثل به في كل ما عز طلبه وربما استحال.
(2) الصواب: أهديت.
(3) اجتهاد في القراءة.
(4) لم أتعرف على المرسل ولم أقف على نص السؤال.

وحين نعرض لقصيدة تمثل جانباً من الجدل بين رأيين من تلك الآراء وتصور التعصب الكلامي في زمن إنشائها لنَذْكُر بأنها مثال حيٍّ لمرحلة من مراحل التحجر في ميدان الدراسات الإسلامية تجاوزه العصر أو ينبغي أن يتجاوزه.

وليس الغرض من نشرها هنا إلاَّ تنبيه إلى ما تشتمل عليه من خصائص فنية تستحق الوقوف من قبل الناقد الأدبي، وربما كانت لها أهمية أخرى للمؤرخ الثقافي والدارس اللغوي وغيرهم من ذوي الاهتمامات المختلفة.

النص

ألا قل لمن رام المسالك في الدجى	وزاغ عن النهج القويم وبهرجا[1]
بصرت وميضاً في غياهب سَمْلق	سموت إليه في سراك ومعرَّجاً[2]
ظننت قباب الحي أقبلت نحوها	وقد كذبت عيناك وانقطع الرجا
ألا أيهــا المغتــر نكثــك قــد بــدا	ونسجك أضحى بالتناقض محلجا[3]

ومنها أبيات يهجو فيها شيخ مخاطبه، تمثل ذلك التعصب وما آل إليه من انتقاص الآخرين:

ونحــن بــه أدرى وقــد بــان أمــره	لكل إمام حيث أغرى ولوَّجا[4]
خليفــة مــن حــلَّ النظــام بخلفــه	وشق عصا الإسلام جوراً وهبرجا[5]

---

(1) البهرج: الباطل.

(2) الوميض: اللمعان، والغياهب: الظلمات، والسملق: القاع الصفصف.

(3) محلجاً: آلة الحلاجة، وحلج القطن أخرج منه بذره.

(4) التلويج: التعريج.

(5) هبرج: من معاني الهبرج المشي المختال:

وآذى علياً ابـن عـم محمـد وصهـر رسـول الله بـالنـور تُـوِّجـا

وكفَّـر بـالتحكيـم أعلـمَ عـالـمٍ بِسِـرِّ كتـاب الله تـابعـه نجـا

هو الباب من يعدل عن الباب لم يجد لنيل الأماني والمطالب مدرجا[1]

أيا صاحب الأوراق جئت مجادلاً جدالك أضحى بالقصور مدبّجا

بـأحجـارنـا يـا قـاصـراً قـد رميتنـا فهلاَّ لكم قولان عزواً ومنهجاً[2]

كمـن دخـل الهيجـا بغيـر كنـانـة ولا صارم يحمي إذا الحرب أرهجا[3]

(1) الباب: يشير بذلك إلى ما ورد في بعض الآثار من أن الرسول ﷺ مدينة العلم وعليّ بابها.

(2) عزا الرأي إلى صاحبه نسبة إليه، وهذا بيت مهم لأنه يؤكد على طبيعة التفكير العلمي لدى الشاعر بتركيزه أسس الجدل على الأمانة العلمية والمنهجية.

(3) أرهج: أثار الغبار.

خاتمة

وبعد، فتلك كانت بعض آثار الأديب المتصوف والفقيه القاضي أحمد بن عبد الدائم الأنصاري. وفيها غيرة على عقيدته ووطنه قد تصل به إلى الحدة والتعصب، لكنها تظهر أن هذا المتصوف لم ينفصل عن قضايا مجتمعه. كما تبدو لدارس هذه الآثار صورة تقريبية عن الحياة الثقافية في القرن الثامن عشر وطبيعة اهتمام المثقفين فيه.

وقد رأيت أن أُرْجِيء الحكم على الخصائص الفنية لهذه الآثار إلى دراسة تالية ـ إن شاء الله تعالى ـ لكني أؤكد هنا عِظَمَ القيمة التاريخية لهذه النصوص، وآمل أن يتجه الباحثون إلى نشر المزيد من آثارنا الأدبية والفكرية قبل الحكم عليها سلباً أو إيجاباً، فنحن في أمس الحاجة إلى العناية بمخطوطاتنا قبل فوات الأوان.

المصادر والمراجع

أ ـ المخطوطات:

1 ـ مخطوطة أولياء طرابلس لعبد الرزاق أبو كميشة الغرياني، محفوظة بمركز جهاد الليبيين.

2 ـ رحلة محمد الصميلي (1139 ـ 1140 هـ) (الجزء المتصل بليبيا) نسخة مضروبة على الآلة الكاتبة بتحقيق عمار جحيدر.

3 ـ ترجمة لأحمد بن عبد الدائم الأنصاري، بقلم أحمد الفقيه حسن الحفيد، من وثائقه التي ضمت إلى مركز جهاد الليبيين.

4 ـ الفتح المبين والدر الثمين للهاروش المغربي، من محتويات مكتبة الحاج علي الهرامة.

ب ـ المطبوعات:

1 ـ أمير مغربي في طرابلس (1143 ـ 1731) (أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي) تحقيق عبد الهادي التازي، مطبعة فضالة.

2 ـ أعلام ليبيا، الطاهر أحمد الزاوي، طرابلس مكتبة الفرجاني، 1971 م.

3 ـ أعلام من طرابلس، علي مصطفى المصراتي، طرابلس 1972 م.

4 ـ تاريخ الدولة العلمية العثمانية، محمد فريد، دار الجيل 1977 م.

5 ـ التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار، لابن غلبون، تحقيق

الطاهر الزاوي، طرابلس، 1967 م.
6 ـ الحاجية (ثلاث رحلات عبر ليبيا) تحقيق علي فهمي خشيم.
7 ـ الشعوب الإسلامية، عبد العزيز سليمان نوار، دار النهضة العربية، 1973م.
8 ـ القاموس المحيط للفيروزابادي.
9 ـ مجلة البحوث التاريخية يناير 1982 م.
10 ـ نفحات النسرين لأحمد التائب.

بعض المصادر العربية

لتاريخ الصوفية في ليبيا

بعض المصادر العربية
لتاريخ الصوفية في ليبيا[1]

أجدني مضطراً إلى وقفة تمهيدية لتفسير دوافع هذه الدراسة، فبعض الذين يطالعون عنوانها قد يتبادر إلى أذهانهم أنها ستسبح بهم في شطحات الصوفية وأوراد القوم، وتنبش آثار الماضي المولى محاولة إنقاذ أصحاب المزارات التي صارت أثراً بعد عين.

وربما اعتقد غير هؤلاء أن إعداد هذه الأوراق كان من أجل النيل من الأولياء وأصحاب الطرق وتحميلهم مسؤولية التخلف الذي عاشه المجتمع الإسلامي في عصور الانحطاط. والواقع أن هذه المحاولة المتواضعة لا تسعى إلا إلى دراسة بعض ملامح تاريخنا الثقافي، بقصد التعرف على إيجابياته وسلبياته للإفادة من ذلك في تطوير المجتمع وتخطيط مستقبله بهدى من معرفة ماضيه الثقافي وتكوينه الاجتماعي.

والكتابة عن الصوفية في ليبيا قضية ثقافية جديرة بالعناية والتتبع لأسباب متعددة لعل أبرزها ما يلي:

أولاً: يعد تناول الحياة الصوفية دراسة لجانب من حياة هذا المجتمع يستوجب منا الوقوف عنده والتأريخ له، لما لدراسة الحياة العامة للناس من أهمية لا تخفى في ميدان الدراسات المستقبلية والتاريخية.

(1) نُشرت بمجلة تراث الشعب، العدد 17 ـ 18 لسنة 1985 م، ص 106.

ثانياً: إن الكتابة عن تاريخ الصوفية مهمة لاعتبارات ثقافية وعلمية، وذلك لأن تناولها يصلنا بالكثير من المخطوطات والمصادر الصوفية، وهي ستقودنا بالتالي إلى معارف ومعلومات ومعتقدات كانت سائدة في هذا المجتمع وربما ما زالت كذلك.

كما ستقودنا إلى التعرف على أبرز أعلام التصوف في بلادنا، وعلى مناشطهم الأخرى. وهو الأمر الذي يضع أصابعنا على ناحية كانت ولا تزال فقيرة جـداً في حياتنا الثقافية، وأعني بها المزيد من التعرف إلى تاريخنا الثقافي.

إننا متهمون ـ إذا صح التعبير ـ بأننا نعيش في منطقة بينية تقع بين مجتمعين متحضرين في مصر وتونس، وعلينا أن ندحض هذا الاتهام بالحقائق العلمية أو نخضع له، ومن واقع التجربة أقول: إن المصادر الصوفية لا تقل أهمية عن كل المصادر في هذا الشأن.

ثالثاً: إن في المخطوطات الصوفية إشارات متعددة إلى أحداث تاريخية لا يستغني عنها الباحث في مجال تاريخ هذا الشعب ونضاله ضد الغزو الخارجي. وقد أخذت جماعة من المتصوفة صفة المرابطين من مرابطتهم على الثغور وحراستهم للشواطىء، واشتهر بذلك من متصوفة هذا البلد عبد الجليل الحكيمي ومحمد الأندلسي وأبو محمد عبدالله الشعاب وغيرهم.

وفي كتب الصوفية إشارات إلى بعض من تولى مقاليد البلاد وشيء من طبيعة مسلكهم وإشارات أخرى إلى أيام الحصار والمحن والأمراض والجفاف وأنواع العملات وأسماء منقرضة لبعض المناطق وما إلى ذلك من المعلومات ذات الأهمية.

رابعاً: والكتابة عن تاريخ الحياة الصوفية مهمة أيضاً من حيث إنها تتناول المجتمع وأفراده، وذلك لأن البيئة بعواملها المختلفة، ومن بينها العوامل الاجتماعية والثقافية والحضارية، تسهم بأكبر قسط في تشكيل شخصية الفرد،

وفي تعيين أنماط سلوكه وأساليبه في مواجهة مواقف الحياة(1).

فإلى أي مدى كانت الصوفية فاعلة في حياة هذا الشعب أفراداً وجماعات؟ وماذا يمكن أن نستفيد من خلال مراجعة مصادرها في دراسة تاريخنا السياسي والثقافي والاجتماعي؟.

إن مثل هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات وافية، وهذه تستلزم دراسة مستفيضة للحياة الصوفية في ليبيا لا يمكننا استكمالها في هذا الحديث الموجز، وحسبنا هنا أن نسلط الأضواء على بعض المصادر العربية لدراسة التصوف في بلادنا وفي شيء من السرعة والإيجاز.

ونحب أن نضع في الأذهان أنها مجرد سرد مشروح للمصادر العربية لتاريخ الصوفية في هذا الوطن قد يحتاج إليها الباحث المتقصي في هذا الموضوع ليكشف عن إيجابياته ومحاسنه أو سلبياته ومساوئه.

إن أغلب المؤلفات التي سنشير إليها موجودة في صور مخطوطات أو مطبوعات، وقليل منها مفقود، لكن الأمل وطيد في أن الاهتمام بدراسة المخطوطات العربية الليبية سيكشف أضعاف هذه المصادر، ويشفي ظمأ المؤرخ الثقافي المتلهف إلى المعرفة حول الحياة العلمية والاجتماعية في بلادنا وعن تاريخها الإسلامي، أقول هذا من خلال زيارات ميدانية وتصفح لعدد من المخطوطات في بعض المكتبات العامة والخاصة.

ويمكن تقسيم هذه المصادر بحسب تخصصها وطبيعة الكتابة فيها إلى المجموعات التالية:

كتب التصوف ـ كتب المناقب ـ الرحلات ـ كتب التاريخ العام ـ كتب التراجم الخاصة والعامة ـ الدوريات والمصادر الشفهية.

---

(1) الصحة النفسية والعلاج النفسي ـ تأليف: حامد زهران، ص 79.

أ ـ المجموعة الأولى: كتب التصوّف:

ونعني بها تلك الكتب التي ألفها في هذا الموضوع عرب ليبيون، أو تلك التي ألفها غيرهم وتناولت بعض مظاهر الحياة الصوفية في بلادنا، مع ذكر أمثلة من المؤلفات الصوفية السائدة في بلادنا منذ القرن العاشر (السادس عشر الميلادي) تقريباً حتى الآن.

فمن النماذج الممثلة لهذه المجموعة تآليف الشيخ أحمد زروق المتوفى سنة 899 ونفضل عدم الاسترسال في ذكرها لأنها معروفة مشتهرة.

ويكفي ما كتبه الدكتور علي فهمي خشيم في (الزروق والزروقية) أو ما كتبه عبدالله كنون في (النبوغ المغربي) والطاهر الزاوي في (أعلام ليبيا) لنجد سرداً وافياً لتلك المؤلفات.

على أن شهرة مؤلفات الزروق قد تجاوزت المغرب وليبيا، ويكفي على المستوى العربي أن نطالع الأعلام للزركلي أو معجم المؤلفين لرضا كحالة لنجد بغيتنا حول تلك المؤلفات.

والذي يهمنا هنا هو أن مؤلفات أحمد زروق كانت معروفة متداولة في معظم المراكز التعليمية ومكتبات العلماء ببلادنا، وكانت إحدى مصادر الثقافة الصوفية المعروفة عندنا.

ومن التآليف الصوفية التي كانت مشهورة بين العامة والخاصة وصايا وأوراد وأشعار عبد السلام الأسمر، وله أيضاً العظمة في التحدث بالنعمة وأسانيد الطريقة العروسية.

وقد وقفت على وصيته الصغرى والكبرى فوجدت أفكاراً ومواعظ تستحق الدراسة والتأمل لمعرفة طريقة هذا الرجل وفهمه للتصوف الصحيح.

عرف في إحداهما التصوف فقال: (اعلموا رحمكم الله أن التصوف هو تصفية القلب من الأدناس الذميمة واجتناب الغيبة والنميمة، ومفارقة أخلاق

الطبيعة وإخماد صفات البشرية ومجانبة الدعاوى النفسانية ومنازلة صفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة والنصح لجميع الأمة واتباع النبي ﷺ في الشريعة).

وكنت عند جمع مواد هذه الدراسة قد استعرت مخطوطاً في التصوف مبتور الأول والآخر من الباحث عمار جحيدر تبين بعد مطالعته ومقارنته مع ما كتبه إسحاق المليجي عن مؤلفات عبد السلام الأسمر أنه جزء من الوصية الكبرى، وأن هذا الجزء أفضل من نظيره في كتاب المليجي المطبوع، وذلك لما في هذا الأخير من تصحيف مخل بالمعنى في بعض الأحيان.

أما شعر عبد السلام الأسمر فأغلبه عامي، بخلاف نثره الذي يميل فيه إلى الفصحى الميسرة، وهذا ما جعل بعضهم يشك في نسبة كثير من ذلك الزجل العامي إليه.

ولا يخفى أن للصوفية أهدافاً من نشر تراثهم بتلك الصورة التي مكنتهم من شرح طرقهم بين السواد الأعظم من أفراد الشعب في فترات طغت فيها الأمية وعم فيها الجهل والتخلف. ونذكر بالمناسبة أن ممن اتجه إلى مخاطبة العامة بلغة ميسرة الصوفي الأندلسي محي الدين بن عربي الذي كان أول من أدخل التصوف إلى الموشحات، نظراً لسهولة ألفاظها ولانتشارها بين العامة والخاصة.

ثم جاء تلميذه أبو الحسن الششتري فكان أول من أدخل العامية إلى صلب الموشحة الصوفية، وكانت لا تقبل في غير الخرجة ثم صنع أزجالاً كاملة في التصوف، ولعله بذلك كان الأصل الذي اتبعه المتصوفة فيما بعد.

ولا ننسى أن الششتري هذا قد أقام في بلادنا حتى مازجت لهجتها لسانه، وفي أزجاله وموشحاته الباقية بعض مفردات اللهجة العربية الليبية[1]، ثم إن

---

(1) انظر ديوانه بتحقيق الدكتور سامي النشار في مواطن مختلفة.

لاهتمام بتراثه لم ينقطع حتى في العصر الحديث.

ويعرف من لهم صلة بمؤلفات أحمد زروق أن له شرحاً على قطع الششتري، بل إن هذه القطع كانت تقال في حضرة الحطاب برغم ما عرف عنه من الوقار وكثرة الصمت والانصراف إلى العلم[1].

ونعود إلى كتب التصوف التي ألفها ليبيون فنشير إلى مؤلفات أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي، ومنها شروح على الصلوات المشيشية وحكم ابن عطاء الله والأنس في شرح عيوب النفس وحكم الخروبي نفسه وشرحها وشرح عيوب النفس وتراجم شيوخه وغيرها[2].

ومما وقفت عليه مخطوطاً من كتب التصوف (فيض الخلاق) بشرح وسيلة المشتاق لمحمد بن علي الداودي الغرياني الذي له مؤلفات جيدة بدار خزانة الكتب التونسية ومكتبة حسن حسني عبد الوهاب وقسم الوثائق والمخطوطات بمركز جهاد الليبيين.

والكتاب الذي بين أيدينا يمتاز بإظهار ثقافة الشارح اللغوية المتينة ولكنه لا يخفي سعة اطلاعه في ميادين التصوف والعقيدة والسيرة النبوية.

وفي الكتاب أخذ من أقوال علماء كثيرين من أمثال الخروبي، والبرزلي، وابن العربي، وابن حجر، وزروق والسيوطي والبيضاوي، وابن عرفة، والتلمساني وسواهم.

ومما كتب في التصوف منظومات شعرية لعدد كبير من علماء هذا البلد وشعرائه خلال الحقبة الزمنية التي نتدارسها. نذكر منها على سبيل المثال منظومات شعرية لعبد اللطيف قنونو، ومحمد الضاوي، وأحمد البهلول، وعلي الأمين سيالة، وأحمد عبد الدائم، والخروبي، والتندميري، وهذا فضلاً عن

---

(1) تنقيح روضة الأزهار، ص 255.

(2) لدى مكتبة كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس صور من أغلب آثار الخروبي.

الأزجال الكثيرة التي نجد بعضها في البرموني وكتاب الأولياء ومختصر أحمد المهدي الغزال، تلك الأزجال التي كانت أناشيد المتصوفة وأشعارهم المفضلة...

وفي القرن التاسع عشر الميلادي نشير إلى مؤلفات محمد ظافر المدني ومنها (الأنوار القدسية في شرح طرق القوم العملية) و (أقرب الوسائل لإدراك الوسائل) وبعض الأدعية والأوراد... وهي في مجموعها تؤيد الطريقة الشاذلية وتقدمها إلى المريدين في ثوبها الظافري الجديد الذي جعل بعضهم يدعوها بالطريقة المدنية نسبة إليه.

كما نجد في هذا القرن مؤلفات محمد بن علي الخطابي في شرح طريقته، ولأحمد بن عبد الرحمن الساعاتي مؤلف في أدلة أفكار الوظيفة الزروقية أسماه (تنوير الأفئدة الزكية)[1].

وبيَّن علي الأمين سيالة معالم الطريقة القادرية بوضوح في كتاب (عقيدة الأكابر المقتبسة من أحزان وصلوات الشيخ عبد القادر) وله كتاب في الأقوال والأدعية التي يرددها مريدو الطريقة[2] وله منظومات فصيحة تقدمت الإشارة إليها، ودروس في العقائد والفقه وسمت طريقته بميسم المدرسة التربوية التي تعني بالروح والعقل معاً.

ومما له صلة بالتصوف في ليبيا مخطوطات وقفت عليها في بعض مكتبات الجبل الغربي، أختار هنا واحداً منها لإشارته إلى بعض المتصوفة الليبيين ونقله من أقوالهم وأعمالهم.

واسم هذا المخطوط (الفتح المبين والدر الثمين في فضل الصلاة على سيد المرسلين) لعبدالله الخياط بن محمد الهاروش المغربي الفاسي[3] جعله

(1) البيليوغرافيا المشروحة، ص 74.
(2) لعله كتاب التحفة القادرية الموجودة بمكتبة أوقاف طرابلس.
(3) وجدت في الحاشية (منشأ ودارا ثم التوسي رحلة ومزارا) والأولى أن يقول الطرابلسي=

مؤلفه في مقدمة وثمانية أبواب وخاتمة وتتمة وخصص الباب السابع منه للكلام عن شيخه أبي العباس أحمد بن جابر النائلي وبعض شيوخه وتلاميذه مع إشارات لبعض علماء بلادنا في ثنايا الأبواب الأخرى.

ولقد كنت أظنني سأجيء بجديد بذكر من فيه من الأعلام وما فيه من الأخبار، حتى وجدت أحمد النائب الأنصاري قد ذكر في كتابه (نفحات النسرين) معظم هؤلاء الأعلام نقلاً عن المصدر نفسه وذكر المؤرخ الطاهر أحمد الزاوي في الأعلام أن الهاروش أثنى على أحمد بن جابر في كتابه (كنوز الأسرار) والصواب أن الترجمة في الفتح المبين أما كنوز الأسرار فلا يحتوي إلا على صلوات على النبي ﷺ وقد أُتي الأستاذ الزاوي من كون المخطوطين في مجموع واحد مبدوء (بكنوز الأسرار).

وإذا عرجنا للحديث عن المصادر الصوفية السائدة في البيئة موضع الدراسة منذ القرن العاشر فسنجد قائمة طويلة لا يتسع المقام لذكرها.

ولكن يكفي على سبيل المثال أن نشير إلى ما ورد في مخطوط (الفتح المبين) المتقدم ذكره من أن صاحبه جاء إلى طرابلس واجتمع بأحمد بن جابر سنة 1126 هـ (1714 م) وأنه قرأ عليه مجموعة من كتب التصوف السائدة في ذلك الوقت، وقال معترفاً بفضله: «ولا شك أنه الذي اقتبسنا من أنواره، وسلكنا على منهج آثاره فأسرع بأسرارنا حتى لحقت، وفتق ألسنتنا حتى نطقت إشارتنا لا تنسب إلا إليه، ولا نعتمد في هذا الشأن إلاَّ عليه، فمن نسبنا لغيره فهو بأمرنا جاهل، أو عالم متجاهل).

فما هي المؤلفات التي قرأها عليه حتى استحق من أجل تعليمها هذا الثناء؟ يقول الهاروش: (فمما قرأت عليه منها «عوارف المعارف للسهروردي»، كتاب «آداب المريدين له»، وهما من أمهات كتب التصوف، وطرف من القوت

= رحلة ومزاراً، لأن إقامته وأخذه كان في طرابلس إلا إذا اعتبر تبعيتها لتونس وهي غير حاصلة في ذلك التاريخ.

وطرف من الإحياء. وقرأت عليه من كتب ابن عطاء الله: الحكم، والتنوير، وتاج العروس، ولطائف المنن، والقول المفرد، والاسم المجرد، ومفتاح الفلاح...

ومن كتب ابن عباد: (التنبيه والرسائل الكبرى). (ومن كتب العارف بالله سيدي زروق النصيحة الكافية وبذل المناصحة، ورد الحوادث والبدع، وأصول الطريق، ومبنى الطريق، وإعانة المتوجه المسكين، وعدة المريد الصادق، وشرح عيوب النفس[1]، وشرح المباحث الأصلية، وشرح الوغليسية، وشرح القرطبية، ونبذة من شرحه لرسالة ابن أبي زيد، وكتاب القواعد من نسخة عليها بخط المؤلف، وشرح حزب البحر والنصيحة الكبرى التي اختصر منها الكافية، وكتاب الجامع للفوائد، ومن شروحه على الحكم الثامن عشر والسابع عشر والخامس عشر والحادي عشر، وكان رضي الله عنه[2] له مزيد اعتناء بكتب العارف بالله سيدي أحمد زروق لجمعه فيها بين الشريعة والحقيقة).

(وقرأت عليه من كتب «الشيخ» سيدي عبد الوهاب الشعراني العهود المحمدية، وكتاب المنن، والأخلاق، وكشف الران، والطبقات الوسطى والصغرى، وشرح الشيخ داود الباخلي على حزب البحر، وشرح الشيخ الرماح على الحكم، ومقصورة «سيدي» أحمد الوزير في الطريق، وشرح شيخنا العارف بالله عبد القادر الفاسي للحسن الحصين، وأيضاً حاشية سيدي عبد الرحمن الفاسي على الحزب الكبير، ومطالعة المسرات لشيخ شيوخنا سيدي المهدي الفاسي، وحل الرموز ومفتاح الكنوز للمقدسي، ومدخل ابن الحاج وكتاب شيخه ابن أبي جمرة... وروض الرياحين لليافعي...).

هذا بالإضافة إلى ما أخذه عنه من الوظائف والأوراد فانظر من خلال هذا

---

(1) ينسب نظم عيوب النفس للشيخ أحمد الزروق أما شرحه فمعروف النسبة إلى أبي عبدالله الخروبي تلميذه الذي شرح نظم أستاذه الزروق بعنوان «الأنس في شرح عيوب النفس»، وفي مكتبة الباحث صورة من إحدى نسخ المغرب، وفي تونس نسخة أخرى برقم 7855 ومنه نسخة في المتحف البريطاني DCXXIV.

(2) يعني ابن جابر النائلي.

المثل لرجل أربى على الثمانين سنة كيف كانت الحياة العلمية في هذا البلد خلال القرن الثاني عشر الهجري - مزدهرة وهي الفترة التي شهدت مراسلات فيها أسئلة من جربة ومن المغرب إل علماء من طرابلس وحفظ التاريخ ردودهم عليها.

ب ـ المجموعة الثانية: كتب المناقب:

وهي تلك المؤلفات التي قصد منها الترجمة لأحد المتصوفة متعرضة لنسبه وعبادته مع التركيز على كراماته، وأدعيته، وطريقته، وكثيراً ما تتناول هذه المؤلفات معارفه وأسماء شيوخه، وتلاميذه وتنقلاته. فمن هذه الكتب:

1 ـ مناقب محمد الأندلسي أحد أعلام القرن التاسع الهجري ذكره عبد السلام الفيتوري في إشاراته وأشار إلى أن مناقبه مدونة في تآليف اطلع عليه أبو راوي الفيتوري المتوفى سنة 1088 هـ[1].

2 ـ ما كتب عن مناقب عبد السلام الأسمر المتوفى في سنة 891 هـ وهي مؤلفات كثيرة نجملها ثم نفصل القول في بعضها، فمنها كتاب (النور النائر) لتلميذه السنهوري، والبحر الكبير والمتوسط المعروف بالكبريت الأحمر، ومؤلف آخر صغير لتلميذه عبد الرحمن مكي، وكتابان لخليفته في أمر الطريقة عمر بن جحا، وكتاب واحد لكل من عبد الرحمن الفيتوري وأحمد علي الشريف المسلاتي، وسعيد التطويني، وسالم بن طاهر، ومعتوق المدني، والفاسي، وعبد الوهاب الحطاب، ومحمد علي الزليطني الذي سمى كتابه بالبرهان. ولأحمد بن جابر كتاب صغير مطبوع عن حياة الشيخ، وألف محمد بن عطية كتابين في نفس الغرض أحدهما كبير والآخر متوسط كما ألف عبد السلام بن عثمان التاجوري كتابين أحدهما كبير ولم أقف على اسمه والآخر صغير مطبوع وأسماه (فتح العليم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم) ولعلي ابن عبد الصادق كتاب بعنوان (منح العليم في مناقب «سيدي» عبد السلام بن

---

(1) الإشارات، ص 28.

سليم) ذكره الفاسي في رحلته[1].

وأهم هذه المؤلفات جميعاً كتاب البرموني المسمى (روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار) لتلميذه كريم الدين البرموني، منه نسخة في مكتبة مركز جهاد الليبيين تحت رقم 821 تقع في 196 ورقة، فرغ من تأليفها سنة 1005 هـ (1596 م)[2].

اشتهر هذا الكتاب بين المطالعين باسم مؤلفه، حتى خفي عنوانه الأول. واختصره القاضي محمد بن محمد بن عمر مخلوف في قدر ثلث الأصل... وبينما وضع البرموني كتابه في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة نجد صاحب التنقيح قد وضعه في ثمانية مطالع وخمسة وثلاثين باباً تناولت المقدمة التي ذكر فيها الولاية وما يتعلق بها، ثم فصل القول في الطريقة العروسية، ونسبه، وصفته، وتربيته، ومحنته، وتنقلاته، وطائفة من مدائحه، ووصيته الصغرى وأدعيته، ثم تعرض لوفاته، وذكر أولاده وبعض مشائخه وتلاميذه، وتناول الكتب التي ألفت حوله حتى ذلك الحين وتخلل عرضه الكثير من القصص والخوارق حول كراماته ومناقبه.

أما من المعاصرين فقد جمع إسحاق إبراهيم المليجي كتاباً أسماه (على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر). وضعه في ستمائة وإحدى وعشرين صفحة باستثناء المقدمة، ولكن كتاباته اتسمت بالتكرار واضطراب المنهج، وعدم وجود الفهارس أو المصادر التي استقى منها معلوماته.

ويبدو للمطالع من خلال قراءة عابرة أن مادته كتبت على هدى من (روضة الأزهار) للبرموني، لاشتماله على القصص والأخبار والأعلام التي أوردها الأخير، أما ما زاده عليه فخارج عن موضوع الكتاب ويتعلق بعضه ببعض الأنبياء مثل قصة يوسف وموسى والخضر ونوح عليهم السلام.

---

(1) القسم الخاص بليبيا من رحلة ابن الطيب الفاسي بتحقيق عمار جحيدر، ص 26.

(2) علمت أن هذه النسخة غير كاملة وأن هناك نسخة أوفى منها عند إحدى الأسر بزليطن.

سليم) ذكره الفاسي في رحلته[1].

وأهم هذه المؤلفات جميعاً كتاب البرموني المسمى (روضة الأزهار ومنية السادات الأبرار في جمع بعض مناقب صاحب الطار) لتلميذه كريم الدين البرموني، منه نسخة في مكتبة مركز جهاد الليبيين تحت رقم 821 تقع في 196 ورقة، فرغ من تأليفها سنة 1005 هـ (1596 م)[2].

اشتهر هذا الكتاب بين المطالعين باسم مؤلفه، حتى خفي عنوانه الأول. واختصره القاضي محمد بن محمد بن عمر مخلوف في قدر ثلث الأصل... وبينما وضع البرموني كتابه في مقدمة وخمسة فصول وخاتمة نجد صاحب التنقيح قد وضعه في ثمانية مطالع وخمسة وثلاثين باباً تناولت المقدمة التي ذكر فيها الولاية وما يتعلق بها، ثم فصل القول في الطريقة العروسية، ونسبه، وصفته، وتربيته، ومحنته، وتنقلاته، وطائفة من مدائحه، ووصيته الصغرى وأدعيته، ثم تعرض لوفاته، وذكر أولاده وبعض مشائخه وتلاميذه، وتناول الكتب التي ألفت حوله حتى ذلك الحين وتخلل عرضه الكثير من القصص والخوارق حول كراماته ومناقبه.

أما من المعاصرين فقد جمع إسحاق إبراهيم المليجي كتاباً أسماه (على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر). وضعه في ستمائة وإحدى وعشرين صفحة باستثناء المقدمة، ولكن كتاباته اتسمت بالتكرار واضطراب المنهج، وعدم وجود الفهارس أو المصادر التي استقى منها معلوماته.

ويبدو للمطالع من خلال قراءة عابرة أن مادته كتبت على هدى من (روضة الأزهار) للبرموني، لاشتماله على القصص والأخبار والأعلام التي أوردها الأخير، أما ما زاده عليه فخارج عن موضوع الكتاب ويتعلق بعضه ببعض الأنبياء مثل قصة يوسف وموسى والخضر ونوح عليهم السلام.

---

(1) القسم الخاص بليبيا من رحلة ابن الطيب الفاسي بتحقيق عمار جحيدر، ص 26.

(2) علمت أن هذه النسخة غير كاملة وأن هناك نسخة أوفى منها عند إحدى الأسر بزليطن.

ويلاحظ القارىء أن المؤلف هو أحد المريدين الذين يكتبون بإيمان عميق وتسليم كامل بكل ما ورد عن الشيخ عبد السلام الأسمر وغيره من الأولياء، فهو لا يختلف في ذلك عن المؤلفين القدامى، وقد كانت العبارات الإنشائية التي صاغ بها مادة كتابه إحدى ظلال هذا المجموع الضخم.

وتبقى بعد ذلك قيمة هذا الكتاب في أنه أحد المؤلفات التي تعرّف القراء بجوانب كثيرة من حياة عبد السلام الأسمر وتورد بعض تراثه الصوفي، وتتناول طائفة من شيوخه وتلاميذه، وفي الموضوع نفسه كتب الشيخ الطيب المصراتي مؤلفاً بعنوان (فتح العلي الأكبر في تاريخ سيدي عبد السلام الأسمر) نشر سنة 1969 م وتتلخص مباحث الكتاب في تناول حياته منذ ولادته إلى وفاته والكلام عن الولاية والكرامات وقصائد (الشيخ وبعض وصاياه ومؤلفات تلاميذه في سيرته، وما صدر من بعض المنتسبين إليه وهو منه براء).

وختم الكتاب بتراجم مشائخه وبعض أولاده وتلاميذه وهو بهذا السرد لم يخرج على نهج القدماء، بل قد أشار بنفسه إلى ذلك فقال: «والواقع أنه لم يكن لي من العمل إلا الجمع والتنسيق والنقل إلا في القليل»[1].

3 ـ ومن كتب المناقب مؤلف في نحو العشرة كراريس جمع فيه عبد الواحد الدوكالي المسلاتي مناقب فتح الله أبي راس القيرواني الذي تولى الإفتاء بالقيروان ثم طرد منها عندما ظهر من إشارته الصوفية ما يخالف الدين ففر إلى طرابلس واتصل بالدوكالي ثم توجه إلى برنو فمات هناك[2].

4 ـ وتحتوي مكتبة قرزة (قرب مزدة) على مؤلف لمحمد البصير في مناقب جده عبد الرحمن بن أبي سيف فرغ من تأليفه سنة 1128 والنسخة الموجودة بخط المؤلف.

---

(1) فتح العلي الأكبر: دار الكشاف 1389 هـ 1969 م.

(2) تنقيح الأزهار، ص 240.

5 - ومما كتب في المناقب وله صلة بتاريخ الحياة الصوفية في بلادنا مؤلف في سيرة ومناقب محمد بن عيسى المغربي، كتبه أحمد المهدي الغزال الذي دخل في الطريقة العيساوية سنة 1162 هـ (1748 م)، وتعود صلة الكتاب ببحثنا هذا إلى انتشار الطريقة العيساوية في هذه البيئة، بالإضافة إلى أن ناشره التاجوري قد ألحقه بمجموعة من القصائد ونوبات المألوف والموشحات الأندلسية المعروفة في بلادنا حتى أصبح مصدراً مهماً للنصوص أكثر منه كتاباً في المناقب.

6 - ورأيت في مكتبة إبراهيم الشريف مخطوطاً في كرامات ومناقب عبدالله بن أحمد بن فضل الفيتوري دفين العجيلات جمعها محمد المحجوبي الصرماني في هذا القرن، ويؤخذ عليه الاقتصار على جانب الكرامات وإهمال التعريف بالرجل وثقافته وشيوخه وتلاميذه.

ج - المجموعة الثالثة: الرحلات:

وهي تهم الباحث في تاريخ الحياة الصوفية وبالأخص تلك الرحلات التي قام بها المغاربة لأداء فريضة الحج عبر الأراضي العربية الليبية ومنها:

1 - رحلة عبدالله بن محمد التجاني التي قام بها من سنة 706 إلى سنة 708 وحققها الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ونشرت في المطبعة الرسمية بتونس سنة 1958 م.

تعود أهمية هذه الرحلة بالنسبة لموضوعنا إلى أن صاحبها عني بإشارات إلى بعض الزوايا وأعلام الصوفية، فذكر على سبيل المثال أن سهيل بن عيسى هو مؤسس زاوية أولاد سهيل بالزاوية وأنه رجل صالح وكريم توفي 673 هـ، وأشار إلى أنه شاهد في هذه الزاوية كتباً كثيرة محبسة[1].

---

[1] ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات، ص 133.

وتحدث عن زاوية أكبر منها هي زاوية أولاد سنان وعن أبي محمد عبد الجليل الحكيمي المتوفى سنة 685 هـ فذكر أنه مرابط على الساحل ثم أعطى بهذه المناسبة فكرة مهمة عن الربط الصوفية فقال: (وهي مساكن للصالحين قديماً وحديثاً شهيرة، وللناس يزورونها ويتبركون بها. . .) إلى أن قال: (والساكن بها يجمع بين الاحتراس ومجانبة الناس)، ولمزيد من المعلومات حول هذا الربط يحسن الرجوع إلى بحث محمد عبد الهادي أبي شعيرة حول «الرباطات الساحلية الليبية الإسلامية» الذي قدمه إلى المؤتمر التاريخي بكلية الآداب سنة 1978 م. وفي رحلة التجاني إشارات إلى عدد من الصوفيين أبرزهم أبو محمد عبدالله الشعاب، وأبو نزار البرقي، وأبو عثمان الحساني، وسمدونه[1] وغيرهم، وأعلام هذه الرحلة وأخبارها متقدمة تاريخياً عن الفترة التي نعني بدراسة مصادرها لكن أهمية ذكرها تكمن في أنها أول رحلة معروفة تهتم بالجوانب الصوفية.

2 ـ رحلة أبي سالم عبدالله بن محمد العياشي: وهي المسماة (ماء الموائد) أو الرحلة العياشية التي قام بها سنة 1073 هـ 1662 م. طبعت في فاس سنة 1316 هـ في جزءين كبيرين، وللدكتورة نجاح القابسي بحث حولها تقدمت به لنيل درجة الماجستير.

كان لأبي سالم العياشي علاقة وطيدة بمتصوفة هذا البلد نجدها في الحفاوة التي لقيها منهم وفي هذه الأسماء الكثيرة التي أشار إليها العياشي نفسه وأشاد بها من أمثال محمد الصيد وأبنائه، ومحمد المكني وابنه الذي قال: (إن له مكتبة ليس مثلها لأحد من أهل بلده)، وعبد السلام الأسمر الذي يفرده بتقدير خاص ويعتبره من أجلّ تلاميذ أحمد بن عروس. ويضفي مثل هذا التقرير على أحمد زروق.

3 ـ رحلة الصوفي يوسف بن عابد الحسني الإدريسي: قام بها سنة

---

(1) ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات، ص 149.

990 هـ 1582 م، ويتحدث صاحب المخطوط كثيراً عن الطرق الصوفية المعروفة آنذاك في أرجاء المغرب الأقصى، ويؤكد انتماءه إلى الطريقة الزروقية ويذكر توقفه أياماً لزيارة قبر شيخه زروق في مصراته. وقد وصف هذا المخطوط الدكتور أمين الطيبي في العدد الثامن عشر من مجلة كلية التربية.

4 ـ الرحلة الناصرية: قام بها أبو العباس أحمد بن محمد ناصر الدرعي ما بين سنتي 1121 هـ و 1122 م. وصاحبها هو ابن منشىء الطريقة الناصرية الشاذلية، ولذلك لم يكن مستغرباً منه أن يولي المتصوفة جل اهتمامه في رحلته وأن يبادلوه بالإكرام والإجلال.

ونلاحظ أن ابن ناصر ينقل ممن سبقوه من الرحالة فقرات كثيرة، ويفرد جانباً للحديث عن المتصوفة في الأزمنة السالفة.

5 ـ الرحلة المنالية: قام بها عبد المجيد بن علي الحسني المنالي ما بين عامي 1158 و 1159 أي في القرن الثامن عشر الميلادي، ودونها باسم (بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام).

يولي المنالي عناية خاصة بزروق ومؤلفاته ويتحدث عن صديق ليبي أخذ عنه حزب الفلاح والصلاة المشيشية ورافقه إلى مزارات طرابلس التي دوّن ما ذكره منها بالإضافة إلى نقول من رحلة أبي سالم العياشي.

6 ـ رحلة الورثلاني: قام بها الشيخ الحسين بن محمد الورثلاني سنة 1179 هـ 1765 م. وتكفي إطلالة على فهرس هذه الرحلة تدلنا على ذلك القدر الكبير من الصفحات المخصصة لتراجم متصوفة ليبيين من أمثال الصيد والنعاس وابن مقيل والماعزي والشعاب والبرقي والأسمر وغيرهم.

7 ـ الرحلة الفاسية: قام بها أبو العباس أحمد بن محمد الفاسي ما بين سنتي 1211 و 1212هـ أي في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي.

ويلاحظ على هذه الرحلة عناية صاحبها بزيارة الأضرحة والمبيت بها مع

ركب الحجيج أكثر من اهتمامه بملاقاة الأحياء من المتصوفة.

8 ـ رحلة الحشائشي: صاحب هذه الرحلة هو محمد بن عثمان الحشائشي المتوفى سنة 1912 م. عنوانها «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» حققها الأستاذ علي مصطفى المصراتي ونشرها سنة 1965 م. ونشرت في كتاب: ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات سنة 1968 م.

وقام الحشائشي برحلته عام 1317 هـ الموافق 1895 فأشار إلى الطرق الصوفية السائدة في ذلك الوقت وهي المحمدية والسلامية والمدنية والزروقية والرحمانية والقادرية والشاذلية والعيساوية والطيبية[1].

ثم خص أكثرها انتشاراً وهي المحمدية والسلامية والمدنية وترجم لبعض مشاهير الصوفية مثل أحمد زروق[2].

وهكذا تعتبر كتب الرحلات من المصادر المهمة في دراسة الحياة الصوفية، بالإضافة إلى غيرها من جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية وهو أمر يدعو إلى كشف المزيد من هذه الرحلات والإفادة منها في دراسة المجالات المذكورة.

د ـ كتب التراجم العامة والخاصة:

المجموعة الرابعة من مصادر دراسة الحياة الصوفية هي كتب التراجم وبخاصة ما يتعلق منها بتراجم المتصوفة والعلماء، ومنها:

1 ـ كتاب في ذكر بعض الأولياء بطرابلس لمحمد بن علي الخروبي. وهو مخطوط صغير يقع في حوالي العشرين صفحة ضمن محتويات مكتبة مركز جهاد الليبيين.

---

(1) رحلة الحشائشي، ص 143.

(2) رحلة الحشائشي، ص 104.

وقد عرف به كل من علي مصطفى المصراتي في كتابه القيم «مؤرخون من ليبيا»[1] وحبيب وداعة الحسناوي في مجلة البحوث التاريخية[2] وتكمن أهمية هذا المخطوط في تعريفه بعدد من الأعلام منهم مشائخ الخروبي، وبالعلوم التي تلقاها عنهم. فضلاً عن أن المخطوط يثبت انتماء الرجل إلى هذا البلد ويقطع الشك الذي أورده صاحب تاريخ الجزائر في نسبته إلى القيروان أو طرابلس[3].

2 ـ ومن هذه المجموعة مخطوط لأحد أعلام القرن الثاني عشر يقع في سبع وسبعين صفحة، وصاحبه كاتب مغمور يدعى عبد الرزاق أبو كمشة الغرياني وهو من المخطوطات التي لم يسبق التعريف بها أو بمؤلفيها تعريفاً وافياً ونسبها دليل المؤلفين العرب الليبيين إلى محمد بن علي الغرياني[4].

ذكر المؤلف في مقدمته أن المقصود من كتابة دفتره، ما رأى من الأولياء، والعلماء العاملين ومن له علية ومشيخة. ولكنه يسهب أحياناً في تدوين أزجاله وأشعاره وأقوال بعض الصوفية الآخرين. وترجع أهمية هذا المخطوط وغيره من كتب تراجم العلماء والأولياء إلى أنها توضح الصورة الحقيقية للحياة الصوفية بصورة خاصة والعلمية بصورة عامة. تلك الحياة التي أعطى عنها بعض الرحالة القدماء صورة قاتمة كما فعل العبدري[5] وابن العربي[6] وابن رشيد[7] وكلهم قام برحلته في النصف الثاني من القرن السابع. ويعطينا الورثلاني أسباباً خاصة لتردي العلم في طرابلس خلال زيارته مع ما فيها من علماء أجلاء فيقول:

---

(1) ص 33.
(2) العدد الثاني يوليو 1981، ص 280.
(3) تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2 لأبي القاسم سعدالله.
(4) دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص 398.
(5) انظر: «ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات»، تحقيق محمد نجم وإحسان عباس، دار ليبيا للنشر والتوزيع 1968 م.
(6) المصدر نفسه، ص 98.
(7) المصدر نفسه.

(فقد انعدم التدريس للعلم في طرابلس وقل الاشتغال بالعلم رأساً فلا تجد مجلساً فيه وكيف يتصور العلم فيها مع أن علماءها أفضل علماء الأوطان. غير أنهم لما انعدم التدريس منهم صاروا قاصرين لعدم إنفاق العلم، فإن العلم يزيد بالإنفاق وينقص بعدمه)[1]. وهو يرجع تلك الحالة إلى ضيق المعيشة وضعف أمر البلاد. . . ومن هنا كانت للمؤلفات المعاصرة لهؤلاء الرحالة أهمية كبرى في دحض أو تأييد هذه الأحكام.

3 ـ ويمكن أن نعد في هذه المجموعة كتاب الإشارات لبعض ما بطرابلس من المزارات لعبد السلام بن عثمان الفيتوري المتوفى 1139 هـ 1726 م. وهو مؤلف صغير الحجم يقع في مائة واثنتين وثلاثين صفحة طبع بمكتبة النجاح بطرابلس.

وفي هذا الكتاب ذكر للأولياء في مدينة طرابلس وتاجوراء والمناطق الواقعة شرقيها وساحل آل حامد من لبدة إلى عين كعام، وزليطن ومصراتة وجنزور والغار والماية والزاوية وعملها.

وبذلك يعد من المؤلفات النفيسة في موضوعه، وإن أخذ عليه الاختصار الشديد في التعريف بالأعلام والتركيز على جانب الكرامات.

4 ـ ومن الكتب المهمة في هذه المجموعة (نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان) لأحمد النائب الأنصاري المتوفى سنة 1335 هـ 1914 م.

وكتابه هذا مطبوع في مائة وثمان وخمسين صفحة مضافاً إليها مقدمة وفهرس من إعداد المحقق الأستاذ علي مصطفى المصراتي، وقد تناول النائب في هذا الكتاب كما أورد في مقدمته بعض (من كان بطرابلس من المحدثين

---

(1) الورثلاني، ص 621.

الأفاضل وأكابر الأئمة الأوائل والأولياء والصلحاء وذوي الفضائل) ولكن نصيب الأولياء كان أوفى من غيرهم.

5 ـ ومن الكتب التي أُلفت في البلدان المجاورة ولها صلة بالأولياء والعلماء العرب الليبيين كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» لعبد الرحمن الدباغ، نشر بتحقيق محمد ماضور. وكتاب «تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان» لمحمد الكناني القيرواني، نشر بتحقيق محمد العناني سنة 1970 م. و «شجرة النور الزكية في طبقات المالكية» لمحمد محمد مخلوف، طبع سنة 1349 هـ وكتاب «تاريخ الجزائر الثقافي» للأستاذ أبو القاسم سعدالله.

6 ـ ولا يخفى أن الباحث عن أعلام الصوفية في ليبيا يجد بالإضافة إلى المصادر المذكورة معيناً ضافياً في (أعلام ليبيا) للأستاذ الزاوي وفي كتاب «أعيان العلماء من أبناء مصراتة القدماء» لمحمد مفتاح قريو، وفي بعض شخصيات «أعلام من طرابلس» للأستاذ المصراتي ودليل المؤلفين العرب الليبيين.

هـ ـ كتب التاريخ العام والتاريخ الثقافي:

المجموعة الخامسة من مصادر تاريخ الحياة الصوفية في ليبيا هي:

مجموعة التاريخ العام، والتاريخ الثقافي، وقد تبين من مطالعتها أنها تعني أحياناً كثيرة بتاريخ المتصوفة والتعريف بآثارهم وأخبارهم. فمن هذه الكتب:

1 ـ التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار: لأبي عبدالله محمد بن خليل بن غلبون، نشر بعناية الأستاذ الطاهر الزاوي في طبعتين كان آخرهما فيما أعلم سنة 1967 م. وفي هذا المصدر المهم نجد تراجم لمشاهير الصوفية الليبيين أو المقيمين بليبيا مثل عبدالله الشعاب وعبد الوهاب القيسي ومحمد بن الإمام وعبد السلام التاجوري وأحمد زروق وسواهم.

ويبدو من المحاورة التي دارت بين محمد النعاس التاجوري وابن غلبون وأوردها في كتابه أنه ينتقد ما يفعله الصوفية في عصره من الاجتماع في أوقات مخصوصة والتأديب بالمال وصنع المرغبات من حكايا الصالحين التي اعتبرها هلاكاً للدين يجب مقاومته والإقلاع عنه.

2 ـ المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، لأحمد النائب الأنصاري: نشرته دار الفرجاني بدون تاريخ، وقد ذكر هذا المصدر عدداً من الصوفيين بعد لقب العارف بالله أو الشيخ، فكان فيمن ذكر أحمد البهلول وعبد السلام الأسمر وأحمد بحر السماح ومحمد الصيد والعوسجي وأبا قطاية وغيرهم.

والمطلع على شخصية عبد السلام الفيتوري في (التذكار) وفي (المنهل العذب) يجد حدة ونقداً لاذعاً من ابن غلبون، وإعجاباً وثناء على الرجل من الأنصاري وربما عاد ذلك إلى اختلاف في وجهة نظر المؤلفين حيال الصوفية، ولكنني أرى أن للزمن أثره في تغير وجهات النظر بينهما وهو موضوع ربما فصلت فيه القول في إبانه.

3 ـ اليوميات الليبية لحسن الفقيه حسن: نشر الجزء الأول من هذا المخطوط بعناية الباحثين محمد الأسطى وعمار جحيدر ـ وهي عناية دقيقة ومتقنة وفي هذا الكتاب نجد إشارات مهمة حول وفيات عدد من العلماء والمتصوفة نذكر منهم محمد الصيد ومحمد بن مقيل والماعزي وعبد القادر دومة وغيرهم.

4 ـ ونجمل الإشارة فيما يلي إلى طائفة من المراجع التاريخية الحديثة التي تناولت بعض أعلام الصوفية مثل «تاريخ ليبيا الإسلامي من الفتح حتى بداية العصر العثماني» للدكتور عبد اللطيف البرغوثي، وقد تحدث تحت عنوان الحياة الثقافية عن شخصيات صوفية من أمثال عبد السلام الأسمر، وأحمد زروق، والمشاط، والعوسجي، والبرموني. وكتاب «النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي» لأحمد مختار عمر تناول فيه باختصار

ظاهرة التصوف وأورد تراجم لكثير من المتصوفة، و «الزروق والزروقية» للدكتور علي فهمي خشيم، و «حكاية مدينة» للأستاذ خليفة محمد التليسي، و «دراسة في الواقع الاجتماعي الليبي» لجميل هلال.

5 ـ ومن مصادر الدراسة حول الحياة الصوفية في ليبيا ملف المساجد والطرق الصوفية بدار المحفوظات التاريخية بطرابلس.

الدوريات:

تناول عدد من الباحثين جوانب من حياة وتراث بعض المتصوفة في بلادنا ومنهم من تعرض بشكل إجمالي للطرق الصوفية وانتشارها. ونشير فيما يلي بشيء من الإيجاز إلى بعض أبحاثهم التي منها:

1 ـ بحث للدكتور عمر مولود أبي حميرة عن الخروبي وآثاره العلمية، نُشر بمجلة كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بالبيضاء سنة 1937 م. وفي مجلة البحوث التاريخية عدد يوليو 1981 م بحث آخر عن حياة الخروبي ومناشطه الفكرية لحبيل للدكتور حبيب وداعة الحسناوي.

2 ـ دراسة وتحقيق لكناشي أحمد زروق قام بهما الدكتور علي فهمي خشيم، ونشرا في العدد الخامس من مجلة كلية التربية سنة 1976 م.

3 ـ بحث بعنوان «تحديث المؤسسات التعليمية والقضائية والدينية في ولاية طرابلس الغرب ما بين 1835 و 1911 للدكتور صلاح الدين حسن السوري، نشر بمجلة البحوث التاريخية في عددها الثاني سنة 1938 م. وقد أفرد فيه الكاتب فصلاً عن تحديث الفكر الديني تناول في جانب منه التغيرات التي طرأت على الحياة الصوفية في الفترة المدروسة.

4 ـ فصل حول التصوف في ليبيا من بحث كتبه الأستاذ عمار جحيدر بعنوان «أبعاد نظرية لتاريخ ليبيا الاجتماعي في العصر الحديث»، نشر في عدد

يناير 1984 م من مجلة البحوث التاريخية. وقد تناول الباحث بعض المصادر التي تهم الدارس في ميدان الصوفية وتاريخها في بلادنا، وختم فصله بتساؤلات قيمة تصلح أن تكون أهدافاً لدراسات جادة في تاريخ التصوف وآثاره الاجتماعية والعقلية والدينية سلباً وإيجاباً.

5 ـ وهناك بحث في العدد الثالث عشر من مجلة التراث عن الحياة الدينية في ليبيا في العهد العثماني كتبه تيسير بن موسى تحدث فيه عن الصوفية وطرقها ومؤسسيها.

وتناول بالوصف والتحليل جملة من أسباب اتساع ونفوذ الحركة الصوفية في ليبيا، حيث أرجعها الكاتب إلى الفقر والتخلف أيام العثمانيين، واستفادة هؤلاء من هذه الحركات[1].

وقد تحامل الكاتب كثيراً على الطرق الصوفية التي نسب إلى بعض أتباعها تصرفات مؤذية كالسرقة وشرب الخمر وتعاطي المخدرات والاعتداء على الحرمات، وقال: (إن ليبيا عانت منهم كما عانى المجتمع العربي والإسلامي من أمثالهم).

ولسنا ننفي أن مدعيّ الولاية قد يفعلون مثل هذه الموبقات، ولكن الإنصاف العلمي يستدعي التعرض إلى الإيجابيات أيضاً أو يستوجب الاستدلال بالوقائع الملموسة أو المدونة على صحة الأحكام.

إن ما وجدته في المؤلفات الصوفية في ليبيا لا يبيح أياً من هذه التصرفات الشاذة ولا يعتبر فاعلها شيخاً أو مريداً في أي من الطرق الصوفية المعروفة، بل إنهم يشددون في الإنكار على التدخين فضلاً عن تعاطي الخمور والحشيش[2].

وأسوق بالمناسبة حادثة أوردها فنسان مونتاي في كتاب له يقول: «إنه في

(1) المجلة المذكورة ص 117 وما بعدها.

(2) انظر الورثلاني، ص 637.

سنة 1949 م، قدم قس للتبشير في شمال داهومي ووصل بعد ثلاث سنوات داعية متصوف لنشر الإسلام، وبعد مضي عشر سنوات لم يستطع القس أن ينصر سوى عشرة أشخاص، في حين دخل نصف القرية الدين الإسلامي على يد ذلك الصوفي[1]. والحق أن للطرق الصوفية إيجابيات كثيرة وسلبيات ليست بالقليلة، وعلى الباحث المنصف أن يشير إلى هذه وتلك في شيء من التجرد والاطلاع الواسع.

6 ـ ويعد بحث الأستاذ محمد مسعود جبران المنشور بمجلة البحوث التاريخية في يناير 1983 حول محمد عبدالله السني من أهم المراجع التي تناولت هذا الرجل الذي تولى ووالده أمر زاوية مزدة وأسس عدداً آخر من الزوايا لأهداف تعليمية وإصلاحية.

7 ـ وهناك دراسة في مجلة البحوث التاريخية بعددها الصادر في يوليو 1983 عن الزروق الشيخ المربي، تناول فيها كاتبها الدكتور عبدالله النعمي معالم فكر الزروق ومحتواه وأهدافه ووسائله وإسهاماته في مجال التعليم والتربية وخصائصه.

وبحث آخر عن فكرة الحب بين رابعة العدوية وزروق كتبته ربيعة عريبي في مجلة كلية التربية سنة 1982 م.

المصادر الشفهية والآثار:

ما زالت طائفة من أتباع الطرق الصوفية على قيد الحياة يمكن أن تكون مصدراً مهماً من مصادر الحياة الصوفية، ولا يمكن للدارس في هذا المجال أن يغفلها أو يقلل من شأنها. وهي في أضعف الاحتمالات تمثل الطور الحالي من أطوار تاريخ الصوفية في ليبيا.

(1) انظر مجلة كلية الآداب، العدد الثالث 1969، ص 114.

أما الآثار والروايات الشعبية فهي المصادر الأكثر مادة والأيسر وجوداً، ذلك أنك واجد منهم في كل قرية أو مدينة زوايا وأضرحة للأولياء ومعلومات عن أسمائهم وأخبارهم وكراماتهم.

على أن مثل هذه المعلومات مشوبة غالباً بضبابية أسطورية تصاحب مثل هذه الروايات، ومن هنا كان على الباحث أن يجعلها آخر المصادر حتى يستمع إليها بعقل وذهن مستوعب.

وبذلك يمكن القول بأن دراسة الحياة الصوفية في ليبيا مجال خصب لدراسات جادة، تتناول التاريخ، والثقافة، والفكر بشيء من التتبع، والنقد، والتحليل الذي يعطي نتائج قيمة دون شك في جانبي التوثيق التاريخي والاستشراق المستقبلي المستفيد من دروس الماضي.

من الرسائل الليبية

بين مخطوطات تنبكتو

من الرسائل الليبية[1]
بين مخطوطات تنبكتو[2]

لقد كانت الوشائج مترابطة بين سكان المغرب العربي وسكان السودان الغربي بصفة خاصة، وسكان الأقطار الواقعة جنوب الصحراء بصفة عامة.

وحظيت بلادنا بنصيب من هذه الوشائج تمثلت في العلاقات التجارية والثقافية التي نجد في مخطوطات تنبكتو[3] ما يؤكدها ويؤرخ لها، ويفصل طبيعتها.

وفي مكتبة كلية الدعوة الإسلامية طائفة صغيرة من المراسلات[4] التجارية والعلمية والشخصية لها دلالاتها وأهميتها لما فيها من أعلام وأحداث، وما تبينه من علاقات بين بلادنا بصفة عامة والمدن الواقعة جنوب الصحراء، ولما تعرضه من أنواع العملة المستعملة والبضائع المتبادلة، وصيغ التوثيق، وليست هذه الطائفة إلاّ عينة صغيرة لآلاف غيرها في أماكن مختلفة.

وتكاد الوثائق المبينة لتركات بعض الغدامسيين المتوفين في تنكبتو، أن

---

(1) نشرت بمجلة الوثائق والمخطوطات ـ العدد الثالث لسنة 1988، ص 11.
(2) يحتوي مركز أحمد بابا على هذه الرسائل، وأكثرها ما زال عند المواطنين وبعض الباحثين.
(3) انظر فقرة عن العلاقات المالية الليبية بمجلة كلية الدعوة في عددها الرابع ص 228
(4) يسعى أحد الباحثين إلى تحقيق هذه المراسلات مستقبلاً فنرجو له التوفيق ومنه سرعة الإنجاز.

تغطي سائر البضائع المعروفة آنئذ، فضلاً عن دلالتها على ثراء هؤلاء الرحالة وتنوع مقتنياتهم.

على أن الرسالة التي بين أيديكم فيما يلي تكتسي طابعاً علمياً، فهي سؤال لأحد سكان غدامس وجواب عليه من بعض العلماء.

يستفسر السائل عن حكم تعدد مساجد الجمعة في بلده ويعرض في سؤاله لمحة موجزة عن تاريخها، لا تخلو من فائدة، والغريب أن الذي أجابه عن رسالته عالم غدامسي أيضاً يدعى متيضا بن أحمد بن متيضا بن أحمد الغدامسي.

ويبدو أن صاحب الإجابة من الغدامسيين المقيمين بتنبكتو، إذ يفهم ذلك من الأسباب الأمور التالية:

أولاً: إن الرسالة المخطوطة وجدت في تنبكتو، وذلك دليل على صلة كاتبها بهذه البلاد.

ثانياً: أنه لو كان مقيماً بغدامس لما احتاج للكتابة التحريرية ولاكتفى بجوابه الشفهي وسلوكه العملي.

ثالثاً: أن بين الوثائق الغدامسية في تنكبتو قائمة غير واضحة الغرض، تحتوي على أسماء رجال بينهم عيسى الغدامسي وأخوه متيضا. ولم أجد لغيره من أعلام غدامس اسماً كهذا في الرسائل المشار إليها.

رابعاً: أنه كان بين سكان تنبكتو عدد كبير من الأسر الغدامسية، وأن بقايا هذه الأسر ما تزال مقيمة حتى الآن بتلك البلاد، ومنهم أسرة بالليل وغيرها.

إن أهمية هذه الرسالة تكمن في النبذة التاريخية التي عرضها السائل، وفي الإجابة العلمية المختصرة الكافية التي عرضها المجيب، وهي إن كانت تدل على سعة أفق الرجل إلاّ أن أغلب الآراء التي ذكرها مبسوطة في «المعيار المعرب» الذي يعد مرجعه الأساس في فتواه هذه، ويجعل احتمال عدم رجوعه إلى المصادر التي ذكرها وارداً.

على أن تصرفه في العبارة واختصاره غير المخل، وإشراقة صياغته ومتانتها أمور تجعل جوابه جديراً بالاهتمام، وتدل على قدرة في الاقتضاب وشمولية في الاستيعاب جعلته يأخذ من عبارة النقول ما يناسبه ويحذف ما سواه دون إشارة حسب منهج عصره.

وأخيراً، فإن الوثيقة التي بين أيدينا أضافت علماً جديداً إلى أعلام ليبيا وكشفت جانباً من جوانب الصلات المتينة بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها يحتاج إلى التعميق والدراسة.

النص

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

[سؤال][1]:

ساداتنا أهل العلم - رضي الله عنكم ومتَّعنا بطول حياتكم، وجعل الجنة منزلكم - ما قولُكُمْ في بلدِ غدامس، كان فيما نسمعُ أنهم يصلون الجمعةَ في جامع واحد سنين كثيرة، ثم وقعتْ غدرة وصارت بينهم حتى مات فيها خلق كثير، وبسبب هذه العداوة حاز ذلك الجامع أحد الفريقين وأهل الفريق الثاني اتخذوا جامعاً آخر يصلون فيه.

وبعد ذلك تعددت الجوامع في كلّ فريق، ولم يكن حينئذ حاكم ببلدهم ولا قربة يصلون إليه، وبقي الأمر على التعود المذكور ميئين من السنين، وبعض كل فريق يصل إلى الآخر بالمعاملات وغيرها، ثم نشأ حاكم ودال عليهم، وطالت يده على الجميع، تنالهم أحكامه، ولم تبق بينهم عداوة، وعلى تقدير

(1) زيادة عن النص.

بقائها في القلوب لا تؤثر، وبقي التعدد كذلك.

فهل - يرحمكم الله - لا بد من الرجوع إلى الجامع الأول أولاً؟ وهل تصح صلاة الجوامع الجديدة مطلقاً أو بتقييد كذا؟ أم كيف الحال؟ أجيبونا بنص صريح [في مشهور مذهب مالك][1] إن وجد، أو بنص ضعيف منه، تنالون من الله تعالى جزيل الثواب، والله الموفق من شاء للصواب.

والسلام عليكم ورحمة الله.

[الجواب]

الحمد لله الذي برهن براهين قدرته على إثبات وحدانيته ببراهين وجود الموجودات، الباطنة والظاهرة، جعل دلائل الحكم وبرهان القدم وآيات الإبداع وشواهد الاختراع قطعاً لقضاء الأفكار على سطوات «الغانية»[2] الواردة، الصادرة. كتب رسوم القضاء بقلم القدر في دفع الموجودات.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وأصحابه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الفصل والحكومات.

أما بعد...

فأقول: إن في المسألة ثلاثة أقوال: المنع مطلقاً، وهو المشهور، والجواز مطلقاً، والتفصيل. وعلى الأول مشى خليل في مختصره[3] حيث قال «متحد»، وتبعه في ذلك أكثر شروحه، قال سيدي أحمد الزرقاني المعروف بابن فجلة في حاشيته على المختصر، عند قول المصنف «متحد» بعد حذف صدر كلامه، «فلا يجوز التعدد على المشهور»... إلى أن قال: «فلا يلزم من التعدد فساد الجمعة أو عدم وجوبها، بل هيَ صحيحة وواجبة بلا خوف على ما أشار إليه البساطي فانظره»... انتهى.

---

(1) في الأصل: في المذهب مالك مشهور.

(2) غير واضحة في الأصل.

(3) حاشية ابن عبد السلام على مختصر خليل.

قال في المعيار: ذكر ابن محرز في كتابه «القصد والإيجاز» جواز التعدد مع الضرورة، والخلاف مع فقدها. وعلماء البلاد الأندلسية - حرسها الله ونفعهم - اقتضى نظرهم الأخذ بالجواز، فصار في سائر بلادهم عملاً متبعاً، والتسليم لهم، والانقياد لأحكامهم - نصر الله أعلام من بقي منهم، ورحم من صار إلى كرامة الله ورضوانه - أولى وأحب من مخالفتهم، لأن المخالفة شر، فكيف فيما قوي دليله[1] «[وقال]»[2] بعض المتأخرين من حذاق المالكية العمل اليوم على جواز تعدد مسجد الجمعة في المصر، وذلك مما لا شك فيه، والذي يظهر أن لا يعرض لأمر قديم...[3].

وقال ابن عبد السلام: قد تسامح الولاة بإفريقية في زمننا هذا، ولا ينبغي خلافه انتهى.

وفي النوازل الغلاوية، قال القلشاني: قد مضى العمل في حضرة تونس وغيرها من كبار الحواضر بالتعدد، وشاهد ذلك أكابر العلماء وانتهى أمرهم عليه، وأدرك في ذلك القطر علماء وافقوا على ذلك، فلا ينبغي التشويش على الناس بذكر تشهير المنع واختلاف العلماء رحمة، فسكّنوا ولا تنفروا[4].

وقال الونشريسي في تعليقه على جامع الأمهات: «ففي تونس سبع خطب، وفي تلمسان أربع، وفي فاس أربع. وذكر ابن وهب أنه رأى ذلك معمولاً به في مواضع عدَّدها، وذكر منها قرية تُدعى بدارين، وهي بالشام من عمل دمشق، فيها مسجدان ومنبران، شهد خطبتهما، قال: وقدر ما بين المسجدين عرض الشارع المجاور لهما لا ما سواه»[5].

---

(1) المعيار: 1/235 طبعة دار الغرب الإسلامي.

(2) في الأصل: وظل، والتصحيح من المعيار.

(3) المعيار: 1/236.

(4) جاء نصوص من أقوال القلشاني في المعيار: 1/236 - 237 منسوبة إلى سيف الدين الأموي في كتابه الأحكام.

(5) المعيار: 1/240 والقول لابن وهب نقله الونشريسي

وقال ابن وهب أيضاً، وابن أبي أويس عن مالك الإمام في مِصْر فيه جامعان وأُقيمت فيهما الجمعة فجمعتهما معاً جائزة.

فإن قيل: القول بجواز التعدد ضعيف، والحكم بالضعيف لا يجوز مع الاختيار. قلت قد يكون القول مشهوراً بعدما كان ضعيفاً بسبب موافقته إلى قول في مذهب خارج، ونحن قد رأينا جواز التعدد لجماعة من أئمة المذهب وخارجه: كداود الظاهري وأحمد بن حنبل، أو يجري العمل به، ويقوي القاعدة أن ما به العمل مقدم على المشهور، قال سيدي عبد القادر الفاسي في عملياته:

«وما به العمل دون المشهور، مقدم في الحكم غير محظور»[1]، فلنرجع إلى قول السائل في قوله: فهل - رحمكم الله - لا بد من الرجوع إلى الجامع الأول أولاً؟ إلى قوله أم كيف الحال؟.

فنقول: حيث فرعنا على المشهور لا بد من الرجوع إلى الجامع الأول، وإن تعددت فالجمعة للعتيق. وإن قلنا بالجواز فلا يجب الرجوع.

قوله: وهل تصح... الخ؟ فنقول: صحيحة لقول ابن فلجة: فلا يلزم من التعدد فساد الجمعة... الخ، قوله: أو بتقييد كذا. فنقول: إن فرعنا على المشهور وهو المنع مطلقاً، فلا تقييد، وإن فرعنا على القول بالتفصيل فحينئذ يقيد بضيق المسجد، وسائر الضرورات، وهذا القدر كاف لمن تأمل وأنصف وبالعلم النافع تحلى واتصف، انتهى.

إن كان صواباً فمن الله وفضله، وإن كان خطأ فمني «ومحله»[2] عبيد ربه وأسير كسبه متيضا بن أحمد بن متيضا بن أحمد الغدامسي.

انتهى النص

---

(1) كذا وفي الوزن اضطراب غير خفي.

(2) ومحله: كذا، ولعل المراد ممليه.

وهكذا تمثل هذه الرسالة جانباً من العلاقات العلمية والثقافية بين السكان على جانبي الصحراء الكبرى، وهي علاقات متينة كان لأبناء بلادنا إسهام وافر في تعميقها وازدهارها.

تراجم لبعض أعلام ليبيا
في القرنين السابع عشر والثامن عشر
(تعريف وعرض)

تراجم لبعض أعلام ليبيا[1]
في القرنين السابع عشر والثامن عشر
(تعريف وعرض)

تقديم:

لا أراني بحاجة إلى التذكير بأهمية كتب التراجم في التعريف بجوانب مهمة من حياة المجتمع بصفة عامة وحياته الثقافية بصفة خاصة، وذلك من خلال الفترة الزمنية التي تناولتها والأعلام الذين عرّفت بهم في ثناياها.

ولكني أضع بين أيدي القراء تعريفاً موجزاً بمخطوط في تراجم الأولياء والعلماء لمؤلف عاش جزء من القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين.

والمخطوط على صغر حجمه وطبيعته الصوفية لا يخلو من فوائد نفيسة كالتعريف برجال لا نعرف عنهم إلا معلومات قليلة وآخرين لا نعرف عنهم شيئاً.

ويتناول هذا المخطوط فترة زمنية أساء بعض الرحالة تصويرها حين قال: «فقد انعدم التدريس للعلم في طرابلس وقلّ الاشتغال بالعلم رأساً فلا تجد مجلساً فيه، وكيف يتصور العلم فيها مع أن علماءها أفضل علماء الأوطان غير أنهم لما انعدم التدريس منهم صاروا قاصرين لعدم إنفاق العلم، فإن العلم يزيد بالإنفاق وينقص بعدمه»[2]. وهذه الفقرة تعطينا معلومتين مهمتين: الأولى سلبية

---

(1) نشرت بمجلة الوثائق والمخطوطات/ العدد الأول سنة 1985 ص 113.

(2) رحلة الورثلاني، ص 621.

وهي انعدام التدريس في طرابلس والأخرى إيجابية وهي أن علماءها أفضل علماء الأوطان.

والسؤال الذي يمكن أن يجيب عنه أمثال هذا المخطوط الذي نُعرّف به هو هل حقاً انعدم التدريس في طرابلس، وتقاعس علماؤها عن إنفاقه؟.

هذا فضلاً عن أنه يمثل معلومات من مؤلف معايش للحياة العلمية متتبع لشخصياتها متتلمذ على بعضهم وبذلك يكون حديثه أكثر قبولاً من حديث عابر سبيل لا يعرف إلا أن يُعرّف ولا يرى أن يُوجه.

معلومات حول المخطوط ومؤلفه

هو أحد المخطوطات التي تحتويها مكتبة مركز جهاد الليبيين تحت رقم م/ 260 كُتب بخط مغربي جميل، تزين الحمرة بدايته ونهايته وتتخلله عند كل استئناف لترجمة جديدة وتؤخذ على ناسخه بعض الأخطاء والتصحيفات.

يقع هذا المخطوط في سبع وسبعين صحيفة من الورق المتوسط المتين في كل صفحة خمسة عشر سطراً، ولا وجود فيه لعنوان مميز ولا ذكر في بدايته ولا نهايته للمؤلف أو تاريخ التأليف أمام هذه المغاليق كان لا بدّ للباحث أن يلجأ لوسائل أخرى تساعد في إثبات نسبة الكتاب لمؤلفه وعصره.

وكانت مطالعة الكتاب هي الوسيلة الأولى لذلك الغرض، وتبين من خلالها ومن خلال بعض القرائن الأخرى ما يلي:

أولاً: إن الكتاب كان يتحدث عن معاصريه ومنهم أعلام معروفون، توفي بعضهم في القرن السابع عشر مثل محمد أبي غرارة المتوفى سنة 1092 هـ (1681 م) ومحمد بن الإمام المغربي المتوفى سنة 1083 هـ (1672 م) وتوفي بعضهم في القرن الثامن عشر مثل عبد الرجمن العسوس المتوفى سنة 1130 هـ (1717 م) ومحمد النعاس المتوفى سنة 1179 هـ (1765 م).

فهو إذاً قد عاش خلال القرنين المشار إليهما وعمَّر طويلاً.

ثانياً: ورد الكتاب ضمن مجموع فيه مخطوطتان أخريان إحداهما بعنوان (وسيلة المشتاق) لمؤلف مجهول والأخرى شرح لها من تأليف الشيخ محمد بن علي الداودي الغرياني.

وما يشد انتباه القارىء لكتاب «وسيلة المشتاق» هو تقديمه بعبارة تدل على أنه وضع ملاءمة لصوفي اسمه عبد الرزاق الغرياني، حيث جاء فيها «سميتها وسيلة المشتاق وتكرمة للعشاق، ملاءمة لوتد الفقهاء عبد الرزاق أبو كميشه الغرياني».

ثالثاً: وردت في المخطوط ـ موضوع هذا التعريف ـ إشارات في ثناياه تدل على أن اسم المؤلف هو عبد الرزاق، مثل قوله في الصفحة الثالثة عشرة ضمن محاورة مع صديقه عبدالله بن يعقوب: «فقال لي سلبته يا عبد الرزاق».

وقوله في الصفحة العشرين: «فقالوا كُلْ معنا وأنا مستمسك، فقال الشيخ: ... كُلْ يا عبد الرزاق فأكلت» وجاء في مواضع أخرى أنه من غريان، وأنه لم يقطع الصلة بها برغم إقامته بطرابلس مدة طويلة.

من الإشارات الدالة على صلته بغريان قوله:

«شاورته (يعني شيخه) بتزويج بنت من أقاربي بغريان» وقوله في أثناء حديث عن الشيخ عبد الرحمن بن عبد النبي: «وتوفي بقرب ذاك وأنا في جبل غريان» وهناك ذكر عابر لغريان والكميشات في غير هذين الموضوعين، فمن ذلك إشارة يفهم منها أنه أدلى وهو بغريان بكلام لم يرض شيخه أحمد بن جابر، فعلم به عن طريق الكشف وعرَّض له بذلك تعريضاً فقال: «ومن جملة ما وقع لي معه فرأى منه في سره ما لا يعجبه، فقال لي حاكياً عن الشيخ ابن ساعد لو وقع وقال في غريان لعرفت به» وهي إشارة غير صريحة ولكنها قد تصلح لتأكيد الأحكام السابقة. وهكذا يبدو للباحث أن عبد الرزاق الغرياني هو

المؤلف وأن الظن قوي في أن يكون هو نفسه عبد الرزاق بن محمد أبو كميشه الغرياني الصوفي، وذلك لاشتراك الطرفين أيضاً في صفة التصوف التي تبدو جلية في هذا المخطوط كما بدت في تقديم المؤلف المجهول لكتابه المسمى «وسيلة المشتاق».

تأثره بالخروبي:

إن المطالع لتراجم شخصيات هذا المخطوط يجد شبهاً كبيراً بين أسلوب مؤلفه وأسلوب محمد بن علي الخروبي في تراجمه للأولياء، بل لعله يقتبس منه ألفاظاً بعينها ويضعها في تراجم شخصياته.

فمثلاً يقول الخروبي في ترجمة أبي غرارة:

«وممن عرفناه وخدمناه وله علينا مشيخة وفينا تربية الشيخ القطب الغوث العارف بالله تعالى ذو المجاهدات العظيمة والأحوال الزكية. . . الخ».

وقال المؤلف في ترجمة محمد بن سعيد الهبري: «وممن نظرناه وعرفناه وصحبناه وخدمناه وله علينا تربية ومشيخة الشيخ القطب العارف بالله. . . الخ».

وعلى هذا النحو من الأخذ كان تأثره به في سرد القصص وطبيعة الحوار بين شخصياتها والتركيز على الكرامات والمناقب.

عرض التراجم:

وقد رأيت من تمام التعريف أن أورد كل التراجم المدونة في المخطوط معتمداً قدر الإمكان على ألفاظ المؤلف حتى يكون العمل أشبه بالتحقيق منه بالتعريف العابر.

وراعيت في هذا العرض اقتناص معظم المعلومات التاريخية المهمة عن حياة هؤلاء الأعلام، ولكنني أهملت الأزجال لطولها وعاميتها وحاولت تجنّب

إيراد الكرامات والخوارق لخروجها عن ظواهر المعقولات.

واكتفيت من التعليقات الهامشية بالإحالة إلى المصادر التي تتناول العلم المترجم له حتى لا أثقل النص.

1 ـ محمد بن محمد بن مقيل[1]: ذكر أنه كان جالساً معه وجماعة من الطلبة يتذاكرون مناقب الأولياء والصالحين عندما خطرت له فكرة تأليف الكتاب وقدمه على أنه «الشيخ الفاضل صاحب الأخلاق السنية والأحوال المرضية».

2 ـ محمد أبو غرارة[2]: قال: «وأول من عرفت منهم [يعني الأولياء والعلماء العاملين] في صغري الشيخ الزاهد الولي العارف بالله، ذو الهيبة والتسليم للأولياء سيدي محمد أبو غرارة شهر الخطاب توفي سنة اثنتين وتسعين أو ما قاربها، ودفن بجامع الكاتب محمود بداخل مدينة طرابلس» وأشار إلى أنه كان قد علمه الحروف الهجائية.

وذكر أن له ولدين «يعلمان أولاد المسلمين القرآن ويؤمان بزاوية الحطاب» وأورد قصة شاهدها عبده الحاج مادي ورواها فقال: «دخل على الأمير (بال) شاوش في مظلمة على أولاد أبي غرارة والكميشات، فصد الأمير عنه وجهه، فوضع الشيخ إصبعه على أنف الأمير حتى رجع بوجهه. وقال له: انظر هنا واعرف ما تقول، فقال: نعم، فقضيت حاجته ورجع من عنده».

3 ـ محمد العرضاوي[3]: قال إنه ممن عرفه يخبر عن بعض الغيبيات. ومنها إخباره عن السفن في البحر وصراعها مع النصارى.

(1) ورد ذكره في المخطوطة ص 1 والتذكار ص 273، والرحلة الناصرية (الحاجية ص 29 و 38، 104، 107، 108، 109 وفيها أنه أخي أحمد المكني 113) ورحلة الورثلاني (ص 131، 132، 137، 160، 186، 170، 171، 626، 630، 639)

(2) ترجمته في المخطوطة ص 2.

(3) انظر ترجمته في المخطوطة ص 2.

4 ـ أبو مراري[1]: أشار إليّ أنه ممن رآه صغيراً ولم يذكر منه إلاّ رؤيته له، ووصفه بالشيخ المربي المحقق الموفق، وذكر أنه كان شيخ والده، أخذ عنه طريقة الشيخ عبد السلام الفيتوري وقال: «وأنا بنى والدي إليه».

5 ـ أحمد بن محمد المكني[2]: وصفه بـ «الشيخ العامل العارف بالله صاحب الأنوار والأسرار، ذو الأخلاق السنية والأحوال المرضية والاجتهاد في طاعة الله بالكلية» وذكر أن له عليه مشيخة وتربية.

6 ـ محمد بن مقيل[3]: قال في التعريف به: «الشيخ العالم العامل من هو لكل مؤمن صاحب، صاحب الأخلاق السنية والأحوال المرضية والفتوى الزكية العدلية» ثم ذكر بأنه كان وأحمد المكنى في عصر واحد وتوفي بعد وفاة المكني.

7 ـ أحمد بن عيسى الغرياني[4]: جاء في ترجمته له: «وممن عرفناه وصحبناه وله علينا تربية بلسان العلم الشيخ العالم العلامة القدوة النصيح وليس باللسان الفصيح، سيدي أحمد بن عيسى الغرياني، كان يؤم بزاوية الفلاح أخذ عنه العلم رجال، وبلغوا المنال منهم سيدي أحمد النجار وغيره، وترتب في رتبته وأمَّ في زاويته».

---

(1) كذا ولم أتوصل لمعرفة بقية اسمه، ذكره المؤلف في ص 2، 3.

(2) ترجمته في نفحات النسرين 132 والمنهل العذب 1/264 والتذكار 263 والمخطوطة ص 3 والرحلة الناصرية (الحاجية 14 ـ 38 ـ 109) وهدية العارفين 1/156 وليبيا في كتب التاريخ والسير 275 وأعلام ليبيا 106 ودليل المؤلفين العرب الليبيين ص 74، وقد ذكر له مؤلفاً بعنوان شكر المنة في نصر السنة، ويبدو أنه غير أحمد بن محمد المكني الفزاني المذكور في «شجرة النور الزكية ص 322) فليتحقق لأن أحمد هذا لم تعرف له رحلة لطلب العلم.

(3) ترجمته في التذكار 234 والنفحات 133 والمخطوطة 4 والمنهل العذب 263 وأعلام ليبيا 372 توفي سنة 1101 هـ.

(4) ترجمته في التذكار 235 أعلام ليبيا 60 المخطوطة 5.

8 ـ علي بن صالح[1]: ورد في المخطوطة أنه إمام بجامع عبد الوهاب القيسي بباب البحر، ووصفه مؤلفها بالزهد والورع والتعفف والخمول وكثرة الذكر والكرامات.

9 ـ أحمد المصطباري[2]: رآه المؤلف ووصفه بالشيخ الصوفي المربي صاحب السماع والانتفاع ثم قال: «يأتي من الغرب ويقيم بطرابلس ما شاء الله ويشرق ويحج هو وتلامذته وينفق عليهم من غير موسعة ظاهرة».

10 ـ أحمد زهمول[3]: اسمه أحمد (القماطي) ولقبه زهمول، عرفه المؤلف وله عليه مشيخة وهو الذي أشار عليه بعمارة نواحي بارزة غربي طرابلس ففعل وصارت عمارة على أثر ذلك.

يقول المؤلف أن له كرامات كثيرة منها أنه التقى به في سوق الخضارة وأدخله إلى حانوت حجام وكتب بفحمة في الحائط «خليل باشا يدخل المدينة ليلة النصف من شعبان فكان ذلك بعد ثمانية أشهر» ثم قال: «توفي رحمه الله ودفن بجامع الفزازنة بمندر».

وذيّل المؤلف ترجمة الشيخ زهمول بذكر بعض معاصريه فقال: «وكان من البلد المذكور في ذلك الوقت» سيدي محمد السوسي وسيدي محمد (قارباص)[4] وسيدي محمد الكرداسي، وسيدي محمد الحلو بن عبد السميع، وسيدي الفزاني وسيدي حسن الهنتاتي وسيدي محمد النعاس بتاجوراء[5] وغيرهم».

---

(1) ترجمته في المخطوطة ص 5.

(2) ترجمته في المخطوطة ص 5.

(3) ترجمته في المخطوطة ص 5، 7، 67.

(4) كذا كان رسمها ولم أهتد لوجه الصواب فيها.

(5) المخطوطة ص 6 والتذكار 224 وأعلام ليبيا 349 ورحلة الورثلاني 626 ت 1179 هـ (1765 م).

وأشار في نهاية الترجمة إلى أنه والشيخ محمد سعيد كانا يُقرِئان القرآن الكريم في بداية حياتهما ثم دعا لهما بالرحمة دليلاً على وفاتهما عند تدوين كتابه.

11 ـ فاطمة عتيقة الباز[1]: وممن عرف من النساء فاطمة عتيقة الباز، التي ذكر أن لها كرامات وإشارات لمن يشاورها.

12 ـ مريم بهلة الحال[2]: أشار إلى أن لها كلاماً في التوحيد لا يخفى على عارف، وقد كانت والسيدة فاطمة المذكورة في المدينة (أي طرابلس) وتوفيتا بها.

13 ـ محمد الغرياني[3]: يذكر المؤلف أنه عرف الغرياني وتتلمذ عليه، ويصفه بالشيخ الفاضل الحاج مربي المريدين في أوراد الشيخ المربي سيدي ابن عيسى.

ويشير إلى أن ابنه محمداً كان يصنع صنيع أبيه إذ كانا «يواليان ويربيان الفقراء»[4].

والمنتسبين لسيدي ابن عيسى.

ثم يورد أن الشيخ محمداً الصيد[5] وابنه عبد الحفيظ سارا على النهج

---

(1) المخطوطة ص 7.

(2) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(3) ترجم له المؤلف في ص 7.

(4) الفقراء هنا بمعنى المريدين.

(5) جاء ذكره في رحلة الورثلاني 148 و 627 والعياشي (انظر ليبيا في كتب الجغرافيا والرحلات ص 181، 182) ونفحات النسرين 126 والمنهل العذب 238 والإشارات 33 والرحلة الناصرية والرحلة المنالية (انظر الحاجية ص 22 ـ 39 ـ 131) وذكر العياشي في رحلته والزاوي في إعلامه ص 359 أنه توفي سنة 1050 وقال صاحب الإشارات أن وفاته كانت سنة 1087 هـ.

نفسه، حيث كانا يجمعان «فقراءهم الجمعة ويبيتان على الذكر بروضة سيدي المشاط[1] بداخل المدينة».

وقد أشكل الأمر بعض الشيء عندما ذكر بعد هذه الجمل أن محمد الصيد وعبد الحفيظ من السلف الصالح في البلد الذين لم يدركهم وأدرك أبناءهم.

فكيف ذلك وقد رأى من سار على نهجه وهو الشيخ محمد الغرياني صاحب هذه الترجمة؟.

على أن ذلك يمكن أن يُدفع باحتمال طول حياة الغرياني وبقائه بعد وفاة الشيخين محمد الصيد وابنه عبد الحفيظ، أو أن السير على النهج لا يعني التلمذة، وإنما يعني مجرد الاشتراك في الفعل بدون ترتيب.

ويذكر المؤلف في خاتمة هذه الترجمة إن أبناء محمد الصيد وعبد الحفيظ كُثر، وأنهم معرفون بالعلم والصلاح وكثرة الأتباع، والاقتداء بسنة الرسول ﷺ، وأن مسكنهم وتربتهم في الهنشير شرقي البلد.

14 ـ أحمد جابر النائلي[2]: قال في ترجمته: «وممن عرفناه وصحبناه وله علينا مشيخة وتربية بالحال الشيخ السالك الزاهد الورع المحقق ذو الأخلاق السنية والأحوال المرضية سيدي أحمد بن جابر النائلي» وأضاف قائلاً: «وكان يوجه بنا إلى الزيارة وأكثرها للزاوية الغربية».

15 ـ خليفة الفراح[3]: ذكره في جماعة من متصوفة الزاوية أو من

(130 ـ 24 ـ 21).

(1) انظر النفحات ص 108 والإشارات ص 14 والحاجية (21 ـ 24 ـ 130).

(2) ذكره الهاروش المغربي مخطوط رأيته في مكتبة الحاج علي الهرامة، ونقل عن هذا المؤلف أحمد النائب الأنصاري في «نفحات النسرين ص 139 وجاء ذكره في الرحلة الناصرية»، انظر الحاجية (ص 13 ـ 16 ـ 38 ـ 107) والرحلة المنالية (انظر الحاجية ص 136) ورحلة الورثلاني ص 167 و 626 وبعض الإشارات في ص 139 و 140 و 636.

(3) المخطوطة ص 9. الفراح وربما قرىء البرّاح بالباء، ولم أعثر له على ترجمة.

أسماهم بفقرائها. . . فذكر منهم صاحب هذه الترجمة وتلاميذه ووصفه بالزهد والورع وقال: «وله نية صالحة في التربية وأحوال مرضية وأخلاق زكية وكرامات سنية».

16 ـ أبو بكر أبو حميرة[1]: ذكر أنه من الحرشا وأنه «السالك العارف بالله صاحب السخاء والتسليم والرضاء» وحكي عن ابنه عبدالله مثل ذلك.

17 ـ محمد بن حسين[2]: وصفه بالجذب والسخاء ولم يطل في ذكره.

18 ـ أحمد القمودي[3]: أورده من ضمن صلحاء الزاوية، وأثنى على سائر القمامدة والمحاجيب الذين أشار منهم إلى الشيخ يحيى والشيخ زكري وأتباعهم وأولاد ابن مريم.

19 ـ عبد الرحمن بن عبد النبي أبو يوسف[4] الجبالي الصحراوي: كناه بأبي يوسف كما ترى، والمعروف في عصرنا أنه يكنى بأبي سيف، وقد وجدته مكنى بأبي يوسف في مخطوط مغربي للهاروش، ولعلّ اتفاق المصدرين عائد إلى تغيير في كنية الرجل حدث بعد عصره.

وصفه المؤلف بأنه «الشيخ الفاضل العالم العلامة الفريد في وقته «الأنير»[5] بمعرفته، مربي الخاصة والعامة ومتبع السنة والسلامة»، ثم قال: «وله أولاد كلهم علماء وصالحون متبعون لطريق أبيهم» وأورد له شعراً أقرب إلى الزجل كان قد أرسله إلى الشيخ أحمد بن جابر في خاتمة رسالة كان المؤلف يبتغي إرسالها إليه.

(1) المخطوطة ص 9 وانظر الإشارات ص 130.
(2) المخطوطة ص 9.
(3) المخطوطة ص 9.
(4) المخطوطة ص 12 ونفحات النسرين ص 142 ورحلة الناصرية (الحاجية ص 113) وللشيخ محمد البصير كتاب مخطوط في مناقب عبد الرحمن هذا من محتويات مكتبة قرزة.
(5) الأنير: كذا، ولعلها: الأثير.

وذكر المؤلف أن الشيخ عبد الرحمن توفي بعد هذه الواقعة بقليل.

20 ـ عبدالله بن أحمد بن يعقوب[1]: قال إن والده مجذوب وصاحب كرامات، وأنه تعرف إلى ابنه فآخاه وأحبه في الله.

21 ـ عبد الرحمن العسوس[2]: قال في ترجمته: «وممن عاشرناه وواصلناه وناسبناه ابن خالي سيدي عبد الرحمن العسوس فكان حامل القرآن، حسن السمت، كثير الصمت، ورعاً حليماً توفي بالطاعون»، وذكر أنه دفن بمندر وأن أمه توفيت قبله وكانت من أهل العفاف والصلاح.

22 ـ أحمد بن جحا[3]: قال إنه من ساحل آل حامد وأنه مشهور بالكرامات والجذب.

23 ـ الشيخ أبو راوي[4]: قال في ترجمته: «وممن نظرناه وعرفناه وله علينا مشيخة الشيخ الولي المربي صاحب الأحوال المرضية والأخلاق السنية الموروثة الشيخ أبو راوي».

ثم ذكر أنه يعطي الأوراد في طريقته «ويستعمل السماع بشروطه، ويعلم فقراءه الفقه والدين وهو تارة بعمالة تونس وتارة بعمالة طرابلس يتردد بينهما لأجل تربية فقرائه وبعض شؤونه».

24 ـ علي بن حسن حريز[5]: أورد أنه ممن صحبه وله عليه مشيخة في

---

(1) المخطوط ص 3.
(2) نفحات النسرين ص 138 والمخطوطة ص 13 وأعلام ليبيا ص 198 وفيه أنه توفي سنة 1130 ومؤرخون من ليبيا ص 162 وله ذكر في المنهل العذب.
(3) المخطوطة ص 14 والرحلة الناصرية (الحاجية ص 48 و 106).
(4) المخطوطة ص 14 و 15 والإشارات ص 28، 67 وابن غلبون ص 39 وتنقيح روضة الأزهار ص 231 وعلى هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر ص 232 وشجرة النور الزكية ص 306 وفيها أوفى تراجمه.
(5) المخطوطة ص 15.

وذكر المؤلف أن الشيخ عبد الرحمن توفي بعد هذه الواقعة بقليل.

20 ـ عبدالله بن أحمد بن يعقوب[1]: قال إن والده مجذوب وصاحب كرامات، وأنه تعرف إلى ابنه فآخاه وأحبه في الله.

21 ـ عبد الرحمن العسوس[2]: قال في ترجمته: «وممن عاشرناه وواصلناه وناسبناه ابن خالي سيدي عبد الرحمن العسوس فكان حامل القرآن، حسن السمت، كثير الصمت، ورعاً حليماً توفي بالطاعون»، وذكر أنه دفن بمندر وأن أمه توفيت قبله وكانت من أهل العفاف والصلاح.

22 ـ أحمد بن جحا[3]: قال إنه من ساحل آل حامد وأنه مشهور بالكرامات والجذب.

23 ـ الشيخ أبو راوي[4]: قال في ترجمته: «وممن نظرناه وعرفناه وله علينا مشيخة الشيخ الولي المربي صاحب الأحوال المرضية والأخلاق السنية الموروثة الشيخ أبو راوي».

ثم ذكر أنه يعطي الأوراد في طريقته «ويستعمل السماع بشروطه، ويعلم فقراءه الفقه والدين وهو تارة بعمالة تونس وتارة بعمالة طرابلس يتردد بينهما لأجل تربية فقرائه وبعض شؤونه».

24 ـ علي بن حسن حريز[5]: أورد أنه ممن صحبه وله عليه مشيخة في

---

(1) المخطوط ص 3.
(2) نفحات النسرين ص 138 والمخطوطة ص 13 وأعلام ليبيا ص 198 وفيه أنه توفي سنة 1130 ومؤرخون من ليبيا ص 162 وله ذكر في المنهل العذب.
(3) المخطوطة ص 14 والرحلة الناصرية (الحاجية ص 48 و 106).
(4) المخطوطة ص 14 و 15 والإشارات ص 28، 67 وابن غلبون ص 39 وتنقيح روضة الأزهار ص 231 وعلى هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر ص 232 وشجرة النور الزكية ص 306 وفيها أوفى تراجمه.
(5) المخطوطة ص 15.

تعليم الفقه ووصفه «بالفقيه العالم العامل» ثم قال: «وكان في جماعة قرب حوش سيدي أحمد المكني، وقرأت عليه رسالة ابن أبي زيد» وذكر ممن يحضر هذه الجلسات العلمية الحاج ابن عبدالله سيالة، والحاج محمد السوسي وأخوه عليٌّ وغيرهم.

25 ـ أحمد (النصري)[1]: ذكره فيمن ذكر من العلماء وقال: «ومن رأيناه وعرفناه وحضرنا مجلس علمه سيدي أحمد النصري كان عالماً زاهداً كريماً شريف النسب والصدر» ثم أشار إلى وفاته ولم يؤرخ لها.

26 ـ محمد بن الإمام المغربي[2]: قال في ترجمته: «وممن عرفناه وله علينا مشيخة الشيخ العالم العلامة صاحب الدراية والرواية والنهاية والولاية سيدي محمد الإمام المغربي القاطن ببلد طرابلس الغرب حتى دفن بها، ولم يتزوج ولم يتسر بها، وكان زاهداً ورعاً، متوكلاً مقبوضاً، راضياً مسلماً، ولم نر مثله في زمنه في تقريره في الأحوال والفروع وغير ذلك من العلوم ودفن بظاهر المنشية، وتربته معلومة».

27 ـ عبدالله بن الأشهر[3]: أورد المؤلف أنه كان يقطن الخضراء من بلد تاجوراء وأنه معاصر لعلي بن سلمان أحد تلاميذ الشيخ محمد سعيد الهبري، ووصفه بأنه الشيخ الزاهد الورع المتبع المربي، وأشار إلى وفاته ولم يحدد تاريخها.

28 ـ عبدالله بن فرج[4]: قال في ترجمته: «وممن رأيناه وعرفناه الشيخ الكبير السن والقدر سيدي عبد الله بن فرج، وكنا نزوره في الأعياد مع زيارة

---

(1) في المخطوط ص 15 (النصراء) وكتبه ابن غلبون بالألف المقصورة ص 232 وفيه أن وفاته كانت سنة 1099 هـ.

(2) ترجمته في التذكار ص 232 والمخطوطة ص 15 والنفحات ص 130 وهدية العارفين ص 293 ودليل المؤلفين العرب الليبيين ص 327.

(3) المخطوطة ص 16.

(4) الصفحة نفسها.

سيدي أحمد الصيد وسيدي عبد الحفيظ وأبنائهم بعدهم».

29 ـ أحمد المارغني[1]: ممن رآه المؤلف وزاره، وهو كبير السن والقدر، قال في ترجمته: «كان في بدايته يأتون إليه بالمتهمين بالسرقة فيقول عند هذا. . . حتى أرسل إليه سيدي محمد بن سعيد مع سيدي أبي القاسم السملقي وهو يقول له: الله تبارك وتعالى أسبل على عباده الستر فلا ينبغي نزعه عنهم، رسول الله ﷺ ينزل عليه الوحي وإذا أتاه الخصمان يقول لهما: البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، وأنت تريد أن تهمل الشريعة وتعمل بالكشف. . . فرجع عن ذلك وتاب لله. . . فصاروا يأتونه ويحلفون به، وكان مهاباً حسن الوجه والجواب، وأتت إلى البلاد محلة تونس بأمرائها، فوقع في البلاد ما وقع، ثم بعد ذلك استعظموه وهابوه وكان هو سبب قهرهم وهزيمتهم، وكان بالبادية ورحل منها وتوطن بالحشان وتوفي ودفن به رحمة الله عليه».

30 ـ محمد أبو عرقوب العموري[2]: هو ممن عرفهم المؤلف وأورد أنه دفن بطيب الاسم بالجفارة.

31 ـ عائشة أبو عرقوب العموري[3]: هي أخت العلم المتقدم ذكره، قال عنها المؤلف كانت لا تفتر عن الذكر سراً وجهراً حتى قالت لأخيها: اسأل أهل العلم إن كان الذكر يفطر الصائم أم لا، لما تجده من حلاوة الذكر والاقتيات به.

32 ـ آل النفاتي[4]: قال المؤلف: «وممن رأيناه وعرفناه وله علينا حقوق الشيخ كبير السن العارف بالله ذو الأخلاق الحميدة والمناقب السديدة، والمواعظ المفيدة سيدي حسين وابن عمه سيدي علي النفاتي، كانا من أهل

---

(1) المخطوطة ص 16 والرحلة المنالية (انظر الحاجية ص 137).
(2) المخطوطة ص 17.
(3) المخطوطة ص 17.
(4) المخطوطة ص 17.

العفاف والصدق وحسن الأوصاف وكذلك أخته فاطمة بنت سيدي علي النفاتي»[1]. وقال إنه زارها وحدثته بكرامات أبيها.

33 ـ أبو سلامة المحجوب[2]: أخذ عن الشيخ علي الحموري «وله مقدمة في التصوف في معرفة المقامات والأحوال والنفوس».

34 ـ محمد بن سعيد الهبري[3]: له على المؤلف تربية ومشيخة ووصفه بالشيخ القطب العارف بالله صاحب مقام الإحسان شيخ الطريق الجامع بين الشريعة والحقيقة، القاطن بساحل طرابلس، ثم قال: «كنت في بدايتي أحب الصالحين وانظر في أثرهم وما كانوا عليه، فلم أجد من كملت فيه شروط التربية فبقيت متحيراً اسأل أهل الصلاح عن ذلك... وأخذت في السفر لطلب المربي ثم أخبرني أخي في الله سيدي محمد بن موسى فقال: أما عندك خبر بالشيخ المربي وهو قريب منك بالظهرة التي قبلي العمروص وهو سيدي محمد بن سعيد المغربي، أخذ عنه العلم العلامة سيدي محمد (العلالي) وسيدي محمد مختار وسيدي علي سليمان».

وقد اجتمع عنده عدد من العلماء والصالحين منهم محمد النعاس وأحمد الشريف بن محمد عياش، وعلي بن سليمان، ومحمد الماعزي وأحمد شمس الدين.

ووصف المؤلف شيخه محمد بن سعيد الهبري بأنه كان «ذا هيبة ووقار، وصمت وأفكار، ومحبة وأسرار، وكان ساكناً بالجبل لا يتحرك إلا عندما يغلب

---

(1) الشيخ علي النفاتي زميل الخروبي وصاحبه الأقرب، ذكره في ترجمة شيخه ابن زيتون وغيرها (انظر شيوخ أبي عبدالله الخروبي).

(2) المخطوطة ص 19.

(3) المخطوطة ص 19 وما بعدها والمنهل العذب ص 254 والنفحات ص 130 ورحلة الورثلاني ص 139 ـ 140، 636 التذكار 225 الرحلة المنالية (الحاجية ص 132 وفيها أنه توفي سنة 1121 هـ وص 135، 136، 137).

عليه الوجد فيقول القول تارة نثراً وتارة نظماً»[1].

وأورد بعض شعره ونثره، منه أبيات سمعها منه عشية اليوم السابق لوفاته وله رسائل إلى صديقيه محمد الفلاني وعبد الوافي أبو صلاح.

ولا بأس أن نورد شيئاً من نثر الشيخ الهبري لنطلع من خلاله على أسلوبه وطريقة تفكيره يقول: «حكمة القرآن في قراءته، فقوم اشتغلوا بالحروف والأصوات من القرآن، ونظموا مفصلاته وحفظوا آياته، وهم أئمة العوام الذين حظهم الرسوم، وقوم اشتغلوا من القرآن بحدوده ومعانيه، وخافوا حيث خوَّفهم فتحذروا فوجلت قلوبهم فكان سبب نجاتهم من المخالفة، وقوم شوّقهم فاشتاقوا إلى محسناته فارتحلوا من عوائدهم ولهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة وهم أكثر سكان أهل الجنة. وأقلهم سكان أهل الحضرة الإلهية، وقوم قرؤوا القرآن فوجدوا فيه ضمير المتكلم بنفسه فسمت أرواحهم بشائق القرب، وتتابعت ضمائر الحب، فوجدوا العين وانتظم البين، فصار خطابهم للمتكلم بنفسه ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ففاهوا بدموعهم مما عرفوا من خطاب ضميره، وأخرست ألسنتهم بالتعبير، فعرفوا الحق بالحق فصاروا جلساء الحضرة الإلهية.

ويشير ضمن ترجمة الهبري إلى رسالة أتته من محمد الماحي تدل على المكانة التي يتمتع بها الشيخ في نفسه منها قوله: «إلى الإمام الأعظم والشيخ الأكبر قطب دائرة الوجود أبي عبدالله سيدي محمد بن سعيد الهبري الطرابلسي داراً».

وقد رد عليه تلميذان من تلاميذ الشيخ في طرابلس، أولهما أحمد بن عبدالدائم[2] الذي ضمن رسالته شيئاً من النظم والنثر له ولغيره، فمن شعره من

---

(1) المخطوطة ص 30 السطر الأخير.

(2) أورد له الزاوي ترجمة في أعلام ليبيا ص 52 نقلاً عن مخطوط مفقود كان في دائرة أوقاف طرابلس، وأظنه كتاب الإرشاد إلى معرفة الأجداد (انظر: مؤرخون من ليبيا ص 161).

قصيدة طويلة، أساءت إليها يدُ الناسخ:

ألا قــل لخــل تمــادى علــى ... ركـوب الـدنـا مـا الـذي حملك

أتطمــع فــي جيفــة حــدبــت ... عليهــا كــلاب ومــا عللــك

فــلا تغتــرر بــالخيــال الــذي ... يــدور عليــك كــدور الفلــك

ودع مــا تــريــد ومــا تشتهــي ... فمــا ثــم إلا مــراد هلــك

وعــش خــامــل الــذكــر ذا همــة ... تكــاد تــلابــس ذات الحبــك

وإمــا أرتــك (سنــا ظــاهــر) ... فحــاذر وإيــاك أن يخــدعــك

وطهــر قليبــك مــن وهمــه ... وهيــىء منــازلــه للملــك

ولاحــظ بعيــن البصيــرة فــي ... أمــور الأزل قــد تجــد راحتــك

ولا تــك عبــداً لــدنيــا ولا ... لبطــن وفــرج ولا درهمــك

وكان الشاعر يكتب قصيدته فيما يبدو بتأثير أبيات أوردها في رسالته لمن وصفه ببعض الأكابر يقول مطلعها:

ألا قــل لمــن رام درك العــلا ... ولــم يــرض دون السهــا منــزلا

وهي على بحر المتقارب مثل قصيدة ابن عبد الدائم وفيها معانٍ قريبة من معانيه.

أما الرد الثاني فصاحبه علي بن سليمان الذي كان أمياً غير أن رسالته دلت على ثقافة صوفية برغم أميته.

35 ـ عبد الخالق بن يدرمين[1]: قال المؤلف: «تذاكرت مع بعض الأخوان فيه «يعني كتابه» فدخل علينا سيدي عبد الخالق وقال: أذكرني فيما ذكرت عندك، فأنا عبد الخالق بن مبارك بن عبد الخالق بن حسن بن فرج بن عطية بن محمد بن يحيى بن قاسم بن عبد الله بن يدرمين».

---

(1) الصفحة الأخيرة من المخطوط وأظنه عبد الخالق الذي أشار إليه الورثلاني في رحلته فذكر أنه أحد تلاميذ محمد ابن سعيد أعطاه أستاذه كتاباً بالتركية فقرأه.

ختـــــام

ثم ختم الشيخ عبد الرزاق الغرياني كتابه بقوله: «وذكرتُ قولي مع أقاويلهم كأني أقول عرفت أكابر الصالحين وأخذت من المشايخ العارفين وصحبت الأولياء والعلماء العاملين، وإني والله مقصر عن دقيقة حالهم والعمل بآثارهم ولم نذكر بعضهم لما يعسر عليَّ من حصرهم وهم كثيرون لا يعلمهم إلا الله نفعنا الله وإياكم بهم. . . آمين».

فهرس التراجم

المصادر والمراجع

أولاً: المخطوطات:

1- مخطوطة في ذكر بعض الأولياء والعلماء لعبد الرزاق الغرياني.

2- مخطوطة في التصوف لعبدالله بن محمد الهاروش المغربي.

3- وسيلة المشتاق وتكرمة العشاق لمؤلف مجهول.

4- فيض الخلاق بشرح وسيلة المشتاق، لمحمد بن علي الداودي الغرياني.

ثانياً: المطبوعات:

1- أحمد بن محمد الفاسي: الرحلة الفاسية (انظر الحاجية لعلي فهمي خشيم).

2- أحمد بن محمد ناصر الدرعي: الرحلة الناصرية (انظر الحاجية).

3- أحمد النائب الأنصاري: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، منشورات مكتبة الفرجاني (لات). نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان، تحقيق علي مصطفى المصراتي المكتب التجاري بيروت 1963.

4- إسحاق إبراهيم المليجي: على هامش حياة سيدي عبد السلام الأسمر نشر مكتبة النجاح 1969.

5- أمانة الإعلام والثقافة: دليل المؤلفين العرب الليبيين طرابلس 1977 م.

6 ـ الحسين بن محمد الورثلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، نشر بعناية محمد بن أبي الشنب وأعادت تصويره دار الكتاب العربي بيروت 1974 م.

7 ـ الطاهر أحمد الزاوي: أعلام ليبيا، نشر مكتبة الفرجاني 1971 م.

8 ـ عبد السلام بن عثمان الفيتوري: الإشارات لبعض ما بطرابلس من المزارات مكتبة النجاح طرابلس (لا ت).

9 ـ عبد المجيد المنالي: بلوغ المرام بالرحلة إلى بيت الله الحرام (انظر الحاجية).

10 ـ علي فهمي خشيم: الحاجية ثلاث رحلات في البلاد الليبية، جمع وتحقيق نشر: دار مكتبة الفكر، طرابلس 1974.

11 ـ علي مصطفى المصراتي: مؤرخون من ليبيا، نشر الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان طرابلس 1977 م.

12 ـ محمد بن خليل بن غلبون: التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخيار: الطبعة الثانية بعناية الطاهر الزاوي نشر مكتبة النور طرابلس ليبيا، 1967 م.

منشوران أدبيان

من تاريخنا الثقافي

منشوران أدبيان من تاريخنا الثقافي

دخل النظام القضائي التركي إلى الإيالة الطرابلسية بعد سنة 1835، وفي عام 1869 م. عملت الإدارة العثمانية في عهدها الثاني على تطوير الجهاز القضائي وتأكيد توزيع التخصصات بين القضاة المدنيين والشرعيين.

على أن ذلك لم يَحُل بين المواطنين والتجائهم إلى المحاكم الشرعية وعلماء الفقه في حل نزاعاتهم، وقد أكد ذلك الرائد انتوني ج. كاكيا في كتابه عن ليبيا خلال الحكم العثماني الثاني، حيث قال: (وفي الواقع أن تطبيق القانون التركي في ليبيا كلها كان بالاسم فحسب لأن الأتراك، حتى في أواخر حكمهم، لم يكونوا يستطيعون فرض هذا القانون إلاّ على المناطق الساحلية، والأماكن المكتظة بالسكان. وكان سكان المناطق الداخلية يتمسكون بقوانينهم التقليدية ويطبقونها، وكانوا يعارضون، وبالقوة أحياناً، المحاولات التي تقوم بها الإدارة التركية لتعديل النظام القضائي)[1].

النص الأول

والوثيقة الأولى التي ننشرها في هذا العدد نسبت إلى شاعر عاش في تلك الآونة ومثل نصُه رفض الفقهاء لأنظمة القضاء العثماني الجديدة المتمثل في

(1) ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني 1835 - 1911، انتوني ج. كاكيا. طبعة دارة الفرجاني سنة 1975 ص 80.

منشوران أدبيان من تاريخنا الثقافي

دخل النظام القضائي التركي إلى الإيالة الطرابلسية بعد سنة 1835، وفي عام 1869 م. عملت الإدارة العثمانية في عهدها الثاني على تطوير الجهاز القضائي وتأكيد توزيع التخصصات بين القضاة المدنيين والشرعيين.

على أن ذلك لم يَحُل بين المواطنين والتجائهم إلى المحاكم الشرعية وعلماء الفقه في حل نزاعاتهم، وقد أكد ذلك الرائد انتوني ج. كاكيا في كتابه عن ليبيا خلال الحكم العثماني الثاني، حيث قال: (وفي الواقع أن تطبيق القانون التركي في ليبيا كلها كان بالاسم فحسب لأن الأتراك، حتى في أواخر حكمهم، لم يكونوا يستطيعون فرض هذا القانون إلاّ على المناطق الساحلية، والأماكن المكتظة بالسكان. وكان سكان المناطق الداخلية يتمسكون بقوانينهم التقليدية ويطبقونها، وكانوا يعارضون، وبالقوة أحياناً، المحاولات التي تقوم بها الإدارة التركية لتعديل النظام القضائي)[1].

النص الأول

والوثيقة الأولى التي ننشرها في هذا العدد نسبت إلى شاعر عاش في تلك الآونة ومثل نصُّه رفض الفقهاء لأنظمة القضاء العثماني الجديدة المتمثل في

(1) ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني 1835 ـ 1911، انتوني ج. كاكيا. طبعة دارة الفرجاني سنة 1975 ص 80.

المجلة العدلية، وتمسكهم بأنظمة الشريعة الإسلامية وأحكامها الواردة في كتب الفقه.

وقد ورد في مقدمة النص أن قائله هو الشيخ الشافعي بن محمد المقرحي[1] وقصيدته تدلُّ على طول نفس؛ وبرغم الخلل الذي يظهر على بعض ألفاظها وقواعدها فإنها دليل على إمكانات طيبة في مجال التعبير الشعري، وهي كما يلي:

يا من بُلي بمجلس الضلال[2]	كن نابذاً في الدين لا تبالي
واعتقدوا القانون للشرع بدل	وبالحلال والحرام لا تَقُل
بل كُلّما قالوا به ضلالُ	أما الحرام عندهم مُحال
هُم نبذوا شريعة الرسول	واتبعوا مستحسن العقول
واتخذوا قوماً لفصل الحكم	بين عباد الله صُمٍّ بُكمِ
ولم تجد ناهٍ[3] ولا منتهيا	إلاّ الذي لربه قد نسيا
بغير تنزيل الإله حكموا	قد كفروا وفسقوا وظلموا
هذا صريحٌ جاء في القرآن	في سورة العقود يا إخواني
ضلالهم سموه بالمنيف	مضاهياً لشرعنا الشريف
تلك زخارفٌ بها قوم أتت	دليل طردهم من الدين ثبت

(1) هو الشافعي بن محمد بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن المقرحي، أحد علماء الزاوية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين، تولى الفتيا والتوثيق بجبل نفوسة، وانتقد في قصيدته هذه مجلة الأحكام العدلية التي أصدرتها الدولة العثمانية سنة 1293 هـ (انظر ترجمته في أعلام ليبيا 166 والتوثيق في الشريعة الإسلامية/ للدكتور جمعة الزريقي 144).

(2) الإشارة إلى مجلس (المندوبان) غالباً، هو الذي استحدث في العهد العثماني الثاني.

(3) ناه: كذا وهو واحد من الأخطاء النحوية التي تركتها على حالها لما في إصلاحها من إخلال بالوزن، وتعتبر في الأصل الدال على ثقافة كاتبه.

لو قيل للذميِّ خالف ربّي — في أمره لقال لا ورَبِّ

واظهر الإعراض حقاً وامتنع — وقال من يقول ذا قد ابتدع

ولا يرى الخروج عن توراته — مُبَدِّلاً لدينه هيهاتِه

وهؤلاء تركوا الشريعة — وسلكوا طريقة شنيعة

ولا حياءَ عندهم ولا خجل — من مالك المُلك إلا هنا الأزل

ولا من الرَّسُول ثُمَّ الخلفا — ولا من الصّحابة وذا منهم كفا

ولا من الأئمة الأبرار — السالكين طُرقَ المختار

[فانظر][1] لذا القول وقل يا عجبا — من مسلم لغير دينه صبا

قلوبهم غمَّ عليها الران — لا يُستمع وعظٌ وقرآنُ

يا ويلهم يوم الحساب البُعدا — فلن يَرَوْا مَنّاً ولا لهم فدا

إلا عذاب ربنا الأليمَ — سبحانه منتقماً حكيما

وتركوا ما ألَّف الأجلَّه — وحكموا في الناس بالمجلَّه

فهي مزلَّةٌ لقوم زلُّوا — عن منهج الحق الصحيح ضلوا

من سمع القول كفاه ما سمع — ما ابعد الخير على أهل البدع

وكل من كان لهم جليساً — في مجلس البغي جزاه بيسا

تالله والله فلا غفران — لجمعهم ليُسمع البهتان

[لأنه غفراناً له شرط حضر][2] — ما دون فعلهم به النص صدر

ومَن لمعلومِ ضرورةَ جَحَدْ — في آخر البيت تأمل تستفد

ومن تولى خطة البداية — قالوا له: والله نلت الغاية

مع أنها بدعٌ لهدم الدين — كن نابذاً لقولهم في الحين

(1) في الأصل: تأمل، ولا يستقيم به الوزن.

(2) في الأصل «لأن الغفران له شرط حضر» ولا يخفى ما في الوزن من اضطراب.

حتى توهم الرذيل العطنا		بأنه صار شبيه العُلما

من أيّ وجه شبه الشقيُّ		بسادة تفضيلهم جَليُّ

جاءت به الآيات في القرآن		كذا الحديث شاهد العيان

مع أنه ذو نسب دَنِيّ		تالله لا يرضى به قبطيّ

وكثرة تتابع الآيات		يا طامعاً بالخير ذا هيهات

وكل من كان دنيّاً في النسب		قد شاع ذكره وللقِرَى احتسب

وشيّد البنيان يا خليلي		مفتخراً بأصله الرذيل

مثل رعاة الشاة والقول سَبَقْ		وفي الحديث تجد القول الأحقْ

سؤال جبريل لسيد الرسل		يكفيك يا هذا ودع عنك الجدل

ولا تقل فيما جرى كيف جرى		ذا قرن أربع وزدهم عشرا

هذا أوانه وجارٍ في القضا		وربنا ذو الفضل يعطينا الرضا

ومن له فضل كعلم وشرفْ		تراه خامداً وبالذُّلّ اتَّصفْ

لا يُعبأوا بقوله في ذي الدول		وقوله إن قال ما به عمل

وخالفوا وصية العدنان		بخفض آله كذا القرآن

هم يبغضون الآل كل البغض		ويرصدونهم بكل أرض

وجعلوا مكاتب الرُّشديهْ[1]		ليعدموا القرآن بالكليَّهْ

ومُدع العلم يقول أني		أنا معلِم لهذا الفن

لأجل تحصيل الحطام الفاني		تالله هذا غاية الخسران

وكيف ذمّيٌّ يرى منتخبا		بمجلس الإسلام [قل يا عجبا][2]

مماثل لعالم الإسلام		عَمَّت بنا البلوى بلا كلام

---

(1) الرشدية: نوع من المدارس.

(2) في الأصل: هذا عجبٌ.

يـا أمـة المختـار يـا أبـراري — المـوت فيهـا راحـة الأخيـار

تَضَـرَّعـوا لله يـا إخـوانـي — يكـون مـوتنـا علـى الإيمـان

وفعلهـم هـا هـو بنـا منـوط — وخَيطهـم تمـت بـه الشـروط[1]

مـا فيهـم خـلٌ ولا صـديـق — إلاّ لئيـمُ النفـس والـزنـديـقْ

هم الـدجـاجـلُ فـلا تُصـغ لمـن — يبغـي طـريقهـم وللمـنْ ركـن

في إثـرهـم يـأتـي لنـا الـدَّجـالُ — دَليـلُ ذا مـا أظهـروه الحـالْ

لا ينصـر الـديـن سـوى الهُمـام — إمـامنـا المهـديِّ خُـذ كـلامـي[2]

ظهوره في المغرب الأقصى يرى — مثـل هـلال طـالـع بيـن الـورى

نعطيـك وصفـاً كـافيـاً تـرضـاهُ — كـأنـك بـالعيـن قـد تـراه

نـالـت يـداهُ غـايـةً فـي الطـول — لـه صفـات تشبـه الـرسـول[3]

أحجل وأقنى الأنف ضخمُ الهامهْ — نصـر الإلـه سـائـر أمـامـه

محمـد نجـلُ لعبـد الله — إيـاك أن تسمـع مقـالَ واهِ

تـالله إن لـم (يـأتِ) بـالمـوعـود — لأبطلـوا الـديـن بـذي البنـود

وخـربـوا معـالـم الإسـلام — وشيـدوا القـانـون [بـالنِّظـام][4]

(1) إشارة إلى المقولة الشعبية إذا أصبح الكلام في الخيوط والماء في الخبوط فقد أوشكت الساعة على القيام وتمت الشروط.

(2) إشارة إلى ظهور الإمام المهدي، والحديث عن الطوائف التي ترى ظهوره والتي لا تراه طويل في كتب العقائد الشيعية والسنية فاطلبه هناك.

(3) الرسول: بكسر الكلمة على خلاف موقعها المنصوب إعراباً وقد تكرر هذا في القصيدة، وله دلالته عن ثقافة الشاعر.

(4) في الأصل: والنظام وهو يوافق مراده ويخالف حركة الروي.

النص الثاني

والمنشور الثاني شعري أيضاً كتبه العربي المكي الزنتاني أشار فيه إلى استبدال القانون بالشرع وهي القضية التي تناولها المنشور السابق مما يدل على التقارب الفكري والزمني بين القصيدتين، وإن كان ذلك ينطبق أيضاً على الحكومات الاستعمارية التالية للعهد العثماني يقول العربي المكي:

ما العدلُ إلا كلام لا معاني له	إن العدالة فينا مَسَّها الضرر
كيف العدالة في قوم أساؤوا إلى	دين النبي ودين [الصُّحبةِ][1] الغُرر
قد بدلوا الشرع بالقانون ويلهم	مما حذوه إذا ما الخلق تنتشر
قد قال ربُّ العباد في كتاب له	الحاكمون بغير الشَّرع قد كفروا
ذا النعت يكفيك منه في إدانتهم	فلا تكن بينهم يا ويلهم خسروا
يأتي الضعيف إليهم لا ذنوب له	فيدخل السجن ظلماً وهو محتقر
فالعدل قد ضاع بين الناس واأسفاً	على العدالة بعد الحازم عمر

وأخيراً، فإن هذين المنشورين الأدبيين يعكسان الحالة الفكرية التي واجه بها المجتمع المسلم في ليبيا تلك التحولات التي بدأت في عصر النهضة وأسهمت في إحلال القوانين الأوروبية محل قوانين الشريعة التي سادت في هذه البيئة منذ أن دخلها الإسلام.

وقد نشرتها في سياق بعث الأعمال الأدبية والفكرية التي تبرهن على أن البيئة لم تكن بمنأى عن الثقافة في مرحلة من مراحل حياتها، وإن تفاوتت المستويات العلمية بين العصور تفاوتها بين الأفراد في العصر الواحد.

---

(1) في الأصل: «صَحْبِهِ» وهي لفظة توافق مراد الشارع ولكنها تكسر الوزن.

رسالة حول الحياة الأدبية

في العهد الإيطالي

رسالة حول الحياة الأدبية
في العهد الإيطالي[1]

أبناء هذا الجزء من الوطن العربي ما فتئوا يبدون حماستهم لخدمته، ويعملون على رفعة شأنه في كل الظروف، برغم فترات المحن العسيرة التي عايشوها عبر تاريخه الطويل.

وبين أيدينا رسالة كُتبت في العهد الإيطالي البَغيض بيد وطني غيور من داخل الوطن إلى مثيله في دار الهجرة بسوريا. وقد اجتمعت الأدلة على أن المرسل هو الأديب الشاعر أحمد الفقيه حسن (1894 ـ 1975)[2] وهو الذي صار غنياً عن التعريف بفضل تلك الترجمة القيمة لحياته وأدبه التي خصه بها الأستاذ محمد مسعود جبران، حتى لا يعدو ما يكتب عنه بعدها أن يكون محاكاة قاصرة أو مختصرات مخلة؛ ولذا نحيل المستزيد من أخبار الأديب وآثاره إلى تلك الترجمة النفسية وما أضيف إليها في ثوبها الجديد[3].

---

(1) نشرت بمحلة الوثائق والمخطوطات، السنة الثانية العدد الثاني 1987، ص 213.

(2) وكاتب الرسالة شاعر وأديب وسياسي له ديوان شعر ومقالات أدبية قيمة، أسس النادي الأدبي سنة 1920 م والحزب الوطني سنة 1946. وإليه يعود الفضل في العناية بمكتبة الأوقاف وتطوير محتوياتها.

(3) «أحمد الفقيه حسن حياته وأدبه» محمد مسعود جبران، الدار العربية للكتاب، تونس 1976. وقد أضاف الأستاذ المذكور إلى هذا الكتاب إضافات جديدة قيمة رأيتها مخطوطة في بيته العامر وسيكون صدورها موفياً بكل المعلومات والآثار الشعرية المنسوبة للشاعر.

وإذا كانت لنا من إضافة هنا فهي أن الرسالة التي بين أيدينا تعزز وصفه بالأديب الناثر، وتُعدّ أثراً آخر يُضم إلى آثاره النثرية.

أما المرسل إليه فهو الأستاذ فوزي النعاس، أحد المؤسسين لجمعية الدفاع الطرابلسي البرقاوي، الذي هاجر إلى الشام بصحبة والدته ولم يتجاوز الرابعة عشر من عمره، تعلم هناك ثم أسهم في وضع ميثاق جمعية الدفاع عن ليبيا سنة 1925 وتولى أمانة سرها[1]. والرسالة رَدٌّ من الفقيه على رسائل سابقة كان النعاس قد طلب فيها إمداده بما يتوفر لديه من آثار الليبيين في ميدان الشعر.

وقد تعذّر الجزم القطعي بأن الرسالة لأحمد الفقيه حسن لتوقيعها بصفة (شاعر) دون إشارة إلى ما يفيد التعريف بالكاتب، ولكنها فيما يبدو مسودة تعوَّد الشاعر أن يترك مثيلاتها في مكتبه ويرسل البيَّاضة مشفوعة باسمه، وربما بتاريخ المراسلة وبإضافةٍ أو حذف من النسخة الأولى، وقد ظهر ذلك جلياً في الرسالة التي استعان بها الشيخ الطاهر الزاوي حول ترجمة أحمد بن عبد الدائم الأنصاري ومسودتها الموجودة ضمن مخطوطات مكتبته[2]. على أن تعذر اليقين في نسبة الرسالة إلى الرجل لا يمنع من وجود أدلة تقوِّي ترجيح نسبة هذا الأثر لصاحبه، ومنها أن المخطوطة ضمن محتويات مكتبة أسرة الفقيه حسن التي انتقلت إلى مركز جهاد الليبيين، وهي تحتوي على عدد من مسودات رسائل كتبت بخط الأديب لا تختلف عن خط هذه الرسالة.

ومنها أنها موقعةٌ بكلمة (شاعر)، ولا نعرف من أفراد أسرة الفقيه حسن في هذه الفترة من يتصف بهذا اللقب أو يجرؤ على التوقيع به غير أحمد الفقيه

---

(1) انظر كفاح الليبيين السياسي في بلاد الشام، تيسير بن موسى، منشورات مركز الجهاد، ص 88.

(2) راجع مخطوطات الفقيه حسن بمركز الجهاد وأعلام ليبيا ص 52. ومقدمة تاريخ ابن غلبون، ص: ح.

هذا، وهو صاحب ديوان شعري كما نعلم. والدليل الثالث أن مراجعة متأنية لأسلوبه في نصوص أخرى تقنع الدارس بأنه دون غيره صاحب هذه الرسالة. كما أن عرضها على من لهم صلة بمخطوطات الأسرة قد أكد دون ريب نسبتها إليه[1].

وليس اسم الكاتب هو المعضلة الوحيدة في التعريف بهذه المخطوطة، إذ أنها تخلو كذلك من أي تاريخ أو إشارة تحدد زمن كتابها، على أن تاريخ وفاة المرسل إليه وهو الأستاذ فوزي النعاس سنة 1938 م يدل على أن زمن إرسالها كان قبل هذا التاريخ، وربما قبل أن يصاب بمرضه الذي أقعده عن العمل[2]. ولعل ذلك الحذر الذي يلمسه القارىء في إجابة شعراء البلد لطلب النعاس ـ يرجح أنها كتبت بعد سنة 1931 م حين (كممت الأفواه... واشتدت الرقابة، وأصلت السيف فوق أعناق الأحرار)[3].

وبعد، فالرسالة تعرض بأسلوبها الشائق جملة من القضايا على درجة عالية من الأهمية في تاريخنا الثقافي والسياسي، وتدل على سعة مدارك الكاتب ودقته في ميدان البحث العلمي.

نلمس ذلك من المحاذير التي يضعها أمام هذا العمل برغم حرصه على قيامه به؛ فهو يرى أنه لا يحتاج إلى بلاغة الكاتب وفصاحته بقدر حاجته إلى دقة الباحث وصحة مصادره، وقدرته على تذليل المصاعب في سبيل جمع المادة «إذ لا يستطيع المؤرخ وبالأخص الأدبي أن يعتمد في تاريخه على مقدرته وعبقريته القلمية، فيرسل لليراع عنانه حتى يصبح المجلى في ذلك الميدان، وحيث التاريخ يُستقى من الثِّقاة ويُروى عنهم بكل تثبت وتمحيص».

(1) في مقدمة أولئك الأستاذان محمد مسعود جبران وإبراهيم سالم الشريف اللذان أكدا بما لا يدع مجالاً للشك أن الرسالة بخط وأسلوب الشاعر أحمد الفقيه حسن.

(2) كفاح الليبيين، ص 88.

(3) الاتجاهات الوطنية في الشعر الليبي الحديث، محمد عفيفي، ص 398.

وهذه نظرة ناقد عالم يعرف للبحث العلمي أصوله وأمانته، وهي كفيلة بأن تجعل أي أثر تاريخي تركه الرجل محل ثقةٍ واعتبارِ الباحثين.

وتعرضت الرسالة إلى الصعوبات التي كان يلاقيها الأديب في هذه البيئة، وتنعكس بالتالي على صعوبة عمل من كرسوا جهودهم لجمع نتاجه الأدبي، فهو يرى أن الشاعر كان في ضائقة مادية ومعنوية تشغله عن التفكير في الكتابة، فإذا كتب فإنه يحذر الحذر كله من رقابة المستعمر، ويحتاط من جبروته وسطوته التي تمنع حرية التفكير والتعبير، ولذا نرى الكاتب يؤكد على أن الحرية هي الشرط الأول لأي نهضة أدبية مأمولة: «فعلية أرى أول شرط يتعين على من يريد أن ينشر أثره حرية الفكر والتعبير عن رأيه بكل صراحة ووضوح».

ثم يخلص إلى القول بأن الشعر لم ينضج في بلادنا نضوجاً يستحق معه النشر إلاّ ما كان من أدب المهاجرين الذين تمتعوا في غربتهم بما لم يتوفر لإخوانهم المقيمين من حرية وتعليم.

أما أسلوب الرسالة فهو ذلك النمط السائغ الخالي من أثقال الصنعة وركاكة أساليب عصر الانحطاط، وقد أحسن الأستاذ جبران حين صنف الشاعر ضمن جماعة المرحلة الثانية من مراحل النثر في بلادنا، وفيها يتخلص هذا الفن من إسفاف النمطين المذكورين[1].

كما يمتاز أسلوب الرسالة بحسن التضمين بالأمثال والأشعار المتقنة الاختيار، وبجزالة الألفاظ في غير ما غرابة وتكلف، وبالقدرة على التعبير عن جمهرة من العواطف والأفكار والشجون. على أن غاية البلاغة في الرسالة هو اختتامها بكلمة (ويا ليتهم) وفيها من حسن الاكتفاء وتعمية المراد، جعلها في أمكن موقع من النفس وأطيبه.

---

(1) محمد جبران، المصدر السابق، ص 52 وما بعدها.

النص

الأستاذ السيد فوزي النعاس (دمشق).

وردت علينا رسائل تشعر بسعي الأستاذ في تأليف أثر طرابلسي[1] أدبي، وقد كان لهذه الرسائل وقع حسن في قلوب الذين يودون نهوض الوطن من كبوته وإبراز شخصية له في عالم الأدب، ولم يعلم الأستاذ أن ذلك دونه (خرط القتاد)[2] إذ لا يستطيع المؤرخ وبالأخص الأدبي أن يعتمد في تاريخه على مقدرته وعبقريته القلمية، فيرسل لليراع[3] عنانه حتى يصبح المُجلى[4] في ذلك الميدان. وحيث التاريخ يستقي من الثقاة، ويروي عنهم بكل تثبت وتمحيص من غير ما انحياز عن الحقيقة التي يتطلبها.

وهذا لعمري دونه (عرق القربة)[5]، وبعد الشقة في هذه السبيل التي يتيه بها الخريت[6]. وكيف ونحن في بلد ضاق بأديبه ذرعاً، وعقه عقوقاً أخرجه عن حده المألوف حتى نبذه، وأصبح فيه من سقط المتاع:

وما للمرء خير في حياة   إذا ما عد من سقط المتاع[7]

فليس لأديبنا الطرابلسي من يشجعه ويأخذ بيده من أبناء جلدته حتى بقراءة

---

(1) أطلق طرابلس وأراد به البلاد كلها لأن (طرابلس الغرب) هو الاسم الذي كانت تعرف به قبل الحرب العالمية الثانية.

(2) الخرط: قشر الورق عن الشجرة اجتذاباً، والقتاد: شجر له شوك حاد. والمثل (يضرب للأمر دونه مانع) انظر مجمع الأمثال 1/ 65.

(3) اليراع: القصب ومنه تصنع الأقلام سابقاً.

(4) المجلي: السابق في الحلبة.

(5) قال في القاموس (عرق القربة: كناية عن الشدة والمجهود والمشقة).

(6) الخريت: الدليل الحاذق.

(7) البيت من جملة أبيات خاطب بها قطري بن الفجاءة نفسه (انظر شعر الخوارج 42-43)، ووفيات الأعيان ط دار الثقافة 4 ص 94.

ما يجهد به فكره، ويقدح به قريحته في إعلاء شأن شعبه ورفعه إلى مستوى الرقي فهو:

يقـدح الفكـر مضيئـاً للـورى كـلَّ نهج للعـلا فـي الغيهـب
إنـه الشمعـة للنـاس الضيـا ولهـا يبقـى وهيـج اللهـب

هذا وبورود تلك الرسائل الغراء هبَّت روح جديدة أنشئت بعضاً من أُدبائنا لجمع ما نظمه شعراؤنا وإرساله إلى دمشق حتى يُنشر هناك فيُذكر؛ إذ ليس في هذا البلد من يعير للشعر سمعاً أو يقيم له وزناً:

فالمنـدل الـرطـب في أوطانـه حطـب[1]

وقد راجع أولئك الأدباء شعراءَنا، وطلبوا منهم المختار من آثارهم وأشعارهم فوجدوهم في شغل شاغل عن ذلك، وقد أدركت كلَّ أحد حرفةُ الأدب:

تبَّـتْ الحـرفـة إذ كـانـت لـه عـائقـاً عـن نيـل أدنـى مطلـب
أبعـدت عنـه المنـى مـن بعـدمـا هـذبتـه فغـدَا كـالـذهـب

فإذا ما طلبت شيئاً من أثر أحدهم، وعرضت عليه فكرة الأستاذ الذي يمرح في أرجاء دمشق الفيحاء، ويناغي الحرية في ذلك الفضاء، وقع ذلك الطلب في نفسه موقعاً عجيباً؛ حيث إنه في بلد غير دمشق، وقطر غير الشام، فهو والحالة هذه يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في إرسال المختار من أثره والجيد من شعره، آخذاً بالحيطة والحذر في بلد يصح فيه قول أبي العلاء المعري:

في بلدة مثل ظهر الظبي بتُّ بها كأنني فوق روق الظبي من حذر

---

(1) ينسب هذا الشعر ضمن بيتين مشهورين إلى الأمير الملك ابن ماكولا والبيتان هما:
قوِّضْ خيامك عن أرض تهان بها وجانب الذُّلَّ إن الذل يُجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة فالمندل الرطب في أوطانه حطبُ

فعليه أرى أول شرط يتعين على من يريد أن ينشر أثره حرية الفكر والتعبير عن رأيه بكل صراحة ووضوح، وهذا ما تطمح إليه نفس الشاعر حتى يصبح بذلك المفلق المبرز بين الشعراء المجيدين، فهناك تتقاطر عليه المعاني فينظم ما شاء، وينبذ ما لم يشأ. وبهذه الصراحة يزداد شعره رونقاً، وتبدو عليه طلاوة من الحسن تشربها[1] القلوب وتتلقفها الأسماع بكل ارتياح، وإذا ما اختل هذا الشرط اختل معه نظام الشعر الذي يتطلبه في كل وقت وآن.

والخلاصة، أن الشعر لم يبلغ مستواه عندنا ولم ينضج نضوجاً يستحق به النشر إذ ربما كان في نشره ما يحط بكرامة الشعب الطرابلسي، ويرجع به القهقرى، فعليه أرى الوقت لم يحن، اللهم إلاّ لأفراد صقلت قرائحهم الغربة، وتحملوا مضاضتها بفرقة الوطن، وأصبحوا يتغنون به، ويحنون إليه، كالأستاذ المفضل الذي دعاه إلى مثل هذا المشروع حبُّه لوطنه الذي هو بعيد عنه الآن، ولو كان فيه لرجع عن فكرته التي كان مفتتناً بها أمثاله من أبناء الوطن الألى عادوا إليه بعد فراقه... ويا ليتهم.

شــــاعــر

إن هذه الرسالة لا تمثل الحياة الأدبية في العهد الإيطالي كما يبدو من عنوانها، ففي هذا العهد عاش شعراء أمثال أحمد الشارف وأحمد رفيق وأحمد قنابة وأحمد الفقيه حسن وإبراهيم الأُسطى عمر وسواهم، ولكنها تصور مدى الضيق الذي يعاني منه الشاعر في التعبير عن أفكاره الوطنية وآرائه الدينية، وهي بذلك صورة لمعاناة الأديب في عهد الاستعمار البغيض.

---

(1) كذا ولعلها تُسَرُّ بها.

مسرد لنماذج

من مخطوطات الجبل الغربي

مسرد لنماذج
من مخطوطات الجبل الغربي[1]

يحتوي هذا المسرد على حوالي ثلاثمائة مخطوطة في علوم شتى كالعقائد والفقه والأدب والنحو والبلاغة والحديث والتفسير والتصوف والتراجم والمنطق والتاريخ والمواريث والطب والفلك.

وتضم محتوياته مؤلفات لبعض أبناء القطر العربي الليبي أمثال علي بن عبد الصادق، واحلولو، والغدامسي، وابن سحبان، والباروني، والنعاس، والقلعاوي، والأسمر، وابن منيع، وعمر السوداني، والشماخي، والكاباوي، والداودي، والجبالي وغيرهم. ومنها مؤلفات شهيرة وإن كان بعضها قد أصبح مطبوعاً كالمدخل لابن الحاج، وحياة الحيوان الكبرى للدميري وفتوح أفريقية للواقدي، وبغية المؤانس من بهجة المجالس لابن ليون الأندلسي الذي اختصر فيه تأليف ابن عبد البر، وتبصرة الحكام في أصول الأحكام، ومناهج الأحكام لابن فرحون المدني.

وهذا المسرد مع ذلك لا يمثل أنفس المخطوطات الموجودة في الجبل الغربي، ولا أظنه يمثل أكثرها عدداً بل المعتقد أن أنفسها ما زال في الخزائن الخاصة التي لم أطلع على أغلبها.

ولقد أُريد لهذا العمل أن يخدم أهدافاً متعددة كالتعريف بأنواع المخطوطات في البيئة المدروسة، وطبيعة الحياة الثقافية فيها خلال القرن

---

(1) ألقي هذا البحث في مؤتمر المخطوطات الأول بمدينة زليطن.

الماضي وصدر القرن الحالي، وتصحيح نسبة بعض المخطوطات المنسوبة إلى غير أصحابها في القوائم ثم وجدت أن عملاً كهذا يحتاج إلى وقت طويل لا تفي به الأيام القليلة التي استجبت فيها لدعوة منظمي المؤتمر بالمساهمة في أعماله، ولا تحصره تلك الدقائق الممنوحة للبحث من وقت المؤتمر الثمين، فحققت في هذه العجالة بعض ما أملت وأرجأت ما لم أتمكن من إتمامه إلى وقت آخر إن شاء الله.

المصادر

لقد اعتمد هذا المسرد إذن على قوائم لمحتويات بعض مكتبات الجبل الغربي وهي:

أولاً: قائمتان لمخطوطات أسرة بني منيع تحتوي إحداهما على حوالي مائة وثلاثين مخطوطة، وتقل الأخرى عن هذا العدد قليلاً، مع ملاحظة وجود التكرار بينهما، وتعودان تدويناً إلى أواخر القرن الماضي.

ثانياً: قائمة مخطوطات (طبقة) وتحتوي على ما يقرب من هذا العدد، وهي أحدث تدويناً ومن هذه القائمة نسخة رأيتها بمكتبة الأوقاف قبل انتقالها لمقرها الجديد.

ثالثاً: قائمة صغيرة لبعض محتويات مكتبة قرزة أطلعني عليها الأخ الأستاذ إبراهيم الشريف.

رابعاً: قائمة بمحتويات مكتبتي الحاج علي الهرامة والأستاذ سالم العرضاوي.

خامساً: مفردات سجلتها من خلال اتصالي ببعض البيوتات العلمية.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القوائم لا تمثل كل المخطوطات الموجودة

في المكتبات المشار إليها، فقد زاد رصيدها مخطوطات جديدة بعد تدوين القوائم وانتقلت بعض المخطوطات المثبتة هنا لأسباب مختلفة.

وفيما يلي عرض لنماذج هذا المسرد، وأنها لفي حاجة إلى مزيد من التهذيب والإكمال بل إلى دقة الترتيب والضبط ولكن الوقت لا يسمح بذلك، نعسى أن تكون فيها على علاتها خدمة للباحثين والمهتمين بالتراث.

والله ولي التوفيق

ـ حرف الألف ـ

1 ـ أنيس المنقطعين لعبادة رب العالمين ـ الناسخ: أحمد مسعود الشبلي ـ تاريخ النسخ: 1252 هـ.

2 ـ انتصار القاصر في الزمن الآخر ـ لأحمد بن سحبان ـ الناسخ: علي بن محمد المريض، تاريخ النسخ: أواسط جمادى الآخرة 1273.

3 ـ التزامات الحطاب ـ لأبي عبدالله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني المتوفى في سنة 954 هـ، واسم الكتاب كاملاً هو «تحرير الكلام في مسائل الالتزام» منه نسخة في مكتبة بني منيع وأخريات في غدامس وطبقة.

4 ـ الأمير على المد الطبيعي في لا إله إلا الله، والأمير هو محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر السنباوي الأزهري المتوفى سنة 1232 هـ.

5 ـ الآجرومية ـ لمحمد بن محمد بن آجروم (ت 723 هـ) واسم المخطوطة «المقدمة الآجرومية في النحو».

6 ـ أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ـ لأحمد بن محمد الدردير وهو المسمى بالشرح الصغير وعليه كتب أحمد الصاوي، وحاشيته المسماة ببلغة المسالك، منه نسخ في مكتبات غدامس والجبل.

7 ـ أحمد بن داود، لم توضح القائمة التي نقلت عنها نسبة المؤلف ولعله الدينوري أو الجذامي، وفي المغاربة المعروفين بهذا الاسم أحمد بن داوود البلوي تلميذ ابن مرزوق الكفيف وله فهرس.

8 ـ إسماع الصُم للمراكشي، ولعله «إسماع الصُم في إثبات الشرف من قبل الأم لابن مرزوق الحفيد التلمساني» وهو مذكور ضمن مؤلفاته في نفح الطيب (5430 طبعة دار صادر) غير أن المؤلف هنا يحمل نسب المراكشي مما

يجعل التحقيق ضرورياً لبيان الإشكال.

9 - الإبريز (كذا). ولعل المعنيَّ بهذا المخطوط هو كتاب «الذهب الإبريز في كلام أو مناقب الشيخ عبد العزيز» لأحمد بن مبارك السجلماسي (انظر المصادر العربية لتاريخ المغرب ص 170، وفهرس مخطوطات غدامس ص 37) وعبد العزيز هو عبد العزيز بن مسعود الحسيني الإدريسي الشهير بالدباغ.

10 - الأنوار في باب المختار - للثعالبي: والثعالبي هو عبيد الله بن أبي القاسم الثعالبي الفاسي المتوفى سنة 787 هـ، له «أنوار التجلي على ما تضمنته قصيدة الحلي» وربما كان هو المقصود هنا. (المصادر العربية لتاريخ المغرب ص 115).

11 - أنوار السرائر - للفاسي.

12 - إحياء علوم الدين - لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطويسي المتوفى سنة 505 هـ، وكتابه هذا غني عن التعريف غناء المؤلف نفسه، وهو متداول في مكتبات غدامس والجبل الغربي (انظر فهرس مخطوطات غدامس ص 77 - 78).

13 - الإيضاح للشماخي: وهو مخطوط ذائع الصيت في الفقه الأباضي من تأليف الشيخ عامر بن علي بن عامر السيفا والشماخي، المعروف بأبي ساكن، رأيت منه نسخة في مكتبة الأستاذ عمرو مسعود وهو مطبوع.

14 - الأنوار السنية لعبد الرحمن العياشي، وفي قائمة أخرى (الأنوار السنية والمنن البهية في طريق أهل الله الصوفية) لعبد السلام الأسمر (فهرس محتويات مكتبة طبقة، وانظر مجلة كلية الدعوة 2/146).

15 - إرشاد المريدين لفهم معاني المرشد المعين - لعلي عبد الصادق الجبالي وهو شرح على منظومة ابن عاشر منه نسخة بالمدرسة الإحسانية في المدينة المنورة، وأخريات بالمكتبة الوطنية بتونس (تحمل الأرقام 4793 و 580 و 3706).

16 ـ استغاثة ـ للشيخ أبي مدين وتخميسها لأحد الأفاضل (مكتبة الحاج علي الهرامة + مكتبة العرضاوي).

17 ـ أبيات عينية ـ للجنبيهي (مكتبة الحاج علي الهرامة).

18 ـ أرجوزة في حل الأعداد ـ لعبد اللطيف الدمشقي الأزهري (المصدر السابق).

19 ـ أوراق في الطب (المصدر السابق).

20 ـ أوراق مجموعة في الطب (المصدر السابق).

21 ـ أوراق في الفلك (المصدر السابق).

22 ـ أسئلة وأجوبة ـ لأعلام بعضهم من طرابلس.

23 ـ أبيات على حروف المعجم (مكتبة الحاج علي الهرامة).

24 ـ أوراق في النحو (مكتبة الحاج علي الهرامة).

25 ـ أوراق ـ للشيخ ابن عبد ربه محمد بن يوسف الحسيني (المكتبة المذكورة قبله).

26 ـ إتحاف المريدين في عقيدة أم البراهين ـ لأحمد بن عبدالله الغدامسي، منه نسخة في مكتبة بني منيع وثلاث بالمكتبة الوطنية بتونس إحداهما بخط المؤلف.

27 ـ الأجوبة الناصرية.

28 ـ أوراق فيها مسائل الحطاب في الحبس (مكتبة بني منيع).

29 ـ الإدفيني واللؤلؤة على الرَّحبية في الفرائض (مكتبة بني منيع).

ـ حرف الباء ـ

30 ـ البركة ـ لمحمد النعاس بن محمد بن أحمد بن عبد النبي (مكتبة قرزة + مكتبة بني منيع).

31 ـ بغية الآلف في جواب ابن بركي، ولعله ابن تركي ـ الناسخ: أحمد البكاي بن محمد بن المختار ـ تاريخ النسخ أواسط ذي الحجة سنة 1281، (مكتبة قرزة).

32 ـ بعض وصايا الشيخ مختار الكنتي (مكتبة بني منيع).

33 ـ البزار ـ ومنه (ثلاث نسخ من الجزء الرابع) (مكتبة طبقة).

34 ـ البهجة المرضية في شرح الألفية ـ لجلال الدين السيوطي (مكتبة طبقة).

35 ـ البراهين القطعية لأبي القاسم بن سعيد العامري، ومن آثاره بغية الطالب والقول المتين، وسرد الحجة. (انظر ترجمته في معجم المؤلفين 100،8) ومن هذه المخطوطة نسخة بمكتبة حسن حسني عبد الوهاب في تونس).

36 ـ بغية المؤانس من بهجة المجالس وأنس المجالس.

37 ـ تأليف أبي عثمان بن أبي جعفر ليون، اختصر فيه بهجة المجالس لأبي عمر بن عبد البر وقد أشار إليه الزركلي، وذكر أنه من مقتنياته (نسخة بمكتبة ابن منيع وأُخرى بالخزانة العامة في المغرب).

ـ حرف التاء ـ

38 ـ تخميس لقصيدة ميمية.

39 ـ التذكرة للخزرجي الأندلسي (مكتبة طبقة + مكتبة بني منيع).

40 ـ تكملة قطر الندى لابن هشام (مكتبة طبقة).

41 ـ التنوير في إسقاط التدبير (مكتبة بني منيع).

42 ـ تلخيص من تأليف علي بن الحسن المالكي.

43 ـ تخميس المنظومة ـ البهية في مدح خير البرية ـ لعبد الرحمن بن منيع ـ وهو بخط المؤلف دون تاريخ (مكتبة بني منيع).

44 ـ تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام ـ لابن فرحون المدني 799 هـ (مكتبة طبقة).

45 ـ تلخيص الفيشي على العشماوية واسمه «المنح الإلهية في شرح المقدمة العشماوية» (انظر فهرس الأزهرية 408/2 ففيها نسخة أخرى من هذا المخطوط).

46 ـ تحفة الإخوان للصاوي، وفي مكتبة حسن حسني عبد الوهاب مخطوطة

بعنوان «تحفة الإخوان في زيارة عبد الرحمن - لمحمد جمال الدين المسراتي - ولمحمد بن غلبون مخطوطة ضمن محتويات مكتبة قاريونس بعنوان «تحفة الإخوان البهية على المقدمة الحربية، فليتأمل من يريد التحقيق (مكتبة طبقة).

47 - التحقيقات الرائقة للسجاعي (مكتبة طبقة).

48 - التحقيق في إبقاء أحكام التطليق بعد التوبة من الردة - تأليف: علي الميلي. نسخة محمد العماري الكميشي الغرياني - أوائل رمضان 1245 هـ (مكتبة قرزة).

49 - تحفة الفتاوى - لعبد الرحمن الفاسي ت 1096 هـ، تاريخ النسخ: 17 من ربيع الأول سنة 1256 هـ وعنوان هذا المخطوط في النبوغ المغربي - لعبدالله كنون (عمدة الفتاوى) (مكتبة طبقة والنبوغ المغربي ص 295).

50 - التاودي على العاصمية.

وهو شرح الشيخ محمد بن كالب التاودي الفاسي على تحفة أبي بكر محمد بن عاصم الذي سماه «حلى المعاصم لبني فكر بن عاصم» (مكتبة بني منيع).

51 - تأليف في الشهادات (مكتبة بني منيع).

52 - تفسير البيلي (مكتبة طبقة).

53 - تفسير البيضاوي: واسمه أنوار التنزيل وأسرار التأويل، وهو مطبوع مؤلفه عبد الله بن عمر ابن محمد البيضاوي (675 هـ) (ومخطوطته هذه ضمن محتويات مكتبة طبقة).

54 - التذكرة للقرطبي: تقدم ذكرها وهذه مخطوطة أخرى منها (ومنها نسختان في طبقة ومكتبة بني منيع).

55 - تفسيرات على العزية (مكتبة طبقة).

56 - تفسير عبد العزيز (مكتبة طبقة).

57 - تفسير المقرني (كذا) - مكتبة طبقة.

58 - التفاحة الوردية على القصيدة الزينبية (مكتبة بني منيع وأخرى بمكتبة طبقة).

59 - ابن تركي على العشماوية: وهو شرح مطبوع في الفقه من تأليف أحمد بن أحمد المتليلي المعروف بابن تركي المتوفى سنة 979 هـ (مكتبة طبقة).

60 - تحفة اللبيب وبغية الحبيب - للشيخ محمد الصالح بن أحمد الفار، وهو مختصر من تحفة المودود في المقصور والممدود، نسخ بقلم محمد منيع سنة 1266 (مكتبة بني منيع).

61 - تأليف في الشهادات - لمحمد العربي وغيره (مكتبة بني منيع).

62 - تائية السبكي (من محتويات مكتبة بني منيع).

63 - تحفة الفكر في مصطلح أهل الذكر (مكتبة بني منيع).

64 - تحفة العروس (ينسب كتاب بهذا العنوان للتجاني - انظر بروكلمان 70/3) منه نسخ بقائمة مخطوطات بني منيع ونسخة بالخزانة العامة في المغرب برقم 2012.

65 - تحرير في أبحاث (أما بعد) (مكتبة بني منيع).

- حرف الجيم -

66 - جمع الفوائد والمنافع - للعياشي (مكتبة طبقة).

67 - الجواهر الضوية - لعلي بن الحسن المالكي (من مكتبة طبقة) وهو شرح على الآجرومية في النحو وفي فهرس مخطوطات غدامس نسخة أخرى من هذه المخطوطة (انظر ص 152).

68 - جمع النهاية - لعبدالله بن أبي جمرة الأندلسي وهو اختصار لصحيح البخاري يعرف بمختصر ابن أبي جمرة وقد طبع، (منه نسخة بطبقة).

69 - الجامع المسند الصحيح لعبد الله بن سعيد بن أبي جمرة الأندلسي المتقدم ذكره وهو كتاب متداول في مكتبات الجبل الغربي بما فيها غدامس ولذا فإن منه نسخاً كثيرة في الزوايا وعند الأفراد.

70 ـ الجرعة الصافية ـ لأحمد بن أبي بكر: من محتويات مكتبة طبقة وقد علمت أن بمكتبة الشيخ البُصيري نسخة أخرى من هذا المخطوط منسوبة للشيخ مختار الكنتي.

71 ـ الجوهر المكنون للدمنهوري. تحت هذا العنوان مخطوط ـ لعبد الرحمن الأخضري واسمه الجوهر المكنون في صرف الثلاثة فنون، وضع في علم البلاغـة، ورد ذكره في (فهرس مخطوطات غدامس ص 152 مكتبة طبقة).

ـ حرف الحاء ـ

72 ـ حاشية البناني على شرح الزرقاني (مكتبة طبقة + بني منيع).

73 ـ الحروف العربية لبرهان الدين الجعبري.

74 ـ حاشية الخرشي على خليل (في أربعة أجزاء) (مكتبة بني منيع + طبقة).

75 ـ حاشية على الدردير، لعلها حاشية محمد الدسوقي على شرح أحمد الدردير على متن خليل وهي حاشية معروفة في المراكز التعليمية بالجبل الغربي (طبقة + مكتبة بني منيع).

76 ـ حاشية الصعيدي على شرح عبد الباقي على العزية (مكتبة بني منيع).

77 ـ حاشية الأمير على خليل المسماة ضوء الشموع، وهذا العنوان بالكامل هو «ضوء الشموع على شرح المجموع» وقد طبع، (مكتبة طبقة).

78 ـ حاشية الإدفيني على العزية.

79 ـ حاشية العدوي على الرسالة (مكتبة طبقة).

80 ـ «الحديقة العبيقة في الفرق بين الشريعة والطريقة والحقيقة» ردَّ فيها مؤلفها علي بن محمد الميلي على مسائل من الديار الطرابلسية. (مكتبة قرزة).

81 ـ حاشية الخضري (لعلها على شرح ابن عقيل وهي حاشية مطبوعة، والخضري هو محمد بن مصطفى الخضري المتوفى 1287 (مكتبة طبقة).

82 ـ حاشية العطار في النحو (مكتبة طبقة).

83 - الحكم - لابن عطاء الله: وفي مخطوط آخر شرح عليها من تأليف أحمد زروق، (من محتويات مكتبة بني منيع).

84 - حاشية أبي عبدالله محمد بن أبي ستة السدويكشي على كتاب الوضع، وكتاب الوضع من تأليف الشيخ الجناوني، ذكر ناسخ هذه الحاشية أنه نقلها من خط مؤلفها الذي أتم تأليفها سنة 1085 هـ وأكمل نسخها إبراهيم بن عمرو التندميري سنة 1106 هـ، ثم نقلها من خط هذا الناسخ محمد بن عيسى بن سعيد المرساني سنة 1329 هـ (رأيت منه نسخة في مكتبة أخي...).

85 - حاشية نتائج الفكر على السمرقندية (مكتبة بني منيع).

86 - حاشية الصبان في النحو (محتويات مكتبة بني منيع).

87 - حياة الحيوان للدميري: وهو مطبوع في جزأين بمصر سنة 1292 هـ (مكتبة بني منيع).

88 - حاشية محمد بن عمر أبي ستة على فرائض الشيخ إسماعيل الجيطالي (مكتبة الحاج علي الهرامة).

89 - حاشية التلالي الجربي في المواريث (المصدر السابق).

- حرف الخاء -

90 - الخرشي على خليل: وهو شرح معروف في زوايا الجبل وغدامس (انظر فهرس مخطوطات غدامس ص 88 - 89) وخليل بن إسحاق بن موسى صاحب المختصر الذائع الصيت في الفقه المالكي.

91 - خطبة عيد لمجهول (مكتبة الحاج علي الهرامة).

92 - خطبة عيد النحر، بخط كاتبها محمد أبي القاسم العماري الكميشي (مكتبة العرضاوي).

ـ حرف الدال ـ

93 ـ الدرة البيضاء في الفرائض ـ لعبد الرحمن الأخضري، المتوفى 983 وعليها شرح (بمكتبة بني منيع).

94 ـ الدسوقي على الدردير: لعل هذا الكتاب هو حاشية الدسوقي على الشرح الكبير على مختصر خليل، وهي حاشية مطبوعة ومنها نسخ في فهرس مخطوطات غدامس، أما الدسوقي فهو محمد بن أحمد بن عرفة المتوفى سنة 1230 وأما الدردير فهو أحمد بن الدردير العدوي المتوفى سنة 1201 هـ. (مكتبة بني منيع).

95 ـ الدرة الفريدة (مكتبة طبقة).

96 ـ ديوان سليمان الباروني: وهو ديوان مطبوع قام الأستاذ محمد جبران بدراسته ضمن رسالته حول سليمان الباروني فأوفاه حقه.

97 ـ ديوان عبدالله الباروني: طبع بدار الطباعة المحمدية وهو والد سليمان المذكور.

98 ـ الدر العظيم في فضل القرآن العظيم (مكتبة بني منيع).

ـ حرف الراء ـ

99 ـ رسالة في العقائد ـ لمجهول ـ (مكتبة الحاج علي الهرامة).

100 ـ رسالة من الشيخ زروق إلى بعض تلاميذه، والشيخ أحمد بن أحمد البرنسي الفاسي المعروف بزروق غني عن التعريف لكن رسائله المتناثرة إلى تلامذته تعد في المخطوطات النادرة التي لم تجمعها كتبه المطبوعة. (مكتبة الحاج علي الهرامة).

101 ـ الرسالة الفتحية ـ لبدر الدين بن محمد (مكتبة طبقة).

102 ـ روضة الفهوم ـ للسيوطي (مكتبة طبقة).

103 ـ

104 ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني: وهي معروفة ومطبوعة متداولة (مكتبة طبقة وبني منيع).

105 ـ رسالة من الشيخ محمد السني إلى الشيخ عبد الرحمن منيع سنة 1311 هـ (مكتبة بني منيع).

106 ـ رسالة من الشيخ عبدالله بن فضل إلى الشيخ عبد الرحمن منيع (1310 م) (مكتبة بني منيع).

107 ـ رسائل أحمد بن إبراهيم بن سحبان إلى ابن أبي سيف (وهي من محتويات زاوية قرزة).

108 ـ رسالة في المجاز للدردير وحاشية الصاوي عليها (مكتبة بني منيع).

ـ حرف الزاي ـ

109 ـ زاد المسافرين للعجيبي (مكتبة طبقة).

110 ـ الزرقاني على خليل (وهو شرحه على مختصر خليل) أما المؤلف فهو عبد الباقي بن يوسف بن أحمد الزرقاني، ت سنة 1099 (مكتبة طبقة).

111 ـ الزياني على البردة (مكتبة بني منيع).

ـ حرف السين ـ

112 ـ سبيل الأمان من التلف في التمسك باتباع الصالحين السابقين من السلف ـ المؤلف: أحمد إبراهيم بن سحبان، تاريخ النسخ: العاشر من ربيع الأول 1267 هـ (مكتبة قرزة).

113 ـ سلم العامة والمبتدئين ـ لعبدالله الباروني، وقد طبع سنة 1906 م.

114 ـ ابن سلمون وهو أبو عبدالله بن علي عبد الله بن علي بن سلمون الكناني وكتابه المعروف باسمه تأليف في المسائل والنوازل الفقهية رأيت منه نسخة واضحة بمكتبة بني منيع.

115 ـ السير للشماخي: وهو كتاب في التاريخ عَرَّف به الأستاذ علي مصطفى

المصراتي في كتابه «مؤرخون من ليبيا» وقد ذكره صاحب الأعلام وصاحب معجم المؤلفين ضمن مؤلفات الشيخ أحمد الشماخي.

116 ـ السجاعي على مختصر ابن أبي جمرة في الحديث (في مكتبة بني منيع).

117 ـ سيف الملوك (مكتبة طبقة).

118 ـ السُلم في المنطق للأخضري: وهو أكثر كتب المنطق شيوعاً في زوايا الجبل، ويليه ايساغوجي في بعض المكتبات الخاصة مثل مكتبة بني منيع، وقد وجدت شرحاً على سلَّم الأخضري ضمن محتويات فهرس مخطوطات غدامس ص 165.

119 ـ سير أهل نفوسة ـ لمقرين: راجع مجلة كلية الدعوة الإسلامية 154/2 ودليل المؤلفين الليبيين ص 478.

120 ـ سيدي أبي القاسم بن زرقون (مكتبة بني منيع).

121 ـ ابن سيرين في تفسير الرؤيا (مكتبة بني منيع).

ـ حرف الشين ـ

122 ـ شرح الهزية ـ للهيثم بن حجر في اللغة (مكتبة طبقة + مكتبة بني منيع).

123 ـ شرح ابن عقيل في النحو ـ وهو مطبوع متداول.

124 ـ شرح الخزرجي (مكتبة طبقة).

125 ـ شرح الأمير على نظم بهرام في مسائل لا يعذر فيها بالجهل ـ تأليف محمد الأمير الأزهري ـ تاريخ النسخ: أواسط رجب 1268 هـ (مكتبة بني منيع).

126 ـ شكر المنة في الانتصار لأهل السنة ـ لأحمد بن محمد المكنى بالطرابلسي المتوفى سنة 1101 هـ (نسخة بمكتبة بني منيع وأخرى بمكتبة طبقة).

127 ـ الشبرخيتي على العشماوية (مكتبة بني منيع).

128 ـ شرح الأزهري: لعله شرح الأزهرية في النحو لخالد بن عبدالله الأزهري

المتوفى سنة 905 (مكتبة بني منيع).

129 ـ الشنشوري على الرحبية: الشنشوري هو الفقيه الشافعي عبدالله بن محمد العجمي المتوفى سنة 999 وكتابه هذا هو الفوائد الشنشورية في شرح المنظومة الرحبية في الفرائض (مكتبة طبقة).

130 ـ الشبرخيتي على الأربعين النووية: والشبرخيتي هو إبراهيم بن مرعي الشبرخيتي الفقيه المالكي المتوفى سنة 1106 هـ واسم كتابه هذا «الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثاً النووية» وله شرح على مختصر خليل. (مكتبة بني منيع).

131 ـ شرح الزروق على حزب البحر ـ للشاذلي (مكتبة بني منيع).

132 ـ شرح القسطلاني على البُخاري: وهو شرح أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة 923 على صحيح البخاري المعروف، ومنه نسخ كثيرة في مكتبات غدامس المخطوطة، راجع فهرس مخطوطات غدامس ص 56 وما بعدها (مكتبة بني منيع).

133 ـ شرح الزرقاني: لعله شرح عبد الباقي الزرقاني على مختصر خليل وهو مشهور في مكتبات غدامس أيضاً (راجع فهرس مخطوطات غدامس ص 8 ج) (مكتبة طبقة).

134 ـ شرح الدردير على مختصر خليل.

135 ـ وهو شرح مشهور ومقرر على طلاب الزوايا وهو ما جعله منتشراً في مكتبات غدامس وفي مكتبات الجبل، مؤلفه هو أحمد بن محمد الدردير المتوفى سنة 1201 هـ (مكتبة العرضاوي).

136 ـ شرح العقائد ـ للتلمساني: يمكن أن يقارن هذا المخطوط مع «شرح عقيدة الحسني» ـ لمحمد بن إبراهيم الملالي التلمساني ومن هذا الأخير نسخ ثلاث في فهرس مخطوطات غدامس. (مكتبة طبقة).

137 ـ شرح المقدمات ـ لمحمد بن يوسف الحسيني التلمساني المتوفى سنة 895 وهو شرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن ياسين، ومن كتبه

المعروفة في الجبل «أم البراهين» المعروف بالعقيدة الصغرى وهو مطبوع.

138 ـ شرح العزية ـ للزرقاني: هو شرح المقدمة العزية للجماعة الأزهرية لمؤلفه عبد الباقي بن يوسف الزرقاني الفقيه المصري المالكي المتوفى سنة 1099 ومن هذا المخطوط خمس نسخ في فهرس مكتبات غدامس (ص 100).

139 ـ شرح على نظم ابن عاصم: لعل المقصود هو نظمه المشهور الموسوم بتحفة الحكام.

140 ـ شرح المحاسبي: والمحاسبي هو أبو عبدالله الحارث بن أسد الصوفي المتوفى سنة 234 ولعل كتابه هذا هو «شرح المعرفة» المذكور في مؤلفاته (وله مخطوطة في الحديث بمكتبة بني منيع).

141 ـ شرح النقدوي: للقيرواني (مكتبة طبقة).

142 ـ شرح ابن سودة: وابن سودة هو محمد الذي شرح «تحفة الحكام لابن عاصم» أو أحمد الذي ألف حاشية على صحيح البخاري وتوفي سنة 1321 (مكتبة طبقة).

143 ـ شرح قصيدة البردة لعمر الخربوطي.

144 ـ شرح الأرجوزة للبولاقي.

145 ـ شرح أبي الحسن (كذا جاء في إحدى القوائم) ويحتاج التعريف به إلى تصفحه ودراسته كغيره من المخطوطات التي اعتمد فيها على القوائم دون غيرها.

146 ـ شرح الآجرومية لابن الحاج وآخر لأبي الحسن.

وردت للأجرومية شروح وحواشي كثير ذُكر بعضها في فهرس مخطوطات غدامس (ص 152 ـ 156).

147 ـ شرح ميارة: ميارة هو أبو عبدالله محمد بن أحمد الفقيه المالكي الفاسي شارح تحفة الحكام وشارح منظومة المرشد المعين المتوفى سنة 1072 هـ.

148 ـ شرح وصية الشيخ الفقيه أبي الوليد الباجي، لمحمد منيع (مكتبة بني منيع).

149 ـ الشياق في بعض أخبار ولاية طرابلس لأحمد الباروني.

150 ـ شواهد المغني في النحو.

151 ـ شرح الحدود في النحو (مكتبة بني منيع).

152 ـ شرح القطر لابن هشام وحاشية السّجاعي عليه.

153 ـ شرح عجائب المخلوقات.

154 ـ شرح أبي العباس شهاب الدين بن الهائم على كافيته في عمل المناسخات (مكتبة علي الهرامة (أوراق)).

155 ـ شرح اللؤلؤة لأبي القاسم الشماخي ـ لعله صاحب البراهين القطعية المتقدم.

156 ـ شرح الجوهرة في التوحيد (مكتبة العرضاوي).

157 ـ شذور الذهب لابن هشام وشرحه، وحاشية عبادة عليه، وكذلك الأمير، وهو في النحو مطبوع متداول (ومخطوطات الأصل والشرح والحاشية بمكتبة بني منيع أو طبقة).

158 ـ شرح السمرقندية في الاستعارات (مكتبة بني منيع).

159 ـ شرح السلم ومتنه وحاشية الصعيدي عليه.

160 ـ شرح السجاعي على معلقة امرىء القيس.

161 ـ شرح في تجويد القرآن.

162 ـ شرح الوظيفة الزروقية للعشماوي (من محتويات مكتبة بني منيع).

163 ـ شرح بدور الأمالي.

164 ـ شرح الميلي على البردة، وللشيخ خالد شرح آخر عليها، وعليها تخميس (وهي جميعاً من محتويات مكتبة بني منيع).

165 ـ شرح لامية ابن الوردي.

166 ـ شرح على قصيدة الجد بالجد وتعليق عليها (بمكتبة بني منيع).

167 ـ شرح المسائل للشيخ الترمذي.

ـ حرف الصاد والضاد ـ

168 ـ الصعيدي على الجوهرة (مكتبة بني منيع).
169 ـ الضحاوية في الحساب (مكتبة بني منيع).

ـ حرف العين ـ

170 ـ عبد الباقي على العزية: المؤلف هو عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المتقدم ذكره، ومخطوطه هذا شرح العزية في الفقه (مكتبة بني منيع).
171 ـ العمري على العمليات الفاسية (مكتبة بني منيع + مكتبة طبقة).
172 ـ عمدة البيان للزواوي، وعمدة البيان للأخضري: وردت تحت هذا العنوان مخطوطتان، ووردت بالعنوان نفسه ثلاث مخطوطات في فهرس مخطوطات غدامس منسوبة إلى مؤلف مجهول، جاء في بداية إحداهما: «قصدت بهذا التعليق شرح المختصر للشيخ... عبدالرحمن الأخضري» فعُلِمَ بذلك التعليق أن الأخضري هو صاحب الأصل وأن المجهول في مخطوطات غدامس هو الزواوي. وعنوان المخطوط كاملاً هو «عمدة البيان في معرفة فروض الأعيان».
173 ـ عمدة أهل التوفيق ـ لمحمد بن يوسف الحسني: شرح المؤلف «والتسديد في شرح عقيدة أهل التوحيد» (منه نسخة في مكتبة طبقة واثنتان في فهرس مخطوطات غدامس ص 20).
174 ـ العقد المنظم لابن سلمى،(محتويات مكتبة طبقة).
175 ـ العلامي على السنوسية (مكتبة طبقة).
176 ـ عمدة الفتاوي ـ لعبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي. (في مكتبة قرزة نسخة بعنوان تحفة الفتاوي لعبد الرحمن النعاس فلعلها من هذا الكتاب).

177 ـ العدوي على الخرشي «حاشية»: ويبدو أنها حاشية على شرح الخرشي لمختصر خليل (مكتبة طبقة).

178 ـ علم التصريف.

179 ـ عقد الجمان للسيوطي (كذا): والمراد هو «عقود الجمان في المعاني والبيان» وهو كتاب مطبوع من كتب جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911.

180 ـ العمليات الفاسية: هذا الأصل في مكتبة بني منيع وشرحه المسمى بالأمليات لأبي القاسم ابن سعيد في (مكتبة طبقة).

181 ـ عجالة في ذكر شيء من التعريف بالرجال (مكتبة بني منيع).

ـ حرف الفاء ـ

182 ـ الفتح المبين والدر الثمين ـ لعبدالله الخياط المغربي: هذا الكتاب قصد مؤلفه أن يكون في بيان فضل الصلاة والسلام على سيِّد المرسلين كما يدل عليه عنوانه وقد أورد فيه بعض أعلام ليبيا مثل أستاذه أحمد بن جابر (من محتويات مكتبة طبقة)، ومنه نسخة بمكتبة الهرامة وأخرى ضمن مخطوطات جمعية الدعوة الإسلامية، كما أن فهارس مخطوطات مركز بابا بتنبكتو أشارت إلى نسخة منه هناك.

183 ـ الفوائد الشنشورية: عنوان هذا المخطوط «الفوائد الشنشورية في شرح المنظومة الرحبية» في الفرائض ومؤلفه عبد الله بن محمد العجمي الشنشوري الفقيه الشافعي المتوفى سنة 999 هـ.

184 ـ فتح الجليل لابن عقيل (مكتبة طبقة).

185 ـ فتح الأبواب للجوهري (مكتبة طبقة).

186 ـ فضل مدينة فاس (مكتبة الحاج علي الهرامة).

187 ـ فائدة في خواص الشندقورة (مكتبة الحاج علي الهرامة).

188 ـ فيض الخلاق في شرح وسيلة المشتاق ـ لمحمد بن علي الداودي

الغرياني المتوفى سنة 1195 (انظر مجلة كلية الدعوة 2، 156 ومجلة الوثائق والمخطوطات 1، 215).

189 ـ فتوح إفريقية: (مكتبة بني منيع) وانظر قصيدة فتح إفريقية على يد عقبة بن عامر بمكتبة أحمد بابا بمالي رقم 689.

190 ـ فتح الرحمن في شرح نصيحة الإخوان على القصيدة الرملية (مكتبة بني منيع).

ـ حرف القاف ـ

191 ـ القلائد الدرية في مدح خير البرية ـ للتندميري وقد طبع ـ فيما أعلم ـ في بداية هذا القرن ضمن منشورات مطبعة الشيخ الباروني التي كان يطبع فيها جريدته بالقاهرة.

192 ـ قصيدة لابن المغربي في المواعظ (مكتبة بني منيع).

193 ـ قصيدة للوراق في مدح الرسول ﷺ شرح هذه القصيدة محمد بن محمد قاجة (مكتبة طبقة) ومنها نسخة بمكتبة مخطوطات مركز جهاد الليبيين.

194 ـ قصيدة لابن مالك.

195 ـ قصيدة في مدح الرسول ﷺ، تاريخ النسخ: 1245.

196 ـ قصيدة لأبي محمد المولى عبد الإله المغربي، لعلها المتقدمة في المواعظ.

197 ـ قصيدة ليوسف الجعراني.

198 ـ قصيدة لأبي الحسن الهادي.

199 ـ قصيدة لابن عاشر.

200 ـ قصيدة في مدح الرسول ﷺ.

201 ـ قصيدة للشيخ عبد السلام الأسمر.

202 ـ قصيدة لابن جابر الأندلسي في المدح.

203 ـ قصيدتان لمجهولين.

204 ـ قصيدة رائية في ستة وأربعين بيتاً لمجهول.
205 ـ قصيدة على حروف المعجم.
206 ـ قصيدة للزاهد الأنفاسي في مشتبهات القرآن.
207 ـ القصيدة المنفرجة (مكتبة الحاج علي الهرامة).
208 ـ قطعة من كتاب للكاباوي.
209 ـ قطر الندى وبل الصدى لابن هشام (مكتبات عديدة).
210 ـ قرة الأبصار للزجرجي (كذا) ولعله الخزرجي (مكتبة طبقة).
211 ـ القصيدة السينية لابن باديس (مكتبة بني منيع).
212 ـ قصيدة ميمية في مدح الرسول ﷺ (بمكتبة الحاج علي الهرامة).

ـ حرف الكاف ـ

213 ـ الكراكج في تعداد الحديث من الواحد للعشرة (مكتبة بني منيع).
214 ـ كراس في التوحيد لسيدي عمر بن موسى (مكتبة بني منيع).
215 ـ كتاب العدة أو العمدة ـ تأليف أحمد الزروق (كذا) ولعله عمدة المريد الصادق ـ تاريخ النسخ: 29 من ربيع الآخر 1268 هـ (مكتبة قرزة).
216 ـ كفاية الطالب على الرسالة: وهو كتاب مطبوع معروف وضعه علي بن الحسن المالكي على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، وفي مكتبات غدامس عدد من مخطوطاته يدل على رواجه في تلك المدينة.
217 ـ كناش محتو على مسائل من الفقه.
218 ـ كناش صغير في الطب والفلك (مكتبة بني منيع)
219 ـ كناش طويل في فوائد (مكتبة بني منيع).
220 ـ كشف الغمة (مكتبة بني منيع + مكتبة طبقة).
221 ـ الكشف في مجاوزة هذه الأمة الألف للسيوطي (مكتبة بني منيع).
222 ـ كناية الكهف والرقيم (مكتبة طبقة).
223 ـ كتاب البد للشيخ الزروق.

224 ـ كتاب في الفقه بدون عنوان ـ تاريخ النسخ: 1235 هـ.

225 ـ كتاب في التصوف للزروق.

226 ـ الكافي في علمي العروض والقوافي ـ لأبي العباس أحمد الطوسي، وناسخه محمد بن أحمد منيع سنة 1277 (مكتبة بني منيع).

227 ـ كنوز الأسرار في الصلاة على النبي المختار للهاروش المغربي (مكتبة الحاج علي الهرامة وبني منيع وغدامس)، وهو كتاب صغير في الغرض المثبت بالعنوان جاء في مجموع كتاب الفتح المبين المتقدم ذكره.

228 ـ كتاب المواريث لإسماعيل الجيطالي: منه نسخة في دار الكتب المصرية وعليه شرح، ألفه أحد علماء الجبل (مكتبة الحاج علي الهرامة).

229 ـ كراس للسيوطي في الطب (مكتبة بني منيع).

ـ حرف اللام ـ

230 ـ لامية الأفعال ـ لمحمد بن مالك (شرحها بمكتبة العرضاوي وطبقة وبني منيع).

ـ حرف الميم ـ

231 ـ مختصر ابن أبي جمرة للسجاعي.

232 ـ (مكتبة بني منيع + مكتبة العكروت + مكتبة طبقة).

233 ـ المسائل الواردة على الميلي ـ تاريخ النسخ: ربيع الآخرة سنة 1267 هـ.

234 ـ مناقب عبد الرحمن بن أبي سيف (مكتبة قرزة).

235 ـ ميارة على ابن عاشر: ميارة هو محمد بن أحمد الفاسي المعروف بميارة، وكتابه هذا هو «الدر الثمين والمورد المعين في شرح المرشد المعين على الضروري من علوم الدين» (منه نسخة بمكتبة بني منيع).

236 ـ ميارة على الزقاقية.

237 ـ مسائل وأسئلة الشيخ عمر السوداني (مكتبة بني منيع). والمؤلف هو عمر بن محمد بن علي المغربي السوداني، ولعل هذه المسائل هي الفتاوى المشار إليها في مجلة كلية الدعوة 2/256[1].

238 ـ المصباح المنير للمقرىء الفيومي المتوفى سنة 770 هـ (من محتويات مكتبة طبقة).

239 ـ مختصر البرزلي لحلولو الزليطني (مكتبة بني منيع).

240 ـ منظومة عبد الرحمن الأخضري في أهل الطريقة (مكتبة بني منيع).

241 ـ مختصر النجم الغيطي.

242 ـ المقدمة العزية ـ للزرقاني. واضعه الزرقاني وهو شرح للمقدمة العزية وقد تقدم في حرف الشين.

243 ـ المحاسبي: لعله المتقدم في حرف الشين (مكتبة بني منيع).

244 ـ منظومة في الجنة والنار (مكتبة بني منيع).

245 ـ موطأ مالك (مكتبة طبقة).

246 ـ المقامات الأدبية للبصري (مكتبة طبقة).

247 ـ المعراج لابن أبي يجمرة (مكتبة طبقة).

248 ـ المدخل لابن الحاج: وهو كتاب مطبوع ومشهور (مكتبة طبقة).

249 ـ ميارة على العاصمية في المعاملات: أظنه الكتاب الموسوم بالإتقان والإحكام في شرح تحفة الحكام لابن عاصم (مكتبة طبقة).

250 ـ ما يدخل تحت لا إله إلا الله: ذُكر هذا المخطوط ضمن مخطوطات فهرس غدامس ص 21 ويحتوي على منظومة في التوحيد لمؤلفها محمد الصالح الأوجلي المشار إليه في دليل المؤلفين العرب الليبيين، ص 360.

251 ـ مختصر الخصال لابن قيس (مكتبة طبقة).

252 ـ المختصر في علم اللغة للرازي (مكتبة طبقة).

---

(1) لمزيد من التفاصيل يراجع بحث الأستاذ مختار بن يونس في المؤتمر الأول للوثائق والمخطوطات بمجلة البحوث التاريخية.

253 ـ المريد علة الجوهر ـ لابن عبد السلام، والجوهرة ـ لإبراهيم اللقاني وفي مكتبة بني منيع شرح للجوهرة وتعليق عليها للأمير وآخر للصعيدي وفي مكتبة طبقة نسخة أخرى. المقنع في الفلك للسوسي: (له قائمة في مكتبة بني منيع شرحان، كبير وصغير، ونسخة في مكتبة طبقة).

254 ـ المرشد المعين لابن عاشر (مكتبة طبقة).

255 ـ المجموع في الكمال والتمام للأمير في الفقه (مكتبة طبقة).

256 ـ مذكرات يوسف الباروني (مكتبة الأسرة).

257 ـ مذكرة الفقيه عبدالله منيع: وهو كشكول فيه حكم وأشعار مختلفة (بمكتبة علي الهرامة).

258 ـ منبهات من كتاب الاستعداد ليوم المعاد لابن حجر العسقلاني (مكتبة الحاج علي الهرامة).

259 ـ مجموع في التصوف (مكتبة العرضاوي).

260 ـ المذاهب الإسلامية لعمرو التندميرتي.

261 ـ مسائل حلولو ـ للشيخ أبي العباس أحمد بن أبي زيد الزليطني المشهور بحلولو ـ نسخة أخرى في مكتبة أوقاف طرابلس تحت رقم 520 ونسخ أخرى لبعض الخواص استفاد منها الشيخ أحمد الخليفي في تحقيق هذه المسائل (مكتبة طبقة).

262 ـ مختارات الشيخ أبي القاسم القلعاوي الشعرية (مكتبة الحاج علي الهرامة).

263 ـ مسائل في الفقه لبعض المالكية.

264 ـ موعظة الإمام (الوليمقي) في أكثر من مائة بيت.

265 ـ المنهج على المنجوري (مكتبة بني منيع).

266 ـ مقصورة ابن مالك وشرحان في التصريف (مكتبة بني منيع).

267 ـ المدابغي على مولد النبي ﷺ.

268 ـ منظومة سيدي علي بن عبد الحق في مصطلح الحديث (مكتبة بني منيع).

269 ـ المنح المكية في شرح الهمزية وعليها شروح أخرى (بمكتبة بني منيع).
270 ـ المنظومة الجزيرية (مكتبة منيع).
271 ـ النهجة المرضية في شرح الألفية للسيوطي (مكتبة طبقة).

ـ حرف النون ـ

272 ـ نسخ كثيرة من القرآن الكريم بخطوط مختلفة.
273 ـ النفراوي على الرسالة (مكتبة بني منيع).
274 ـ نبذة من الديباج المذهب لابن فرحون. والديباج في التراجم مشهور ومطبوع (مكتبة بني منيع).
275 ـ من حاشية مقديش في كلام أهل الشطحات: لعل مقديش هذا هو محمود بن سعد بن مقديش الصفاقسي المؤرخ صاحب «نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار» والمتوفى سنة 1228 هـ (مكتبة بني منيع).
276 ـ نبذة من القرطبي فيما يلزم القارىء للقرآن الكريم (مكتبة بني منيع).
277 ـ نيل الأماني ـ لمحمد بن يوسف الحسني: وعنوان الكتاب كاملاً: «نيل الأماني في شرح التهاني» (ومنه نسخة في مكتبة طبقة وأخرى في مكتبة بني منيع).
278 ـ نتيجة الفكر في الجهر بالذكر للسيوطي (من محتويات مكتبة طبقة).
279 ـ نظم الفارسية (مكتبة بني منيع).
280 ـ النصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية ـ لأحمد الزروق (مكتبة بني منيع) وتحت عنوان النصيحة الكافية مخطوط آخر من تأليف ابن زكرياء المغربي (محتويات مكتبة طبقة).

ـ حرف الهاء ـ

281 ـ الهواري على الألفية (مكتبة بني منيع).
282 ـ الهدهدي في التوحيد وشرحه وحاشية عليه (بمكتبة بني منبع) وحاشية

لعلها السابقة من تأليف العدوي على شرح الهدهدي.

ـ حرف الواو ـ

283 ـ الواقي من الابتداع في بيان ما خالف فيه الشيخ عبد الباقي الأتباع والإجماع، لمؤلفه علي بن محمد الميلي رداً على سؤال من أحمد بن سحبان ـ تاريخ النسخ: أواخر جمادي الآخرة سنة 1245 هـ (مكتبة قرزة).

284 ـ وصية الشيخ عبد السلام اوسمر (مكتبة طبقة + مكتبة العرضاوي).

285 ـ ورقات في التَّصَوف (مكتبة الحاج علي الهرامة).

من أجل نظرة

أوسع للتراث

من أجل نظرة أوسع للتراث[1]

شهد العالم في هذا القرن العشرين هزة حضارية كبرى امتدت إلى معظم أرجاء المعمورة في شكل وسائل مواصلات وثقافات حديثة وصناعات متنوعة. فتغير وجه المدن والقرى والطرقات والبيوت، وتأثرت أمام تلك الهزة ثقافة الأجيال السابقة وخبرتها، بل إن ذلك تعدى إلى القيم والأخلاق والنواميس الاجتماعية التي توارثتها الأجيال.

وكان لا بد أن يعي الإنسان في غمرة انبهاره بالحضارة الجديدة أن في تراث الأجداد وخبراتهم عبر العصور شيئاً أصيلاً جديراً بالخلود؛ لأنه نتاج تجارب متوارثة صمدت لحركة الأيام والسنين وأفادت من تقلباتها.

وقد عملت وسائل الإعلام في الدول الأوروبية على تسجيل أشرطة وثائقية ومخطوطات تتناول معظم مظاهر الحياة عبر عقود هذا القرن خاصة وما أمكن حفظه من القرون السابقة، ونتمنى نحن في البلاد العربية أن نفيد من تجاربهم في تسجيل وحفظ بقايا مظاهر حياتنا التقليدية التي باتت ترحل أمام زحف الحضارة الحديثة.

وإنني لأتوجه بالخصوص إلى مجلة تراث الشعب وإلى مركز التراث للتعاون في سبيل جمع وتدوين ما يتعلق بهذا التراث الخالد في مختلف مراحل الحياة، فهُمَا الجهتان الجديرتان بحمل أعباء هذا العمل العظيم.

إن مصطلحات كثيرة قد اندثرت من لغتنا لأدوات كانت تصنع بالكامل

(1) نشر بمجلة تراث الشعب العدد 12 ص 60.

داخل هذا الوطن، تشمل ما يلزم الإنسان في ملبسه، ومسكنه، وعمله، وسائر شؤون حياته. ولم تختفِ تلك الأسماء فحسب، ولكن اختفت مسمياتها أيضاً حتى إن التلميذ اليوم لا يكاد يعرف شيئاً عن تلك الأدوات التي كان والده يستعملها في منتصف القرن العشرين.

وسوف أحاول في هذه المقالة أن أقف على المجالات التي يمكن أن يتناولها تسجيل التراث المتبقي، لعلنا نتدارك بصورة منظمة ما يمكن تداركه، ونسجل عن طريق المسجلات والأشرطة الوثائقية فترة نحن مسؤولون عن جمع مادتها لمن قد يأتي بعدنا ويحاول دراسة مظاهر حياة هذا الشعب فلا يجد غير الإشارات الباهتة والآراء الظنية.

نحن الآن في مرحلة الجمع وبيننا شيوخ يمكن أن يفيدونا في تسجيل ما نرمي إلى تسجيله من خبرات هذا الشعب في ميادين الفلاحة، والطب الشعبي، والفلك، والأدب، والتاريخ، والآثار والنظام المعماري، والمعارف المتعلقة بالحيوان، والحياة العلمية والاقتصادية.

ففي مضمار الفلاحة تتميز بيئتنا بكونها بيئة زراعية رعوية منذ آلاف السنين، ولا شك أن الأجيال قد خلفت تراثاً متراكماً حول فلاحة الأرض وغراسة الأشجار لا يستهان به، ومن هنا وجب أن ندون المعارف الزراعية والرعوية وخاصة في المجالات التالية:

(أ) المواسم الزراعية.

(ب) المقولات المتوارثة التي تنصح الفلاح في كلمات موجزة. حول شأن من شؤون الزراعة.

(ج) طرق العناية بالنبات والمغروسات.

(د) اختلاف المزروعات باختلاف التضاريس.

(هـ) تنوع المسافات بين الأشجار بتنوع الأرض.

(و) السماد واستعمالاته.

(ز) التلقيح والتكاثر بالقلب (التذكير والتقليم).

(ح) الري والسدود طرق صرف المياه الزائدة.

(ط) أدوات الحراثة والحصاد والجرف وما إليها.

وعلاقة الإنسان بالحيوان علاقة قديمة، وقد تركت في بلادنا ثقافة تراثية متميزة تدل على فهم لطبائع الحيوان، ومعرفةٍ بطرق معالجته، وفوائده، وتكاثره، وغذائه على اختلاف الفصول، ومواسم الذبح المناسبة لكل نوع من أنواعه، وكيفية تحصيل ألبانه واستعمالاتها، والاستفادة من جلوده وأصوافه وشعره.

وفي مجال الطب عرف الإنسان في ليبيا كغيره من بني جنسه الإنساني مختلف أنواع الأمراض منذ عرف الحياة وتقابل مع معضلاتها، ولا شك أنه حاول أن يصل إلى علاج للمرض باعتباره العدو الأول للإنسانية.

ولشعبنا معارف طبية كثيرة لا يمكننا أن نقارنها بما توصل إليه العلم من انتصارات باهرة في هذا القرن، ولكن من الخطأ أن نهملها وأن نعرض تجارب شعبنا الضاربة في أعماق التاريخ للضياع ونحن قادرون على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك التجارب والعلاجات التي نسوق من أمثلتها:

(أ) التداوي بالأعشاب التي تعيش في بيئتنا، وقد أعطاها الشعب أسماءها وميّز بين مفعولاتها، وخبر علاجها وتأكد مع مرور الأيام من نجاعة هذا العلاج.

(ب) ولا يمكن أن نتجاهل خبرة بعض الناس في مجال التجبير وعلاج الفك والتقلصات العضلية.

(ج) ولا أكون مغالياً إذا قلت: إن إجراء مقابلات مع أولئك الذين كانوا يستعملون الكي في علاجهم أمرٌ ضروري أيضاً لاستكمال صورة العلاج الشعبي، فهم لا ينطلقون في علاجهم من عشوائية وعنت، ولكنهم يعرفون الأدوات والأماكن المناسبة لعلاج المرض الذي يحتاج إلى الكي بدقة متناهية.

وهذه على كل حال ليست عودة إلى التعامل بالطب الشعبي ولكنها دعوة

لتوثيق هذه الخبرات ودراستها في ضوء العلم الحديث والإفادة منها علمياً.

(د) ولا بأس أن نذكر أن من عادة بعضهم أن يلجأ إلى «التسبيب». وربما كان هو العلاج الوحيد في نظرهم لكثير من الأمراض، ومنهم من يعالج بزيارات الأولياء، وقد يشمل التدوين جمع التمائم المكتوبة وأسماء المزارات.

ونحن في ذلك كله نسجل واقعاً تاريخياً لا مأخذ في تسجيله. بل إن الوقوف على طرق العلاج الشعبي واستيضاح بيان كيفياتها من المهرة الذين كانوا يمارسونها أمر ضروري للغاية. فإذا لم يكن لهذا التدوين من أهمية غير توجيه عناية الأجيال القادمة إلى ما كان عليه أجدادهم في غياب انتشار الحضارة الحديثة لكفاه.

ولكن العلم قد يصل من بعض هذه الأشياء التي يتداوى بها الليبيون إلى نتائج أخرى تدفعه خطوة أو خطوات إلى الإمام، فليس لنا أن نستهين بخبرات السابقين وإن تواضعت وسائلهم، ولم يصل علم الطب إلى نهاية النجاح الذي لا مزيد عليه حتى نصرف النظر عن تطويره.

ومن الطب إلى الفلك، فقد سأل رجل أعرابية عن معرفتها بالنجوم فقالت: «سبحان الله أما أعرف أشباحاً وقوفاً عليَّ كل ليلة»[1] وهذا القول كان ينطبق على غالبية الشعب العربي في ليبيا في البيئة البدوية بخاصة، فهو يستدل بالنجوم في سيره ويعرف الأنواء والرياح والمواسم الباردة والحارة والمعتدلة، ويطلق الأسماء المختلفة على هذه المتغيرات لتشمل كل فصول وشهور السنة. مثل أيام العنصرة والزعفرانيات والليالي السود والبيض وغيرها.

كما يعرف الفلاحون والرعاة الأمطار وفوائدها وأضرارها أحياناً، وقد عملوا على الاستفادة من هذه المعارف في مجالي الزراعة والرعي.

وقد أضاف الشعب إلى تجاربه الخاصة ما توارثته الأجيال من معلومات مكتوبة عن الفلك حتى إنني سمعت من غير واحد أن العالِمَ الذي لا يعرف متى

(1) الحيوان، للجاحظ 30/6.

تدخل الفصول الأربعة وما هي المواسم المناسبة للزراعة والغراسة لا يعتد بعلمه، ذلك أن مكتبات المخطوطات في كل من زاوية العالم وطبقة ومخطوطات ورفلة، ومصراته، وطرابلس، والجغبوب تحتوي على بعض من الكتب الفلكية التي كانت سائدة في المراكز التعليمية في القرون السابقة.

وقد انتشر بينهم كتاب (المقنع) في الفلك وشرحه للسوسي حتى حفظ منظومته كثير من العامة فضلاً عن العلماء. وتولى بعض الليبيين شرحه، وتفسير غامضه، كما فعل ابن غلبون الحفيد[1]. ولا بدَّ أنهم أفادوا من تطبيقاته في حياتهم.

أما في ميدان التاريخ فإن مركز جهاد الليبيين قد كان المثل الرائع في العناية بتراث الشعب وتصحيح تاريخه وجمع مادته. واستحق كلمة ثناء وإعجاب على هذه الهمة العالية التي يتحمل بها مسؤولياته كاملة.

وإننا لنأمل أن يحذو مركز التراث حذوه في جمع المواد السابقة وإن كنتُ أنتهز الفرصة لأثني على بعض الجهود الفردية التي جمعت بعض القصائد الزجلية والأمثال، كتلك التي قام بها الأستاذ الأديب علي مصطفى المصراتي والأستاذ عبد السلام قادر بوه وغيرهما.

ونلفت انتباه هؤلاء الأخوة وغيرهم إلى أن دواوين بكاملها ما زالت في ذاكرة بعض الحفاظ من الشيوخ والعجائز لم تصل إليها يد الجمع والتدوين، وبما أننا في عصر المذكرة لا الذاكرة فإن هذا الزجل سيضيع بوفاة هؤلاء الحفاظ إذا لم نتدارك الأمر ونقوم بحركة جمع شاملة كتلك التي قام بها مركز الجهاد.

ونود التذكير هنا بما أخذه النقاد على بعض المؤرخين من اهتمام بالملوك والحكام وإهمال للشعب وتراثه، ونؤكد بأنه بالإمكان أن ندرس دقائق تاريخنا الشعبي عن طريق الاحتفاظ بالمادة الزجلية وبالتعرف إلى إشاراتها التاريخية والاجتماعية.

---

(1) انظر مجلة البحوث العدد الأول يناير 1982، ص 18.

وفي مضمار الآثار فإن مصلحة الآثار ليست حديثة الإنشاء في بلادنا ولكنها لم تنشر جهودها بشكل واسع، ولم تعممها كما لمسنا من مركز جهاد الليبيين، وربما كان ذلك بسبب فارق الإمكانات، بيد أننا نتمنى على هذه المصلحة أن تستكشف وتوثق معالم بلادنا الواسعة وأن تهتم بالقرى والمساجد والزوايا القديمة والحصون والهرى[1] وما إليها من المعالم الأثرية.

والحديث عن التاريخ والأدب والآثار يقودنا للاستفسار عن الحياة الثقافية بصفة عامة وحركة التعليم ومناهجه ومكتبات المخطوطات التي تكاد أن تكون مجهولة في الوقت الذي فُهرس فيه عدد ضخم من مخطوطات العالم، وحُقق جانب لا بأس به من ذلك التراث الخالد. وتجدر الإشارة إلى بعض المقالات والأبحاث التي تناولت الحياة الثقافية في ليبيا جزئياً، ولكنها على كل حال لم تكن كافية لإعطاء صورة كاملة عن التعليم والنشاط الثقافي في البلاد[2].

إن الذي نأمله في هذه العجالة هو جمع تلك المخطوطات وفهرستها وتصويرها، والتعريف بالعلماء وجهودهم، وبمراكز التعليم، ومناهجها، ومكتباتها، ومؤسسيها، وتاريخ تأسيسها فلا يزال بين ظهرانينا بعض العلماء الذين عاصروا بقايا الحياة الثقافية في القرن الماضي ومستهل هذا القرن، وهم قادرون على إفادتنا بمعلوماتهم في هذا الصدد.

ويطول بنا المقام لو أردنا تسليط الأضواء على الصناعات التقليدية التي اخترعها هذا الشعب، فقد مرت به ظروف قاسية دعته إلى أن يصنع كل حاجاته

(1) الهرى: مخازن حصينة للحبوب وغيرها حفرت في منتصف الجبل.

(2) انظر مجلة البحوث التاريخية 2 (1980) ص 201 حول الحياة الثقافية في طرابلس في العصر الوسيط الإسلامي، والعدد الأول من نفس المجلة سنة 1982 وفيه قضايا ثقافية متعددة، ومجلة الشهيد في عددها الثاني (1981) حول مدارس الأوقاف ص 127. وكتاب النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي، لأحمد مختار عمر منشورات الجامعة الليبية 1971 ومدخل إلى علم المكتبات والمعلومات لعبدالله الشريف من منشورات منشأة النشر والتوزيع والإعلان 1973 وغيرها.

بيديه، ويمكن أن نجمل ذلك في الألبسة، وأثاث البيت، والأوعية على اختلاف أنواعها، ولوازم العمل، وأدوات الزينة وغيرها.

ولقد تقدمت خبرات الشعب في هذه الصناعات حتى أنجزت بدائع فنية نادرة ما زالت محل تقديرنا جميعاً. وإننا لنوجه عناية المهتمين بالصناعات التقليدية إلى ضرورة تأليف كتب توضح بالصورة والكلمة كيفية صناعة تلك الأدوات والملابس وما إليها. بالإضافة إلى تهيئة مراكز لتدريب الأجيال الناشئة على إتقان هذه الصناعات والاهتمام بأسمائها القديمة، فهي مظهر من مظاهر الحضارة، ومعلم من معالم الشخصية المتميزة.

الخـــاتمـة

وبعد، فقد جلنا بك أخي القارىء في صحارى وجبال بلادنا ومدنها وقراها، تعرفت على زوايا ومدارس كانت تضج بالحياة في العهدين العثماني والإيطالي، ورأيت كيف يصنع الرجال النهضة في سني اليأس، وكيف يزاوجون بين الجهاد ونشر العلم، وتعرفت إلى شخصيات من العهد القره مانللي الذي يعرف الباحثون في التاريخ الثقافي العربي الليبي أهميته في نهضة علمية وأدبية مميزة فكان من ذلك الحديث عن الشخصيات التي ترجم لها الكميشي وآثار أحمد بن عبد الدائم وغيرها.

وسيكون لهذا الكتاب ما بعده بإذن الله، فالكتابة في التاريخ الثقافي الليبي ذات شجون، ومصادرها ما تزال جديرة بالنظر، تحقيقاً ودراسة ومقارنة، ولهذه الفصول صلات قوية بفصول أخرى تنتظر النشر، منها جانب عن الخروبي وتراجمه لشيوخه، ومحمد بن طالب السباعي وأرجوزته الطبية المتميزة، ولعل ذلك وغيره أن يكون مادة الجزء الثاني من هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق...

المحتويات